

الخلافة العثمانية

ودورها في التجديد الديني وظهور الحركات الإصلاحية

تصنيف

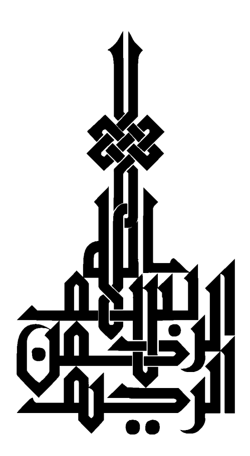
أ.د. حاكم المطيري

الخلافة العثمانية

ودورها في التجديد الديني وظهور الحركات الإصلاحية

تصنيف

أ.د. حاكم المطيري



يقظة:

لمَ ثار الجدل اليوم من جديد حول الخلافة العثمانية وشرعيتها الدينية؟ مع مضي قرن من إسقاط الحملة الصليبية الغربية لها، واحتلال أقاليمها في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م، حيث كان قرار إلغاء الخلافة الإسلامية -في المجلس الوطني بأنقرة يوم الاثنين ٢٦/ ٧/ ١٣٤٢هـ الموافق ٣/ ٣/ ١٩٢٤م- تنفيذا لشروط كرزون وزير خارجية بريطانيا في مؤتمر الصلح في لوزان بفرنسا؛ للاعتراف باستقلال تركيا، وانسحاب قوات الحلفاء من إسطنبول![١]

ولمَ بدأ الحديث عنها والصخب حولها فكريا وسياسيا وإعلاميا يزداد منذ عشر سنين في تركيا وخارجها وكأنما هي تبعث من جديد عبر العثمانيين الجدد؟

ما حقيقة ما أثاره الكتاب الغربيون وروّجه العرب المستغربون من عدم شرعية الخلافة العثمانية دينيا بل وعدم ادّعاء العثمانيين الخلافة أصلا! وأن السلطان عبد الحميد هو أول من استخدم هذا اللقب لأغراض سياسية؟

ما صحة الادّعاء بأن الدولة العثمانية كانت احتلالا تركيًّا للعالم العربي؟

كيف حمت الخلافة العثمانية العالم الإسلامي أربعة قرون؟

ما دور الخلافة العثمانية في الإصلاح السياسي والتجديد الديني؟ وما علاقتها بالحركات الإصلاحية ابتداء من حركة الشيخ البركوي وقاضي زاده ومحمد بن عبد الوهاب وانتهاء بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا؟

كل هذه الأسئلة وغيرها حاولت الإجابة عنها في هذا الكتاب الذي جاء مكملا ما سبقه من الكتب في هذا الموضوع المهم، وأولها كتابي "عبيد بلا إغلال"

(١) انظر مذكرات الحاج أمين الحسيني ص ٢١٢.

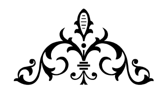
المنشور في موقعي سنة ٢٠١١م، وكتابي "المدينة والحصار الأخير .. الحملة الصليبية ودولها الوظيفية في المنطقة العربية" الذي ظل حبيس الأدراج منذ ٢٠٠٩م تقريبا حتى ييسر الله نشره هذا العام ٢٠١٩م، وكتابي "فضائل إسطنبول"، وكتابي "ملحمة الخلافة" الذي شرعت في تأليفه سنة ٢٠١٠م وما زال ينتظر دوره عجل الله صدوره!

فعسى أن تكون هذه الكتب مما يسهم في كشف ثقافة الزيف التي راجت في هذا العصر؛ وهو قرن الحملة الصليبية ودولها العربية الوظيفية الذي ابتدأ باحتلال بريطانيا وفرنسا القدس ودمشق وبغداد والمدينة وإسطنبول وإلغاء الخلافة رسميا سنة ١٩٢٤م، وشارف على الانتهاء بإذن الله خلال هذه السنوات بالثورة العربية المباركة والنهضة التركية اللتين ستعيدان للأمة وشعوبها وحدتها وسيادتها وحريتها وما ذلك على الله بعزيز!

إسطنبول - بشاك شهير

السبت ٢ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

٣١ نوفمبر ٢٠١٩م



بين يدي الكتاب:

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد..

فلم يتعرّض تاريخ دولة إسلامية للطعن والتشويه في العصر الحديث؛ كما تعرّض تاريخ الخلافة العثمانية، حيث أقامت الحملة الأوربية الصليبية -التي أسقطت الخلافة في الحرب العالمية الأولى واحتلت بلدان العالم الإسلامي- على أنقاضها دويلات قومية ووطنية وظيفية، وشكلت ثقافة صليبية علمانية، وأنتجت نخبا سياسية وأدبية وفكرية، نفضت يدها من دينها وهويتها وثقافتها، وولّت وجهها شطر الغرب المحتل تسبّح بحمده وتقدّس له، وتعدّ ما سبقه احتلالا تركيا، وتخلفا همجيا!

وقد جعلت هذه الحملة الصليبية من أولى أولوياتها، وأهم أهدافها: الحيلولة دون عودة وحدة الأمة وشعوبها ولو شعوريا، ودون عودة الخلافة التي طالما وحدتها سياسيا، وإن أدى هذا البديل القومي والوطني الوظيفي الغربي إلى اجتياح هذه الدويلات واحتلالها، وتهجير شعوبها، وتدمير أوطانها؛ كما جرى ويجري في فلسطين والعراق وسوريا واليمن وليبيا وأفغانستان؛ لفقدها القدرة على حماية نفسها، ليظل المحتل هو المتحكم في شئونها وفي وجودها!

وقد تولّت هذه الدول الوظيفية -برعاية المحتل الغربي نفسه- مهمة صياغة الفضاء الثقافي والفكري والمعرفي بما يعزز هذا الواقع السياسي، وتضليل الرأي العام الشعبي؛ عبر مناهج التعليم ووسائل الإعلام، بنفَس قومي عنصري، وهوس وطني جاهلي، يصوّر الخلافة العثمانية على خلاف حقيقتها، ويزوّر حقائق تاريخها، وأنها احتلال تركي للعالم العربي، وسبب لتخلفه السياسي

والديني؛ خدمة للحملة الصليبية الغربية ومشروعها العلماني، وقد راجت شبهٌ وأباطيل، وأوهامٌ وأضاليل، حتى غدت عند قطاع واسع من الحقائق التي لا تحتاج لدليل! لولا أن تصدى لها العلماء المصلحون، والمثقفون المنصفون الذين كشفوا زيفها، وفنّدوا شبهاتها.

وقد بدأت بعد الربيع العربي موجة إعلامية جديدة مشبوهة لإثارة الروح القومية العربية الجاهلية ضد تركيا وشعبها وتاريخها الإسلامي، بعد انحياز حكومتها للأمة وثورة شعوبها في الربيع العربي من أجل الحرية، وأعادت تلك الموجة الإعلامية المشبوهة -في ظل الثورة المضادة- الشبه ذاتها، وكان من أخطر تلك الشبه: محاولة نزع صفة الإسلامية عن الخلافة العثمانية، وبخسها دورها ودور الترك في الدفاع عن الإسلام والأمة مدة أربعة قرون في ظل الخلافة، وقرنين قبله في ظل السلطنة العثمانية التي تصدت للحملات الصليبية حتى فتحت القسطنطينية!

وهو ما يصادم ما أجمع عليه المؤرخون المسلمون على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم من الثناء على الترك وخلافتهم بالعدل، والشهادة لهم بالصلاح والفضل، ابتداء من المؤرخ المقريزي، والحافظ ابن حجر، والسخاوي، والتغربردي، ومرعي الحنبلي، والغزي، وابن العماد الحنبلي، والقطب الحنفي، وانتهاء بالعصامي المكي، والجبرتي المصري، والشوكاني اليماني!

وهو ما لم يحدث مثله لغير الدولة العثمانية، وليس معهودا من هؤلاء المؤرخين من الفقهاء والقضاة والمحدثين العدول الثقات؛ الثناء على الدول بمثل ما خصّوا به هذه الدولة، مع أن أكثرهم لم يكن تحت سلطانها أصلا،

بل أثنوا على جهاد أمرائها وصلاحهم وعدلهم وقيامهم بأحكام الدين منذ ظهور أمرهم في أرض الروم، قبل أن يمتد سلطانهم إلى الشام ومصر، وكلهم عاصرها، وشهد بما شاع عنها، وأطبقوا على تزكيتها، حد المبالغة غير المعهودة منهم، وما ذلك إلا لما أحدثه قيام هذه الدولة وظهورها من التحول والتجديد في تاريخ الإسلام، فكان حدثا عظيما، وبعثا جديدا، اهتزّ له العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه -بل العالم كله حيث كان فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م تحولا عالميا افتتحت به أوربا عصر نهضتها وطوت عصورها الوسطى- فأنطق الله ألسنة مؤرخيه، وأقلام شاهديه، بالاعتراف بفضل الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية، حتى إذا انتهى من سفر الوجود وجودها -وجعلها الله برزخا بين نهاية الاستخلاف الأول للمؤمنين الذي ابتدأ بالدولة النبوية والخلافة الراشدة وانتهى بسقوط الخلافة العثمانية، والاستضعاف الثاني الذي ابتدأ بإلغائها حتى تعود من جديد أمة واحدة وخلافة راشدة- وافترى عليها أعداؤها وأعداء الله ورسوله ودينه، من صنائع الحملة الصليبية التي أسقطتها، وأوليائها وحلفائها، فإذا شهادات أئمة الإسلام العدول تنطق بالصدق، وتشهد لها بالحق، وكأنما ادّخر الله لها ولخلفائها هذه الشهادة كرامة منه لهم؛ ليذب بها عنهم، جزاء قيامهم بالجهاد في سبيله، ونصرة دينه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾![الحج:٣٨]

وقد بلغ الإسفاف في الإعلام الوظيفي اليوم -خاصة في جزيرة العرب- حد الطعن في نسب خلفائها ودينهم واتهامهم بما هم براء منه، مع أنهم مضوا ولم يعد لهم وارث! ومع أن النسب لا وزن له في ميزان الإسلام والقرآن؛ كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وفي الصحيح: (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)!

كل تلك الحرب الإعلامية المسعورة تشن على الخلافة العثمانية لا لسبب إلا لأنها آخر دولة إسلامية تُذكّر الأمة بخلافتها ورسالتها ووحدتها وسيادتها وهويتها!

وتُشنّ على تركيا الحديثة اليوم لا لشيء إلا لأنها انحازت للأمة ولتاريخها ودينها، بعد قرن من الاغتراب، وخوفا من عودتها كدولة مركزية قد تمهد لمشروع الأمة الواحدة والدولة المركزية القادرة على حماية شعوبها ودفع العدو عنها، واستعادة القدس والمسجد الأقصى!

وهو ما تعدّه الحملة الصليبية ودولها الوظيفية تهديدا مباشرا لوجودها في المنطقة كلها!

وقد جاء هذا الكتاب الذي بين يديك مختصرا لبيان دور الخلافة العثمانية في تجديد الدين في القرن العاشر، وبعث حركة الإصلاح الديني خاصة، والنهضة عامة، ودور الخلفاء والدولة نفسها في هذا التجديد، ابتداء بالسلطان محمد الفاتح، وانتهاء بالسلطان عبدالحميد ومشروعه (الجامعة الإسلامية) والإحياء الإسلامي في عصره الذي كان يسابق به الزمن قبل انهيار الخلافة أمام آخر الحملات الصليبية، وقبل الحصار الأخير للمدينة النبوية، تلك (الجامعة الإسلامية) التي دعا إليها السلطان عبدالحميد ولم تر النور بعد، فعسى أن تصبح يوما ما واقعا تعيشه الأمة لتستعيد به وحدتها وسيادتها ونهضتها، وإنه لقريب، وما ذلك على الله بعزيز!

وقد جعلت هذا الكتاب في مبحثين:

المبحث الأول: الاستخلاف في الأرض والوعد الحق ودخول الدولة العثمانية فيه:

لا يمكن معرفة حقيقة الخلافة العثمانية وموقعها من تاريخ الإسلام وعلاقتها به، قبل الإحاطة بالإسلام نفسه الدين الخاتم للأديان، وكلمة الله ورسالته الخالدة للعالمين، ومعرفة حقيقة وعد الله: بظهوره على الدين كله، وباستخلاف المؤمنين به في الأرض، كما قال تعالى في البشارة بظهور الإسلام على كل الأديان وعواصم بلدانها، حتى تُفتح روما كما فتحت القسطنطينية، كما وعد الله بقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال تعالى في الوعد باستخلاف المؤمنين به: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سبحانه عن سنته في الاستبدال لمن أعرض عن حمل دينه والجهاد في سبيله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى في صفات من سيأتي بهم في كل استبدال حين وقوع الإعراض ممن أكرمهم الله به ثم ارتدوا عنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ

يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد تحقق هذا الوعد الحق والاستخلاف في الأرض لهذه الأمة عامة؛ بالإيمان والإسلام، والجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنامه، فكان الاستخلاف العام للمسلمين كافة مدة ثلاثة عشر قرنا، وكانت الخلافة والقيادة خاصة أولا للعرب، ثم وزر لهم الفرس بالوزارة، حتى إذا ركنوا للدنيا، وتركوا الجهاد، وعجزوا عن حمل الرسالة والقيام بمسئولياتها؛ استبدل الله بهم الترك والكرد، وشرفهم بالاستخلاف والظهور في الأرض بالجهاد في سبيل الله ستة قرون، وخصّ الترك بالخلافة -وهي الرئاسة والإمامة العامة على الأمة- أربعة قرون، فبعث الله بهم الإسلام من جديد، وفتحوا الأرض به، واستعادت الأمة قوتها وعافيتها وشبابها بعد كارثة الغزو المغولي، فقاسم الترك العرب نصف تاريخ الإسلام، كما قال ابن خلدون في تاريخه عنهم: (حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة، وطمسوا رونق البلاد، وأدالوا بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات، والاسترسال في الترف من تكاسل الهمم، والقعود عن المناصرة، والانسلاخ من جلدة الرأس وشعار الرجولية، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه، وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه، بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية، وأنصارا متوافية... يدخلون في الدين بعزائم إيمانية، وأخلاق بدوية، لم يدنسها لؤم

الطباع، ولا خالطتها أقذار اللذات، ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف)[1].

وقال الإمام المحدث ولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م في بيان اختصاص الله الترك بما اختصّ به قريش والعرب من السيادة والخلافة في الأرض، التي هي من آثار النبوة والوعد الحق للمؤمنين به ﷺ بالاستخلاف: (فالنبوة عمّت كل الأصناف، فالأحمر والأسود مستويان فيما يرجع إلى الفيض الذي هو من باب النبوة، ولذلك لما اقتضت المصلحة الكلية عموم سلطنة الترك ألهمهم التدين بدين الإسلام، وأما سعادة قريش فبسببها -أي: نبوته- كانت خلافتهم إلى زمان طويل... كما ألهم الترك وذلك منشعب عن عموم نبوته)[2].

وقد ذكر بأن أول خلفائهم ومن أطلق عليه أمير المؤمنين منهم هو سليم الأول، وأنه كان يخطب له بذلك على منابر الحرمين ومصر والشام وأرض الروم والعجم والهند.

وقد عدّ المؤرخ الفاضل لطفي باشا الألباني -الفقيه الحنفي والوزير العثماني المتوفي ٩٧٠ هـ/ ١٥٦٢م- ظهور الدولة العثمانية بداية التجديد الإسلامي بعد الانهيار الشامل باجتياح المغول للمشرق، حيث يقول عنها: (وكان عثمان غازي مجدد الدين الإسلامي على رأس القرن السابع الهجري؛ لأن في ذلك الزمان كان خروج جنكيز خان الذي انتصر على المسلمين، وأهان الدين الإسلامي أيما إهانة، حتى أن كتب التواريخ ذكرت أنه: منذ ظهور جنكيز خان حتى العصر

---

(١) "تاريخ ابن خلدون" ٥/ ٤٢٨

(٢) "التفهيمات الإلهية" ١/ ٢٠٣ الطبعة الهندية.

الذي تولى فيه عثمان غازي الإمارة كان الكفار المغول ينتصرون على المسلمين في كل إقليم ومكان، ويهجمون عليهم في المدن والبلاد والقرى، ويقيمون معابدهم بدلا عن المساجد، ويتعبدون فيها، وعندما ينزل التتار إلى أية قرية فإنهم ينهبون خيراتها، ولا يرضون بغير ذلك، ويشربون الخمر، ويتمتعون بالنساء، وكان الرجال الفقراء المغلوب على أمرهم يضعون الشراب والخمر والنساء في الأسواق، وفي المدن والقرى؛ من أجلهم، ويعرضون نساءهم في القرى، ويأخذ التتار من تعجبهم من النساء؛ وأصابت المسلمين محنة شديدة في ذلك الوقت، وقد أخبر ﷺ قائلا: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها")[1].

وكذلك عدّ سليم الأول مجدد القرن الهجري التاسع، بعد أن قضى على فتنة إسماعيل الصفوي التي عمت المشرق، فقال عنه: (ومجدد الدين في القرن التاسع الهجري هو السلطان سليم من العثمانيين، فأحيا سنة رسول رب العالمين؛ لأن العصر الذي تولى فيه السلطنة كان العالم مليئا بالفتنة والفساد... وكان السلطان بايزيد خان سلطان الروم قد طعن في السن، وانتشرت لفتن والقلاقل في ولاية الروم وفي كل مكان، وعج العالم بالفتن وانقلب رأسا على عقب، وقد نصحه ابنه السلطان سليم بإصلاح ذلك، وقد خرج في ديار الشرق الشاه إسماعيل [الصفوي]، وانتصر على أمراء الشرق، وانتحل مذهب الرافضة، وكان جميع أهل السنة والجماعة في ضعف وذل وتشت، بصورة لا يمكن التعبير عنها. وكان الشاه إسماعيل قد استولى على

(١) "تواريخ آل عثمان" لطفي باشا ص ٨٦

أموال ومتاع كل سني، ثم يقوم بعد ذلك بقتلهم، حتى لم يبق أحد من أهل السنة في عراق العرب، وعراق العجم، وأذربيجان، وخراسان، وفارس، وكرمان.. وفي نهاية الأمر عندما تولى السلطان سليم الحكم بعد وفاة والده؛ ترك كل هذا المال والجاه، وقام بجمع جيش كبير بالعدة والعتاد، وخرج من إسلامبول واتجه إلى تبريز، وعانى من المشقة والتعب؛ وكان هدفه ومقصده إحياء مراسم الدين وإجراء مراسم سنة سيد الأنام والمرسلين، وفقه الله تعالى في عمله ومطلبه، ومحا أولئك المفسدين الملحدين من صحائف الدهر، وعاد السلطان سليم من هذه الحملة متجها إلى إسلامبول، واستقر بها، وبعد فترة جاءت الرسائل من علماء ما وراء النهر... يشهدون بمضمون هذه الرسائل المكتوبة بأن السلطان سليم خان الأول -عليه الرحمة والغفران- كان مجدد الدين على رأس القرن التاسع الهجري، وأن الله أحيا به الدين الإسلامي)[(١)].

وما ذكره ابن خلدون والدهلوي ولطفي باشا وغيرهم من المؤرخين يؤكد مدى انهيار العالم الإسلامي في تلك الحقبة -في ظل اجتياح الحملات الصليبية من الغرب والحملات المغولية ثم الصفوية من الشرق- حيث كان ظهور الدولة العثمانية نفسه تعبيرا عن استجابة الأمة للتحديات، وقدرتها على تجديد واقعها السياسي، والوقوف مع كل قوة إسلامية قادرة على قيادتها؛ لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية والتصدي لها؛ وهو ما يفسر موقف علماء الإسلام في كل الأمصار -كما سيأتي- من الدولة العثمانية، حيث كان ظهورها في نظرهم فتحا مبينا للإسلام، وتجديدا عظيما له، لا يعرف قدره إلا من عرف ما جرى

(١) "تواريخ آل عثمان" لطفي باشا ص ٩١.

لها منذ خروج جنكيزخان والمغول على العالم سنة ٦١٦هـ، حتى اجتاحت جيوشهم المشرق الإسلامي ودمرت بغداد سنة ٦٥٦هـ؛ وقال عنها ابن الأثير: (ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة: ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام: لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا! إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، إلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعن من البلاد؟ التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج... وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم

ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا، وتخريبا، وقتلا ونهبا، ثم يتجاوزونها إلى الري، وهمذان، وبلد الجبل، وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأمينية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأمينية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلا، ونهبا، وتخريبا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عددا، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورءوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها، وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيه مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله..

ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها:

١- هؤلاء التتر -قبحهم الله- أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة، إن شاء الله تعالى.

٢- ومنها خروج الفرنج -لعنهم الله- من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة.

٣- ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق: وقد ذكرناه أيضا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فإن الناصر، والمعين، والذاب، عن الإسلام معدوم، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد:١١]، فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع...)[(١)]!

هذا مع أن ابن الأثير توفي في بداية هذه الأحداث حيث توفي سنة ٦٣٠هـ، وذلك قبل وصولهم إلى بغداد سنة ٦٥٦هـ ثم دخولهم الشام!

حيث دامت فتنتهم قرنا كاملا إلى مطلع القرن الثامن الهجري وبدأت تخف بعد دخولهم الإسلام!

وهو ما سيجعل من ظهور الدولة العثمانية واستئنافها الفتوحات بعد تلك المحن والفتن كظهور المهدي المنتظر!

(١) "الكامل في التاريخ" ١٠/ ٣٣٣

قيام الدولة العثمانية على القيم الدينية الإسلامية:

فقد تأسست الدولة العثمانية منذ بدايتها على الدين والعمل بأحكامه، والالتزام بتعاليمه، وقد طبع هذا الالتزام الديني السلطنة ثم الخلافة العثمانية بعد ذلك بطابعه الذي ميّز عامة أمرائها وخلفائها عن سائر أمراء الدول التي عرفها المسلمون في ظل الخلافة العباسية، وقد ذكر المؤرخ طاشكبري زاده المتوفى سنة ٩٦٨هـ في كتابه "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" أول عالم فيها وهو الشيخ أده بالي في عهد أول أمير لها وهو عثمان؛ فقال عنه: (الطبقة الأولى في علماء دولة السلطان عثمان الغازي بويع له بالسلطنة في سنة ٦٩٩هـ: ومن العلماء في زمانه المولى أده بالي، ولد بالبلاد القرامانية، وقرأ هناك بعضا من العلوم، ثم ارتحل الى البلاد الشامية وتفقه بها على مشايخ الشام وقرأ التفسير والحديث والأصول عليهم، ثم ارتحل إلى بلاده واتصل بخدمة السلطان عثمان الغازي ونال عنده القبول التام، وكانوا يرجعون إليه بالمسائل الشرعية، ويتشاورون معه في أمور السلطنة، وكان عالما عاملا عابدا زاهدا، يروى أنه كان مقبول الدعوة، وكانوا يتبركون بأنفاسه الشريفة، وكان رحمه الله ذا ثروة عظيمة إلا إنه سلك مسلك الصوفية)[1].

وقد تزوج الغازي عثمان ابنة الشيخ أده بالي وأنجب منها أولاده، وتوفي الشيخ بالي سنة ٧٢٦هـ وتولى بعده صهره زوج ابنته طورسون الذي عده طاشكبري زاده العالم الثاني من علماء الدولة العثمانية، فقال عنه: (وهو أيضا من بلاد قرامان، قرأ على المولى أده بالي التفسير، والحديث، والأصول، وتفقه عنده،

---

(١) "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" ص ٦.

وبعد وفاته قام مقامه في أمر الفتوى، وتدبير أمور السلطنة، وتدريس العلوم الشرعية، وكان عالما عاملا مجاب الدعوة)[١].

وكان الغازي عثمان لا يخرج إلى الجهاد إلا بعد مشاورة الفقيه طورسون، كما ذكر المؤرخ د. أحمد كوندوز[٢]، وهو ما يؤكد طبيعة الدولة العثمانية منذ نشأتها، وأنها قامت على أساس إقامة الدين والجهاد في سبيل الله، لا الملك والسلطنة!

وكان السلطان سليم لا يتجاوز قول شيخ الإسلام في عصره أحمد أفندي الزمبيلي، ويلتزم فتاوى ابن كمال الحنفي.[٣]

وكان ابنه سليمان القانوني يلتزم فتاوى شيخ الإسلام في عصره المفسر المفتي أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي الحنفي المتوفي سنة ٩٨٢هـ، وكان القانوني يرجع إليه في كل المسائل التنظيمية القانونية التي يسنها، وقد أرسل إلى أبو السعود حين مرض (إلى رفيقي في هذه الدنيا، وأخي في الآخرة، وصاحبي في طريق الحق)، فلما حضرت القانوني الوفاة أمر أن توضع في قبره فتاوى أبو السعود في صندوق؛ ليحتج بها يوم القيامة، وأنه لم يخرج فيما سنّه من قوانين لتنظيم شئون الخلافة عما أفتاه به شيخ الإسلام أبو السعود، وكان أبو السعود أكبر مجتهدي ذلك العصر.[٤]

وقد كانت هذه المهمة الدينية الجهادية التي صبغت الخلافة العثمانية بصبغتها حتى ميزتها عما سبق من دول إسلامية، واضحة بجلاء في سيرة

(١) "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" ص ٧.

(٢) "الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٦٧١

(٣) المصدر السابق.

(٤) الوثائق ص ٦٧٢ وانظر أيضا ص ٥٢٥.

خلفائها، كما في دعوة سليمان القانوني المسلمين إلى الدعاء له ولجيشه بالنصر حيث أكّد فيها رسالة هذه الدولة التي قامت من أجلها وهو إقامة أحكام الله فيقول:

(لقد كانت غاية آبائنا وأجدادنا الكرام جهاد الكفار، ومقاومة منكري نبوة محمد ﷺ، وقد قاموا في أيام حكمهم بغزوات كبيرة، فنشروا نور الإيمان والإسلام في كثير من البلاد التي كانت تقبع في ظلام الكفر والضلال.

وأنا بدوري سوف أسير على خطاهم وأقتفي آثارهم ويكون همي الوحيد الجهاد في سبيل الله، وقد نما إلى أسماعنا أن الكفار والمشركين قد أجمعوا أمرهم لمحاربة المسلمين والكيد لهم، وقد عقدت العزم على الجهاد في سبيل الله مستعينا بالمخلصين من جماعة المسلمين، تظللنا رحمة الله وعنايته، وتقودنا في ذلك محبة رسول الله ﷺ، متوسلين إليه بالخلفاء الأربعة، والصحابة الكرام والأولياء الأخيار، غايتنا في ذلك إحياء شعائر الدين، وتطبيق شريعة النبي الأمين.

أنا العبد الذليل لله، ولا حول ولا قوة لي إلا به، ولا يغني عني لا جيش كثير، ولا مال وفير، واعتمادي فقط على رحمة الله الكريم، وشفاعة النبي المصطفى المبعوث رحمة للعالمين، ولا يساوي الملك في عيني ولو مقدار ذرة، ولا اعتزاز عندي بمال أو جاه، وقوتي وبأسي نابعة من دعاء العلماء والصالحين والفقراء، ومقصدي ومرادي إعلاء كلمة الله وإنفاذ شريعته في الأرض.

ومادام الأمر هكذا فينبغي أن نتوافد على جوامع إستانبول، علماء صالحين وشيوخا وفضلاء، ونتلوا القرآن بنية هزيمة الكفر والضلال، وتنكيس راية

الكفار، وكسر شوكتهم، ورفع راية الإسلام، وبسط نور الشريعة في الأرض، وليعلم جميع المسلمين بهذا الأمر، وليرفع جميع المؤمنين أيديهم تضرعا إلى الله كي يمدنا بالنصر وهو على ذلك قدير وليس عليه بعزيز ..

حرر في ١٨ رمضان ٩٣٨هـ/١٥٣٢م)[١].

وقد أدرك المؤرخون المسلمون هذا المعنى الذي اختصّ به العثمانيون عمّن سبقهم من أمراء وخلفاء، وهو الطبيعة الدينية والحنفية السنية التي صبغت دولتهم، حتى فاقوا من سبقهم في خدمة الخلافة العباسية -كالدولة السلجوقية التي نشأت الدولة العثمانية في ظلها- صلاحا وجهادا وإقامة لحكم الشرع؛ ولهذا قارن لطفي باشا بينهم وبين من سبقهم من أمراء وخلفاء، ثم قال عنهم: (أما العثمانيين فعقيدتهم طاهرة ونقية، وهم المسلمون السنة الذين تزينوا بمكارم الأخلاق، وبقانون السلاطين السابقين، وهم الحكام الذين يستحقون التاج والعرش؛ لأنهم زينوا حكمهم بالشريعة، وبسنة حضرة النبي المطهرة...

وكانت عقيده السلاجقة طاهرة، ولم يتدخل العثمانيون في حكمهم، وباتفاق جميع المؤرخين أن السلاجقة هم الزعيم والمرشد للدولة العثمانية)[٢]!

اشتهار العثمانيين بالجهاد والفتوحات والعدل:

وقد كان أشهر ما بزّ به العثمانيون من سبقهم وأهّلهم للاستخلاف في الأرض، ورشحهم للخلافة والإمامة هو جهادهم في سبيل الله، وقيامهم به أكمل قيام، وإقامتهم للدين وأحكامه، والعدل والقسط، بعد أن مُلئت الأرض جورا وظلما،

(١) انظر الوثائق د أحمد كندوز ص ٦٩٥

(٢) "تواريخ آل عثمان" ط ١ سنة ١٩٢٢م ص ٨٤

قبل ظهورهم، كما عرف ذلك عنهم منذ بدء دولتهم، وقد نوّه بذكرهم المؤرخ المقريزي المصري -المولود سنة ٧٦٦هـ والمتوفى سنة ٨٤٥ هـ- وهو من أقدم من أرّخ لهم قبل فتحهم القسطنطينية، فقال عن بايزيد جد محمد الفاتح: (أبو يزيد خوندكاربن مراد بن أرخان بن أردن علي بن عثمان بن سليمان بن عثمان، ملك الروم، يقال: إن أصل بني عثمان من الحجاز، وأن عثمان الأول قدم من المدينة النبوية إلى بلاد قرمان ونزل قونيا فارّا من غلاء كان بالحجاز والشام، واتصل ببني قرمان وبأتباع السلطان علاء الدين كيتبادين كيخسرو، في أعوام بضع وخمسين وست مئة [٦٥٠هـ] وتزيّا بزي أهل قونية، وصاريخرج مع السرايا إلى بلاد الروم ويغزوهم ويغنم منهم، فولد له بقونية سليمان ابن عثمان، فسلك طريقة أبيه في الغزو مع السلجوقية والقرمانية وعُرف بينهم، وظهرت له فروسية فافتتح عدة حصون، وولد له ابنه عثمان بن سليمان فعظم شأنه وصار له أتباع كثيرة، فخرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية، وواصل غزو الكفاروافتتح بورصا في حدود الثلاثين والسبع مئة [٧٣٠هـ] واستوطنها، وافتتح ما يليها من الحصون والبلاد، فاتسعت أحواله وكثرت أمواله، ومات عن ابنه أردن علي بن عثمان، فأربى على أبيه وفتح الله على يديه عامة الحصون والبلاد التي تلي خليج قسطنطينية، فحسده ملوك الروم وخشوا تسلطه عليهم.

وكانت مملكة الروم إذ ذاك منقسمة... فنشر أردن علي العدل في أعماله، وقرب العلماء والصلحاء، وعمر الخوانك والزوايا والتكايا، وقام من بعده ابنه أرخان بن أردن علي، فعظم شأنه وهاجر الناس إليه، فكثرت التجار وغيرها ببلاده، حتى مات وترك ابنه مراد بن أرخان، وكان طوال أسمر اللون أقني الأنف

أحنى، فلم يرض بما في يده مما فتح آباؤه، وركب البحر ولم يركبه أحد من آبائه، وأخذ ما يقابل كالي بولي [قلعة غالي بولي] من البلاد التي هي قبلي خليج قسطنطينية، وعدى إلى كالي بولي ونازلها حتى أخذها، وبث جيوشه فيما وراء الخليج ففتح أراضي قسطنطينية شيئا بعد شيء، حتى نزل عليها وحاصرها أشد حصار، فأتتها نجدات الروم والفرنج والأفلاق والأنكر والروس والبلغار والأرنويط في عدة طوائف أخر، فأيّده الله عليهم وثبته حتى أجابوه إلى حمل الجزية إليه، وقروا في كل عام مبلغا يقومون به وعدة من الخيل والرقيق، وأن يقيم بداخل قسطنطينية قاض يحكم بين الروم والمسلمين بشريعة الإسلام، وشرط عليهم أن قاضيه يحكم فلا ينقض ملك قسطنطينية حكمه، وأن له أن يحكم بنقض ما حكم به الملك فالتزموا له ذلك.

ثم تطاول حتى عمّر له بيتا عظيما في أدرنابولي، وكثرت في أيامه عمارة الجوامع والخوانك، وتزايد عدد الفقهاء والصلحاء في أعماله، ووالى إرسال الجيوش والعساكر لغزو طوائف الكفر، حتى قام غالبهم بالجزية له، وصار لا يقيم ببلده بل لا يزال في الغزو والقتال..

وبالغ في إظهار العدل، وحمل الكافة عليه، وجعل سائر الأمور مقرونة بأحكام الشرع، فكان لا يتعاطى هو ولا أحد، سوى القضاة شيئا من الأحكام بين الناس. وصارت أموال أعماله كلها تحمل، ما يتحصل من معادنها وغنائمها وعشورها وخراجها إلى بيت المال، وأقام على بيت المال رجلا أجمعوا على علمه ودينه، وصار الوزير وأمراء الدولة وجميع الشادين إنما وظيفتهم استخراج الأموال من جهاتها وحملها إلى بيت المال.

ورتب للقضاة وكتابهم ونيابهم حتى لرسلهم ما يكفيهم بمعاليم مقررة على بيت المال، فكان الرجل إذا شكا غريمه إلى القاضي على حق شرعي، كتب له في ورقة ليحضر، وكانت هذه الورقة تسمى عندهم نيشان القاضي، أي: علامة القاضي، فلا يستطيع أحد مخالفة تلك الورقة، ولو كان السلطان هو المطلوب، بل يبادر عندما يراها ويحضر مع غريمه إلى القاضي حتى يمضي فيه حكمه، وشرط على القضاة ونواب الممالك أن من ولي عملا في شهر من السنة، فإذا أدركه ذلك الشهر من قابل، جلس بجامع البلد وطلب أكابر أسواق المدينة التي هو قاضيها أو أميرها، فيحضر كبير من كل سوق ومعه أهل سوقه، وتحضر سائر الطوائف بأكابرها ويكتبون جميعهم محضرا بسيرته فيهم أيام ولايته عليهم، ثم يتوجه بالمحضر إلى السلطان، فإذا قرئ عليه إما يعيده إلى عمله أو يصرفه عنه ويولي غيره. وأكثر ما كان يستمر بالحاكم [القاضي] في بلد من أعماله عامين.

وجعل أيضا في كل عمل من أعمال المملكة كاتبا يكتب متحصل البلد من العشر، وهو مال السلطان، ولا يؤخذ من الزراع غير العشر بغير زيادة عليه، ومنه يصرف كلف المباشرين والقصاد لا من مال الفلاحين.

ويتحصل أيضا من كل عمل خراج الثمار والزيتون ونحو ذلك من الغروس، وكان حاصل كل معاملة في جامعها. وفيه أيضا أسماء جميع أهل القرى والضياع ومبلغ ما على كل واحد منهم من عشر أو خراج، فإذا ظلم أحد الفلاح في شيء مما عليه من الخراج أو العشر، وقف القاضي معاملته وشكا حاله، فيكشف عند ذلك القاضي عن اسمه ويحرر أمره، فإذا تبين أنه قد ظلم أخرج

مرسوم السلطان بأن من ظهر عليه أنه ظلم أحدا في قليل أو كثير، ولو كان العامل أو أمير البلد، فإنه يعلق منكوسا حتى يموت، ويؤخذ جميع ماله لبيت المال، فلذلك تناهى الناس كافة عن الظلم في جميع مملكته، وكان مع ذلك حسن الاعتقاد في أهل الدين والعلم من الصلحاء والعلماء، يبالغ في ذلك حتى يخرج في اعتقادهم عن الحد)[١].

وكل هذه الفتوحات العسكرية، والإصلاحات السياسية والقضائية والمالية والإدارية التي قام بها العثمانيون قبل فتح القسطنطينية، لا عهد للأمة بها منذ قرون، إذا تعطلت الفتوحات بعد ظهور جنكيزخان وجيوشه على المشرق الإسلامي منذ ٦١٦ هـ حتى احتل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ، وسبقتهم الحملات الصليبية التي احتلت الشام قبل ذلك بأكثر من قرن، فصار غاية الأمراء بعد ذلك تحرير ما أخذ من أرض الإسلام واستنقاذه، أما الفتوحات فلم تعد تخطر لهم على بال، حتى ظهور الدولة العثمانية التي تمددت في أراضي الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، حتى حاصرت جيوشها فيينا عاصمة النمسا في قلب أوربا!

كما ظل العالم الإسلامي يعاني من آثار فرض التتار المغول قانونهم الياسق على المسلمين، مدة دولتهم التي امتدت قرنا كاملا، فشاعت البدع والمحدثات والشركيات الوثنية على نحو لم يعهده المسلمون، فأعادت الدولة العثمانية للشرع وأحكامه قدسيته، وصار الشرع والعدل أساس الحكم، وقاموا بإصلاحات كبرى أهّلتهم بعد ذلك للخلافة وقيادة الأمة والعالم الإسلامي عن جدارة، وقد كان تنويه علماء الأمة بهم وتزكيتهم لهم على اختلاف مذاهبهم من

---

(١) "درر العقود" ١/ ٤٣٩

الشافعية والحنابلة فضلا عن الحنفية -الذين لم يكن أكثرهم أصلا في دولتهم، بل كانوا في مصر والشام واليمن والحجاز، قبل أن تمتد الدولة العثمانية بعد ذلك- أكبر الأثر في تهيئة الرأي العام الإسلامي لاستقبال الخلافة العثمانية، ليتحقق فيهم الوعد الحق ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وكما وعد الله تعالى المؤمنين إلى قيام الساعة بالاستخلاف عند تحقق الشرط منهم ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]

فلما تحقق المشروط لهم؛ كان ذلك دليلا على تحقق الشرط منهم وهو الإيمان والتوحيد والعمل الصالح!

وقد جددت الخلافة العثمانية ما اندرس من معالم الإسلام، وأقامت الشعائر والأحكام، وبنت المدارس للفقهاء والمحدثين الأعلام، حتى قصدها في القرن الهجري التاسع والعاشر كل فقيه ومحدث وعالم من كل مذهب وفن، وأحيت خلافتهم في الأمة روح الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فلم يعرف في الخلفاء بعد الراشدين من اعتنى بالجهاد والفتوح كعناية خلفائها، حتى لا يكاد يوجد فيهم من لم يجاهد ويقد الجيوش بنفسه؛ كما قال المؤرخ الجبرتي المصري عن سليم الأول وابنه سليمان في تاريخه: (ولما توفي تولى بعده ابنه

الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان، فأسس القواعد، وتمم المقاصد، ونظم الممالك، وأنار الحوالك، ورفع منار الدين، وأخمد نيران الكافرين، وسيرته الجميلة أغنت عن التعريف، وتراجمه مشحونة بها التصانيف، ولم تزل البلاد منتظمة في سلكهم، ومنقادة تحت حكمهم، من ذلك الأوان الذي استولوا عليها فيه إلى هذا الوقت الذي نحن فيه، وولاة مصر نوابهم وحكامها أمراؤهم.

وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين، وأشد من ذب عن الدين، وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم، وأيدي نوابهم، وملكوا أحسن المعمور من الأرض، ودانت لهم الممالك في الطول والعرض، هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور، وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم، وطالت مدتهم، وهابتهم الملوك، وانقاد لهم الممالك والمملوك)[1].

وقال الجبرتي عن السلطان محمود: (ومات سلطان الزمان السلطان محمود خان العثماني، وكانت مدته نيفا وعشرين سنة وهو آخر بني عثمان في حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الأحوال والمآثر الحسنة توفي ثامن صفر سنة ١١٦٨وتولى السلطان عثمان بن أحمد أصلح الله شأنه)[2].

(١) " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " ١/ ٣٧

(٢) " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " ١/ ٢٩١

استنجاد شعوب الأمة بالدولة العثمانية لحماية بلدانهم:

وقد صار المسلمون وغيرهم في البلدان المجاورة للدولة العثمانية يستنجدون بها؛ ليدخلوا تحت ولايتها، ويكونوا من رعيتها؛ رغبة في العيش في ظل عدلها؛ كما ذكر المقريزي[1] أيضا عن بايزيد بن مراد بن أورخان: (واشتهر ذكره وبعد صيته، وكاتبه السلطان الملك الظاهر برقوق [بمصر] وبعث إليه بالخيول المسومة، وعليها السروج والكنابيش الذهب، وحمل إليه الهدايا الجليلة. وأرسل له مرة الأمير حسام الدين حسن بن علي الكجكني، ومرة الأمير طولو. ولم يزل هو يبعث إلى السلطان التقادم الجليلة.

ولم يبق أحد من الملوك المجاورة له حتى كاتبه وهاداه، فسمت همته إلى أخذ الممالك، وذلك أن قرايلوك لما قتل القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس في سنة ثماني مئة ونازل سيواس ليأخذها فقاتله أهلها وكتبوا إلى أبي يزيد يرغبون إليه أن يملك مدينتهم، فسار إليها وملكها واستناب بها ابنه سليمان وسار إلى أرزنجان فملكها وقد فر منه حاكمها طهرتن إلى تيمورلنك وهو بأذربيجان، وجال في تلك البلاد حتى توهم منه السلطان الظاهر برقوق وأخبرني عنه الأمير حسن الكجكني رحمه الله أنه قال: ما أخشى من تيمورلنك فإني أجد كل أحد يساعدني على محاربته، وإنما أخشى عليكم ابن عثمان، وما مات السلطان رحمه الله إلا والإرجاف قوي بحركة أبي يزيد إلى نحو بلاد الشام..).

ثم ذكر ما جرى على بايزيد وهزيمة جيشه أمام تيمور لنك وأخذه أسيرا، وموته في الأسر سنة ٨٠٥هـ، وتولي ابنه سليمان الأمر، وكان بايزيد كما يقول

---

(١) "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة " ١/ ٤٤٤

المقريزي عنه: (شجاعا عادلا غازيا مهابا كريما محبا لأهل العلم والصلاح... وكانت عادة أبي يزيد ألا يتعرض لأموال أحد من رعيته، فمن مات ولا وارث له يتولى القاضي أمر ما خلفه، ولا يؤخذ من التجار في جميع مملكته مكس البتة، ومن خرج معه لغزو وكسب ما عسى أن يكسب لا يتعرض لأخذ شيء منه. وكان إذا خرج إلى غزو خرج معه الناس على اختلاف طبقاتهم من العامة والباعة ونحوهم، فلذلك كانت جموعه كثيرة.

ويوجد في جميع مملكته التكايات في كل بلد، وهي بيوت معدة للواردين، يوجد بها من اللحم والطعام والبر ما يقوم بحال الوارد مدة إقامته، واحدتها تكية. وبالجملة فكانت محاسنه كثيرة... وكان الذي قام بعد أبي يزيد بأمر المملكة سليمان لأنه أكبر ولده، وأقام ببر القسطنطينية في مدينة أدرنه وكالي بولي، وقام أخوه عيسى بمدينة برصا، وتحاربا فقتل عيسى واستبد سليمان بمملكة أبيه، فثار عليه أخوه موسى وحاربه فقتل سليمان، وملك بعده أخوه موسى ببر أدرنه، وقام أخوه محمد كرجشي ببرصا، وتحاربا، فقتل موسى، واستبد محمد كرجشي بالمملكة حتى مات، فأقيم بعده ابنه مراد بن محمد كرجشي بن خوندكار أبي يزيد بن مراد بن أرخان بن أردن علي بن عثمان).

وقد اشتهروا جميعا بالجهاد في سبيل الله، والصلاح وإقامة العدل، وكل ذلك قبل ظهور صاحب البشارة النبوية فاتح القسطنطينية أبو الفتوحات محمد الفاتح رضي الله عنه!

وقال عنهم الحافظ ابن حجر-المتوفى سنة ٨٥٢هـ-: (مراد بن أورخان بن أردن علي بن عثمان بن سليمان بن عثمان التركماني، صاحب الروم، يقال إن

أصلهم من عرب الحجاز، وكان أول من نبه منهم سليمان، فكان يغزو ومعه نفر من المطوعة [المتطوعين]، وكان شجاعا بطلا فاشتهر بذلك وكثر أتباعه، ثم مات، فقام ابنه عثمان مقامه، وفتح برسا [بورصا] واستوطنها في حدود الثلاثين وسبعمائة [٧٣٠هـ] ثم مات، ثم قام ابنه أردن على مقامه فأربى على أبيه في الجهاد، وقرب العلماء والصلحاء وعمر الخوانك والزوايا ثم مات، فقام ابنه أورخان مكانه ثم مات، فقام ابنه مراد فركب البحر ونازل ما وراء خليج القسطنطينة وأذلهم حتى بذلوا له الجزية ونشر العدل في بلاده، ولم يزل مجاهدا في الكفرة حتى اتسعت مملكته، ومات في حرب وقعت بينه وبين الكفار وعهد لابنه أبي يزيد، وكانت مدة مملكته عشرين سنة)[(١)].

وقال المؤرخ يوسف بن تغري بردي -المصري الحنفي المتوفي سنة ٨٧٤هـ- عن بايزيد (وكان من أجلّ ملوك بنى عثمان حزما وعزما وجلالة وشجاعة وإقداما)[(٢)].

وقال عن حفيده مراد بن محمد: (السلطان خوندكار مراد بك ابن السلطان محمد بك كرشجى بن أبى يزيد ابن عثمان، متملك برصا وأدرنابولى وما والاهما من ممالك الروم، [توفي] في سابع المحرم بمملكة الروم، وتولى الملك من بعده ولده السلطان محمد بن مرادبك، واقتدى بسنة أبيه في الجهاد والغزو، ونكاية العدو، وأخذ البلاد والقلاع من يد الفرنج، ومات السلطان مراد بك وهو في أوائل الكهولية، وكان خير ملوك زمانه شرقا وغربا؛ مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد. وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله

(١) إنباء الغمر ١/٤٨٤

(٢) النجوم الزاهرة ١٣/ ٣٢

تعالى، وغزا عدة غزوات، وفتح عدة فتوحات، وملك الحصون المنيعة، والقلاع والمدن من العدو المخذول [الروم البيزنطيين]. على أنه كان منهمكا في اللذات التي تهواها النفوس.. فهو أحق بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدو، حتى قيل عنه إنه كان سياجا للإسلام والمسلمين- عفا الله عنه، وعوض شبابه الجنة- فلقد كان بوجوده غاية التجمل في جنس بنى آدم- رحمه الله تعالى)[1].

وقال ابن العماد الحنبلي الدمشقي -ولد ١٠٣٢هـ وتوفي سنة ١٠٨٩هـ (١٦٢٣م/ ١٦٧٩م)- في حوادث سنة ٧٢٥هـ-: (وفيها أول الملوك العثمانية خلد الله دولتهم، وهو السلطان عثمان بن طغربك بن سليمان شاه بن عثمان.

تولى سنة تسع وتسعين وستمائة، فأقام ستا وعشرين سنة. نقل القطب [المكي الحنفي] أن أصله من التركمان الرحالة النزالة... ونقل صاحب "درر الأثمان في أصل منبع آل عثمان": أن عثمان جدهم الأعلى من عرب الحجاز، وأنه هاجر من الغلاء لبلاد قرمان واتصل بأتباع سلطانها في سنة خمسين وستمائة، وتزوج من قونيا، فولد له سليمان فاشتهر أمره بعد عثمان، ثم تسلطن، وهو الذي فتح بورصة في حدود ثلاثين وسبعمائة، ثم تسلطن بعد سليمان ولده عثمان الأصغر، ويقال هو الذي افتتح بورصا، وأنه أول ملوك بني عثمان، فإنه استقل بالملك. وأما أبواه فكانا تابعين للملوك السلجوقية.

---

(١) النجوم الزاهرة ١٦/ ٢

ونقل بعض المؤرخين أن أصل ملوك بني عثمان من المدينة المنورة، فالله أعلم.

ولما ظهر جنكزخان أخرب بلاد بلخ، فخرج سليمان شاه بخمسين ألف بيت إلى أرض الروم، فغرق في الفرات، فدخل ولده طغربك الروم فأكرمه السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان الروم [في قونيا]، فلما مات طغربك خلف أولادا أمجادا، أشدهم بأسا وأعلاهم همة عثمان، فنشأ مولعا بالقتال والجهاد في الكفار، فلما أعجب السلطان علاء الدين السلجوقي ذلك منه، أرسل إليه الراية... ثم بعد ذلك تمكن من السلطنة، واستقل بالأمر، وافتتح من الكفار عدة قلاع وحصون، رحمه الله تعالى. قاله الشيخ مرعي الحنبلي في "نزهة الناظرين")[١].

وقال ابن العماد أيضا عن ابنه أورخان: (سنة إحدى وستين وسبعمائة: فيها توفي أورخان بن عثمان السلطان العظيم ثاني ملوك بني عثمان.

ولّي سنة ست وعشرين وسبعمائة بعد وفاة والده السلطان عثمان جق أول ملوك بني عثمان، وكانت ولاية أورخان في أيام السلطان حسن صاحب مصر. قال القطيعي: كان أورخان شديدا على الكفار ففاق والده في الجهاد، وفتح البلاد فافتتح قلاعا كثيرة وحصونا منيعة، وفتح برورسة وجعلها مقر سلطنته، ثم ولي بعده ولده مراد)[٢].

وقال أيضا عن ابنه مراد: (ثالث ملوك بني عثمان: ولي السلطنة بعد موت أبيه سنة إحدى وستين وسبعمائة، وكان شديد البطش والفتك في الكفار،

---

(١) شذرات الذهب ٨/ ١٢٢

(٢) شذرات الذهب ٨/ ٣٢٦

وافتتح كثيرا من البلاد منها أدرنة، ولما ضاق الكفار به ذرعا أظهر واحد من ملوكهم الطاعة له، وقدم ليقبل يده فضرب السلطان بخنجر كان بيده، فاستشهد رحمه الله تعالى)[1].

وقال في وفيات سنة ٨٢٥هـ: (وفيها السلطان محمد جلبي بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان: كان شجاعا مقداما مجاهدا، فتح عدة قلاع وبلاد، وبنى المدارس، وعمر العماير، وهو أول من عمل الصرة للحرمين الشريفين من آل عثمان، رحمه الله تعالى)[2].

فتحققت لهم بجهادهم المبارك البشارة النبوية بفتح القسطنطينية على يد سابعهم محمد الفاتح؛ كما في الحديث الصحيح في مسند أحمد وصحيح الحاكم (لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ)، والحديث الصحيح في مسند أحمد وصحيح الحاكم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أنه سُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ، قَالَ: فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: (بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا. يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ).

وقد كان فتحها سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م، وكان محمد الفاتح من أفضل أهل زمانه صلاحا، وجهادا، وعدلا؛ كما أجمع على ذلك المؤرخون المسلمون، فخصّه الله وجيشه بهذا الفضل العظيم، وشهد له رسول الله ﷺ بالعدل والفضل

(١) شذرات الذهب ٨/ ٥٦٧

(٢) "شذرات الذهب" ٩/ ٢٤٥

وزكاه وجيشه وكفى به شرفا وتزكية! فقال عنه: (نعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش)!

وقد اشتهرت البشارات والنبوءات بهذا الفتح العظيم حتى عند أهل الكتاب؛ كما فصّلته في كتابي "فضائل إسطنبول"!

وقد أرسل السلطان محمد الفاتح بالبشارة بفتح القسطنطينية إلى أمير مكة الشريف بركات وفيها (فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرا بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية.. ومهيأة بأمر الله لمقر الخلافة الإسلامية)[1].

وقد فرح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بهذا الفتح، وبتحقق هذه البشارة التي هي من دلائل النبوة ومعجزاتها الخبرية؛ كما جاء في جواب أمير مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح حيث ورد فيها (فاستقبلناها بالتعظيم، وقبلناها بالإجلال والتكريم، وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين، وما هي إلا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها، التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله تعالى بتيسير ذلك الأمر العسير، وتحصيل ذلك المهم الخطير، حمدا يوافي نعمه..)[2].

وفي هذه الرسائل ما يدحض شبه المستشرقين من أن محمد الفاتح لم يكن يولي أهمية للبشارة النبوية وتحققها! كما تدحض شبههم حول عدم اعتراف

---

(١) "منشآت [رسائل] السلاطين" فريدون بك ١/ ٢٣٢

(٢) "منشآت السلاطين" ١/ ٢٣٦

الدولة العثمانية بالخلافة الإسلامية! بينما يبشر الفاتح في رسالته هذه بأن القسطنطينية مهيأة لتكون دارا للخلافة الإسلامية! وهو ما تحقق على يد حفيده سليم الأول حيث انتقلت من القاهرة إلى إسطنبول مدة أربعة قرون!

لقد حقق محمد الفاتح البشارة النبوية وفتح المدينة التي طالما طمح المسلمون لفتحها منذ عهد الصحابة، فقد كانت (هدفا مقدسا لكل من المسيحيين في الغرب، والمسلمين في الشرق، وفكرة السيطرة على المدينة تعني السيطرة على العالم)![1]

هذا الفتح الذي غيّر وما يزال يغيّر وجه التاريخ، ويؤثر في العلاقة بين العالمين الإسلامي والمسيحي، بل العالم كله، حيث عُدّ بداية عصر النهضة، ونهاية العصور الوسطى الأوربية، فهو الفتح الذي (يعتبر نقطة تحول على صعيد التاريخ العالمي كله وليس التركي فقط)[2].

عناية الدولة العثمانية بالعلم والعدل والإصلاح الديني والقانوني:

لم يقتصر دور محمد الفاتح على النصر العسكري الذي غيّر به وجه التاريخ، بل كان دوره في التجديد والإصلاح الديني خاصة والعلمي عامة لا يقل أهمية عن أثره في الإصلاح السياسي، حيث أقام المدارس الشرعية الثمان حول جامعه، وفي كل بلد تحت ولايته، ورتب سنوات الدراسة فيها، وقرر المناهج الدراسية، واستقدم العلماء والفقهاء والمفسرين والمحدثين إلى إسطنبول من كل مكان، حتى غدت أعظم مدن الإسلام أثرا في الإحياء الديني؛ كما قال عنه

(١) كتاب "الفتح" لفريدون إمجن ص ٣٦١
(٢) المصدر السابق ص ٦٥

ابن العماد الحنبلي: (محمد خان سابع ملوك بني عثمان السلطان محمد بن السلطان مراد خان، ولد سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، وولي السلطنة سنة ست وخمسين، وكانت مدة ولايته إحدى وثلاثين سنة.

قال القطب [الحنفي المكي] في "الأعلام"[١]: كان من أعاظم سلاطين بني عثمان، وهو الملك الضليل[٢]، الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهادا، وأقواهم إقداما واجتهادا، وأثبتهم جأشا وفؤادا، وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان، وله مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى..

ففتح إسطنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وصلّى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي أيا صوفيا..

وقد أسس في إسطنبول للعلم أساسا راسخا لا يخشى على شمسه الأفول، وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب، سهلة الدخول، وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، فجزاه الله خيرا عن الطلاب، ومنحه بها أجرا، وأكبر ثواب، فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر

---

(١) الإعلام ص ٢٧٠

(٢) المراد بالملك الضلّيل هنا: كثير المغازي والأسفار والضرب في الأرض، وهو ما اشتهر به محمد الفاتح حتى اتسعت مساحة الدولة العثمانية في حياته بما افتتحه من البلدان والأقاليم ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبله!

إفاقتهم، وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها، إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا، ويتوسلون بها أيضا إلى سعادة العقبى، وأنه- رحمه الله تعالى- استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم، وعطف بإحسانه إليهم، كمولانا علي القوشجي، والفاضل الطوسي، والعالم الكوراني، وغيرهم من علماء الإسلام، وفضلاء الأنام، فصارت إسطنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعلياء، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام، وأهل حرفها أدق الفطناء في الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام، فللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى في أعناق المسلمين، لا سيما العلماء الأكرمين..)[١].

وكان ابنه السلطان بايزيد بن محمد الفاتح كأبيه في العناية بالجهاد في سبيل الله، ونشر العلم وبناء المدارس، كما قال الغزي عنه: (مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة، وجلس على تخت السلطنة بعد وفاة أبيه في ثامن ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة، وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة، فتح الفتوحات، وغزا في سبيل الله الغزوات، وكان محبا للخيرات، مثابرا على البر والصدقات، يميل إلى العلماء والصلحاء، ويعرف حقوق الفضلاء والنبلاء، ودخل الخلوة عند بعض المشايخ، وبنى الجوامع والمدارس والتكايا والزوايا، ورتّب للمفتي الأعظم ومن ببيته من العلماء في زمانه كل عام عشرة آلاف عثماني، ولكل واحد من مدرسي المدرسة العثمانية سبعة آلاف عثماني، ولمدرسي "شرح المفتاح" لكل واحد أربعة آلاف عثماني، ولكل واحد من مدرسي "شرح التجريد"

(١) "شذرات الذهب" ٩/ ٥١٦

ألفي عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الصوفية ومريديهم وأهل الزوايا ما يليق بهم. عين لهؤلاء من الكسوة من الفراء والحوائج على قدر مراتبهم، وصار ذلك قانونا جاريا بعده مستمرا، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين، ويحسن إليهم إحسانا كثيرا)[1].

وكذا كان حفيده السلطان سليم الأول بن بايزيد بن محمد الفاتح الذي قال عنه ابن العماد الحنبلي: (هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية، فرفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره، وتواصوا باتباع السنة المطهرة، وعرفوا للشرع الشريف مقداره، وصاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب واستخلصها من أيدي الجراكسة [المماليك بمصر] بعد ما شتت جمعهم فانفلوا عن مليكهم وجدوا في الهرب)[2].

وتحدث الغزي -المتوفي سنة ١٠٦١هـ- عن حفيده السلطان سليمان القانوني بن سليم الأول، وعما (ما شاع واشتهر من العدل، الذي حصل في دولة السلطان سليمان - رحمه الله تعالى - واشتداد بأسه، في جهاد أهل الكفر والطغيان، بحيث أنه أعدل ملوك بني عثمان، ولذلك طالت مدته واتسع له الزمان)[3].

وقال عنه أيضا: (وكان السلطان سليمان ملكًا مطاعًا مجاهدًا يحب العلم والعلماء، ويقف عند الشرع الشريف، وكان يترجم بالولاية، عمر [جامع]

---

(١) "الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة" ١/ ١٢٣

(٢) "شذرات الذهب" ١٠/ ١٩٨

(٣) "الكواكب السائرة" ٢/ ١٦١

السليمانية بالقسطنطينية، وهي أعظم مساجدها وأنورها، حكى أنه رأى النبيﷺ في بستانه في المنام، فأشار إليه بتعمير مسجد جامع به، وأراه مكانًا فلما استيقظ من منامه اقتطع جانبًا من سراياه منه البستان المذكور، وعمره مسجدًا عظيمًا شيد بناءه، ووسع فضاءه قيل ووضع محرابه في الموضع الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في منامه، وعمر إلى جانبها المدارس العظيمة أعظمها دار الحديث السليمانية، وكان مصرف ذلك من غنائم رودس، وأمر بتعمير التكية السليمانية بدمشق، وعمر إليها مسجدًا جامعًا ومدرسة عظيمة شرطها للمفتي بدمشق، وله المدارس العظيمة بمكة المشرفة وغيرها)[1].

وقال عنه أيضا المؤرخ عصام الدين طاشكبري -المتوفى سنة ٩٦٨ هـ- (وكان رَحمَه الله ملكا ممدوحا ومحمودا مقداما مظفرا مسعودا.. محبا للعلم مُعظما لأهله غاية الإعظام، ومهتما في إجراء الشرع بين المسلمين بمزيد الاهتمام، وقد تيسّر له من الخيرات العظام والمبرات الجسام ما لو تفرد بإحداها ملك من الملوك لكفته يوم مفتخره، منها:

١- الجامع الذي بناه بقسطنطينية وهو الذي لم ترَ مثله عين الزمان، ولم يبن مثله إلى هذا الآن.

٢- وبنى بجواره عدّة مدارس يدرس بها أنواع العلوم، وأرباب الحجا والفهوم، مما يبتهج به أولو النهى والبرهان، من علوم الأديان والأبدان، وبنى بها عمارة ملئت بنفائس القرى، للواردين من الأمصار والقرى، سوى ما يصرف لستمائة نفس من طلبة العلم الشريف، وسائر المحاويج من القوي والضعيف.

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٠

٣- وبنى بها أيضا مارستانا لمداواة المرضى، وتربية المجانين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين.

٤- ومنها الجسر العظيم الذي بناه على مرحلة من قسطنطينية وذلك إحدى غرائب الدنيا في الطول والعرض وقوة البناء.

٥- ومنها النهر العظيم أتى به إلى قسطنطينية وقسم على محلاتها أقساما تنيف على مائة واستخدم فيه خلقا عظيما وبذل مالا جسيما وبنى له في طريقه أبنية عجيبة وطاقات غريبة) ثم ذكر ما وصفه به المفتي أبو السُّعُود حيث وصفه بقوله: (السلطان الأسعد الأعظم، والخاقان الأمجد الأفخم، مالك الإمامة العظمى، والسلطان الباهر، وارث الخلافة الكبرى، كابرًا عن كابر، مسخر الأقاليم بحرا وبرا، معمر الممالك إحسانا وبرا، فاتح بلاد المشارق والمغارب، بنصر الله العزيز وجنده الغالب، السلطان ابن السلطان: سليمان بن سليم خان..

وكان رحمه الله ذا حظّ من المعارف والنوادر، وله معرفة تامّة بالتواريخ من الأوائل والأواخر، وكان ينظم الشّعر بالتركي الفارسي)[١].

وقال الإمام السخاوي الشافعي -المتوفي سنة ٩٠٢ هـ في آخر الفترة العباسية المملوكية بمصر- عن دولة بني عثمان وعن أمرائها قبل دخول سليم الأول مصر، وعن السلطان بايزيد بن مراد بن أرخان بن عثمان: (واشتهر بالجهاد في الكفار حتى بعد صيته، وكاتبه الظاهر برقوق وهاداه، وكان يقول لا أخاف من اللنك [تيمور] فكل أحد يساعدني عليه، إنما أخاف من ابن عثمان، وكان ملكا

(١) "الشقائق النعمانية" ١/ ٣٧٥

عادلا عاقلا، شفوقا على الرعية، كثير الغزو، واتسعت مملكته، وأمن الناس في بلاده، وخفف عنهم المكس، بل يقال أنه أبطله إلى أن كان كسره على يد تيمرلنك وأسره، وأخذ بورصا وبعض بلاد الروم وخربها، واستمر في الأسر حتى مات في ذي القعدة سنة خمس [٨٠٥هـ] عن نحو خمسين سنة، كان تسع سنين منها في المملكة، واضطربت بموته مملكة الروم، حتى قام بالأمر ابنه محمد كرشجي، ثم مات فاستقر بعده حفيده مراد باك، ثم بعد موته وقع الخلف بين أولاده، وكلهم من خيار ملوك الدنيا، ومن محاسن الزمان، وسياج للإسلام قديما وحديثا) وقال السخاوي أيضا عن جدهم أردن علي بن عثمان: (وهو قائم بنشر العدل في رعيته، وبتقريب العلماء والصلحاء، إلى أن مات وخلفه ابنه أرخان سالكا طريقته، ثم ابنه مراد، وكان شجاعا مقداما طوالا أسمر اللون أقنى الأنف، ولم يقتصر على ما بيديه بل ركب البحر ولم يركبه أحد من آبائه، وفتح أراضي قسطنطينية شيئا بعد شيء، وأخذ في إظهار العدل، وجعل سائر الأمور معذوقة بقضاة الشرع)[1].

اعتراف العثمانيين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية:

وقد كان العثمانيون يدينون بالطاعة للخلافة العباسية في القاهرة، قبل أن تؤول إليهم، وكانوا يخاطبونهم بها؛ كما قال المقريزي في حوادث سنة ٨٥٥هـ: (وفي شوال أوله الخميس في يوم السبت ثالثه وصلت إلى القاهرة تقدمة [هدية] محمد بك بن مراد بك ابن عثمان على يدي قاصده [رسوله] وأخبر

(١) "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" ١١/ ١٤٨

القاصد أن والده [مراد] نزل لولده هذا [محمد الفاتح] عن مملكته، وأقامه مقام نفسه، وأرسل يعلم السلطان [جقمق] بذلك وان يكون الولد تحت نظر السلطان)[١].

وقال المقريزي أيضا عن سنة ٨٥٦ هـ في بيان حال الخلافة العباسية في الفترة المملوكية في القاهرة وأحوال بلدانها التي تعترف لها بالتبعية: (سنة ست وخمسين وثماني مائة: استهلت والخليفة [بمصر] القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة [العباسي] والسلطان الظاهر جقمق، وباقي أرباب الدولة من القضاة والنواب وأرباب الوظائف على حالهم كما تقدم ما خلا نائب صفد فإنه بيغوت المؤيدي وليها بعد موت يشبك الحمزاوي، وما خلا ملك الروم مرادبك ابن عثمان، فإنه توفي وولي بعده ولده محمد [الفاتح])[٢].

وقد أرسل محمد الفاتح ببشارة فتح القسطنطينية إلى الخليفة العباسي والسلطان الأشرف بالقاهرة.

قال ابن تغري بردي المصري في تاريخه: (ثم في يوم السبت ثالث عشرين شوال ورد إلى الديار المصرية قاصد خوندكار محمد بك ابن مرادبك بن عثمان، متملك بلاد الروم، لتهنئة السلطان [الأشرف إينال] بالملك، وأيضا يخبره بما منّ الله عليه من فتح مدينة إسطنبول، وقد أخذها عنوة بعد قتال عظيم في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة، بعد ما أقاموا على حصارها من يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأول من هذه

(١) حوادث الدهور ١/ ١٢٣

(٢) حوادث الدهور ٢/ ٣٥٦

السنة -أعني سنة سبع وخمسين المذكورة- إلى أن أخذها في التاريخ المقدم ذكره قلت: ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم.

وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان وهما من أهل قسطنطينية، وهى الكنيسة العظمى بإسطنبول، فسرّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما، ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران المذكوران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس عشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن، وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل، وقد استوعبنا طلوع القاصد المذكور في غير هذا المحل من مصنفاتنا بأطول من هذا)[١].

وقد جاء في رسالته مخاطبا سلطان مصر الأشرف إينال بعد توليه السلطنة: (ضاعف الله جل جلاله ملكه وسلطانه، وأفاض على العالمين بره وإحسانه، ولا برح في دولة لا تهدم دارها، ونعمة لا تنفصم آثارها، وسعادة لا تصفر أوراقها، وسيادة لا تتغير آفاقها، وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة... ونقول لمَّا تتابعت عندنا الأخبار التي تشتمل على صعود شمس السلطنة، على أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه، وبارك فيه وأبقاه، ببركة نبيه المُجتبى، ورسوله المُصطفى، عليه وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها: ملئنا بهجة وسرورا، وغبطة وحبورا..)[٢].

---

(١) "النجوم الزاهرة" ١٦/ ٧٠

(٢)"منشآت السلاطين" ١ / ٢٢٩

كما أرسل رسالة أخرى إلى أمير مكة الشريف بركات الحسني يبشره بالفتح، وفيها بعد التبجيل والثناء (وبعد فقد أرسلنا هذا الكتاب مُبشرًا بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفُتوح التي لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بقُسطنطينيَّة، المُلاصقة بمرج البحرين، وفي مُقابلتها مدينةٌ أُخرى موسومة بغلطة، وفي جانبها الشرقي بلدةٌ أُخرى معلمة بأسكدار، أمَّا الأولى: فكأنَّها ثُعبانٌ له سبع رؤوس من قللها المُشتهرة وتلك القلل سبع رواسي شامخاتٌ حصينةٌ رفيعةٌ مهيأةٌ بأمر الله جل جلاله لمقر الخلافة الإسلاميَّة ومرزوقة لنا بتقدير الحكم السُبحانيَّة ولا شك أنها سُلطان البلاد والأخريان من جنبيها يمينًا وشمالًا كخادمين في طرفيّ السُلطان فلمَّا توجهنا وعزمنا عليها هجم علينا الكُفَّار المملوءة فيها خارجًا وداخلًا وحاربوا معنا فقامت المُحاربة بيننا وبينهم قريب شهرين بعد إبائهم عن إعطاء الجزية الشرعيَّة ثم عجزوا عن القتال وهربوا من الجدال فازدحم أهلُ الإسلام وجاهد كلٌّ من المُجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جمٌّ كثيرٌ من الكماه الموحدين فوق منافذ جدرانها المُندرسة من المنجنيق والعرادة فدخلوا في نفس هذه البلدة المُتبركة المنوَّرة بقدوم المُوحدين بالتكبير والتهليل يوم الثُلاثاء والعشرين من شهر جمادى الأولى فقُطع في مبدأ الأوَّل رأس هذه الملاعين، أعني التكفور اللعين [التكفور: حاكم القسطنطينية] أو لحق بجهنَّم مع سائر المقتولين من المُشركين، فخربوا دورهم وكسروا صُلبانهم وأغاروا على خزانهم وأموالهم وأسروا ذراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسيَّة مساجد الأُمَّة المُحمديَّة

وجمع الملة الأحمديَّة وطهَّر تلك المواقع عن الأرجاس الرهبانيَّة والأنجاس النُصرانيَّة ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾...)[1].

وقد تحقق ما توقعه هذا السلطان المبارك محمد الفاتح حين قال في رسالته هذه بأن الله هيأ القسطنطينية لتكون دارا للخلافة، فقد آلت بعده وفي عهد حفيده السلطان سليم الأول دار للخلافة الإسلامية ولمدة أربعة قرون!

أوّل من ألف في فضائل آل عثمان:

وقد كان أول من صنف في تاريخ بني عثمان وخلافتهم وذكر فضائلهم على الإطلاق هو إمام الحنابلة في عصره بلا منازع، ومحيي طريقتهم السلفية الأثرية، العلامة المحقق مرعي الكرمي المقدسي ثم المصري في كتابه "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" وقد ذكر في مقدمته أنه (الفاتح لهذا الباب، والرافع لهذا النقاب)[2] وأنه لم يُسبق إلى التأليف في تاريخهم!

وقد ولد الإمام مرعي الكرمي في بواكير عصر الخلافة العثمانية وعاش في أوج قوتها، حيث ولد في حدود سنة ٩٥٠هـ وتوفي سنة ١٠٣٣هـ، قال عنه المحبي: (مرعى بن يوسف الكرمي نسبة لطوركرم قرية بقرب نابلس، ثم المقدسي، أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر، كان إماما محدثا فقيها ذا اطلاع واسع على نقول الفقه ودقائق الحديث ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة.. فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس والتحقيق والتصنيف، فسارت بتآليفه الركبان، ومع كثرة أضداده وأعدائه ما أمكن أن يطعن فيها أحد ولا أن ينظر بعين الإزراء إليها فمنها كتاب

---

(١) "منشآت السلاطين" ١ / ٢٣٢

(٢) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ٦١

"غاية المنتهى في الفقه". وهو متن جمع من المسائل أقصاها وأدناها مشى فيه مشى المجتهدين في التصحيح والاختيار والترجيح، وله كتاب "دليل الطالب في الفقه".. و"الكواكب الدرّية في مناقب ابن تيمية"، و"الأدلة الوفية بتصويب قول الفقهاء والصوفية"، و"سلوك الطريقة في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة".. و"نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين"، و"قلائد العقيان في فضائل سلاطين آل عثمان"..)[١].

وقال عنه المؤرخ الغزي: (شيخ مشايخ الإسلام، أوحد العلماء المحققين الأعلام، واحد عصره وأوانه، ووحيد دهره وزمانه، صاحب التآليف العديدة، والفوائد الفريدة، والتحريرات المفيدة، خاتمة أعيان العلماء المتأخرين)[٢].

وقد أصبح كتاب الشيخ مرعي وهو متن (دليل الطالب) أشهر متون المذهب الحنبلي لدى المتأخرين منهم خاصة في مصر والشام ونجد، وكذا كتابه الآخر متن (غاية المنتهى).

وقد ذكر مرعي في مقدمة كتابه هذا أكثر من عشرين فضيلة اختصّ بها بنو عثمان؛ فقال: (اعلم أيدك الله تعالى إن سلاطين بني عثمان، وفخر ملوك الزمان، لهم فضائل عديدة، وخصائل حميدة، وقوانين عجيبة، وسياسات غريبة، في غاية النظام، ونهاية المرام، وفضائلهم أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، وهم أجلّ ملوك الدنيا على الإطلاق وأكبر، وأفضلهم في سبيل

(١) "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ٤/ ٣٥٨

(٢) "النعت الأكمل" ص ١٩٠

الخيرات وأكثر، وخصائلهم لا تنكر، وفضائلهم لا تستنكر، ومفاخرهم أسنى من الشمس وأشهر)[1]!

نسبة آل عثمان إلى صميم قبائل الحجاز:

وقال الشيخ مرعي بعد أن ذكر الخلاف في نسبهم ونسبتهم إلى صميم قبائل العرب وقصة رحلتهم من الحجاز إلى أرض الترك ثم الروم بعد غزو التتار للمشرق الإسلامي: (فتلخص من مجموع ما تقدم أن لهم عراقة في السلطنة والملك من قبل دخولهم إلى بلاد الروم، وأن لهم عراقة في الحسب والنسب؛ إذ هم من العرب... وقد تقدم من كلام صاحب "درر الأثمان"، أن سلاطين بني عثمان من صميم عرب الحجاز؛ فهؤلاء القوم قد جمعوا أعزة العرب إلى عزة العجم، وضموا تهليل السيف إلى صرير القلم)[2].

ويُفهم من كلام الشيخ مرعي بأن مراد من نسبهم إلى صميم عرب الحجاز أنهم من قريش وآل البيت، حيث يقول: (وها أنا أذكر سلسلة نسبهم الطاهر، وحسبهم الفاخر: فهذا السلطان عثمان سلطان عصرنا - أصلح الله حاله - هو السلطان عثمان [الثاني ت ١٠٣١] بن السلطان أحمد [الأول ت ١٠٢٦] بن السلطان محمد [الثالث ت ١٠١١] بن السلطان مراد [الثالث ت١٠٠٣] بن السلطان سليم [الثاني ت ٩٨٢] بن السلطان سليمان [القانوني ت ٩٧٤] بن السلطان سليم [الأول ت ٩٢٦] فاتح مصر، بن السلطان بايزيد [ت ٩١٨] بن السلطان محمد الثاني أبو الفتوحات فاتح القسطنطينية [ت ٨٨٦] بن

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ٦٣

(٢) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ٦٨

السلطان مراد [الثاني ت ٨٥٥] بن السلطان محمد [الأول ت٨٢٤] بن السلطان يلدريم بايزيد [الأول ت ٨٠٥] بن السلطان مراد الشهيد [الأول ت ٧٩١]، بن السلطان أورخان [الأول ت ٧٦١] بن السلطان عثمان).

وهذا اللفظ (نسبهم الطاهر) يطلق في الاصطلاح العرفي على آل بيت النبوة، وكذا قال عنهم كما سيأتي: (وإنما قصدي بذلك نفس بيت أهل السلطنة المعظمة وسلالتهم المكرمة، فإنهم في حد ذاتهم بيت طاهر مقدس، ونسب فاخر أقدس)[1]!

وقد كان المؤرخ المقريزي المصري معاصرا لهم منذ ظهور دولتهم إلى عصر مراد بن محمد، وكانت نسبتهم إلى العرب قديمة منذ بداية أمرهم قبل أن يستفحل، ومما يرجح ذلك أسماؤهم وسيماهم، فقد وصف المقريزي مراد بن أورخان بأنه (أسمر اللون طوالا أقنى الأنف أحنى)[2] وهي كلها صفات عربية لا أعجمية!

وكأنه لهذا السبب تنازل الخليفة العباسي المتوكل في إسطنبول للسلطان سليم الأول عن الخلافة لمعرفته بثبوت نسبه القرشي لديهم، وإن صاروا تركا لسانا وولاء كما هو شأن آل البيت النبوي وقريش وغيرهم من قبائل العرب الذين رحلوا إلى كل أرض الإسلام واختلطوا بأقوامها من الفرس والترك والهند!

ولا يعرف عن أحد من علماء ذلك العصر قاطبة أنه اعترض على توليهم الخلافة لفقدهم شرط القرشية، مع كثرة العلماء آنذاك وتوافرهم في كل دار

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ٧٠

(٢) "درر العقود" ١/ ٣٤٤

الإسلام، فكان إجماعا إما على تحقق شرط النسب فيهم، أو على عدم اشتراطه لفقد القرشي القادر على النهوض بأعبائها!

لقد كان بإمكان السلطان سليم الأول الاكتفاء بما اكتفى به المماليك بمصر من السلطنة مع المحافظة على الخلافة العباسية القرشية، وكما فعلت السلطنة السلجوقية التركية التي حافظت على شرعيتها السياسية بحماية الخلافة العباسية، خاصة والدولة العثمانية أكثر التزاما بالدين وأحكامه وبالمذهب الحنفي الذي يشترط القرشية كباقي المذاهب السنية، إلا أنه لم يفعل، وتنازل له الخليفة العباسي عنها بإسطنبول وسلمه البردة النبوية والسيف والراية، وكذا فعل شريف مكة معه، وليس لهذا معنى معقول إلا ادّعاء تحقق شرط القرشية في العثمانية! وهو ما يفهم من كلام الشيخ مرعي الحنبلي وغيره من المؤرخين العرب المعاصرين لتلك الفترة، واشتهار نسبتهم آنذاك إلى صميم عرب الحجاز.

كما لم يحاول أحد من فقهاء الدولة العثمانية -من فقهاء الحنفية مع كثرتهم وشدة التزامهم بالمذهب- إصدار فتوى أو كتابة رسالة بإثبات صحة خلافة غير القرشي عند فقده؛ لمعالجة شرعية الخلافة العثمانية -كما فعل الجويني في كتابه "غياث الأمم" في تعزيز شرعية السلطان السلجوقي آنذاك لقيامه بمهامه في حفظ الدولة الإسلامية- مما يرشح فرضية تحقق هذا الشرط فيهم!

وقد أطلق هذا الوصف الشرعي شمس الدين أحمد ابن كمال -إمام الحنفية في عصره ومفتي السلطنة في عهد السلطان سليم وابنه سليمان- في مقدمة كتابه الفقهي "الإيضاح والإصلاح" الذي صنفه سنة ٩٢٨هـ بعد وفاة السلطان سليم الأول بسنتين، فقال عنه وعن ابنه السلطان سليمان القانوني: (خليفة الله في العالم، ابن السلطان السعيد الشهيد صاحب الآيات الباهرة، فاتح الشامات

والقاهرة، سلطان العرب والعجم والروم سليم خان... بسط الله بساط خلافته مدى الأيام...)[1].

وقد كان يخطب للسلطان سليم الأول ومن بعده باسم الخلافة والسلطنة معا على منابر الحرمين والشام ومصر والمغرب وأرض الروم والعجم، فلم ينازعهم في الخلافة أحد أصلا، وتحققت لهم الرئاسة والإمامة العامة على الأمة فعلا، قال العصامي المكي: (لما استقر مولانا السلطان سليم وتوطد ملكه لمصر وأعمالها، وانتظم له الملك من دار الخلافة الإسلامية قسطنطينية إلى غاية المملكة المصرية، أنهى إليه بعض الحساد أن جميع الملك والسلطان طرازه الأعظم ملك الحرمين الشريفين وأعمالهما، والدعاء لمولانا على منابرهما فشرع في تجهيز جيش كثيف للحرمين الشريفين، وكان بمصر القاضي صلاح الدين بن ظهيرة.. وبلغ القاضي ما عزم عليه مولانا السلطان سليم، فاجتمع بمولانا بيري باشا الوزير الأعظم وعرفه عظمة مولانا الشريف -بركات أمير مكة- ومراعاته للسلطنة الشريفة وحسن سياسته وتدبيره، وأن يرسل إليه مكتوب سلطاني بما يقتضيه الرأي السلطاني، فاستقر الحال على كتابة توقيع سلطاني، وكتابة مراسلات من مولانا الوزير المذكور ومن مولانا القاضي صلاح الدين إلى مولانا الشريف بركات، بأن يقابل التوقيع السلطاني بالقبول ويرسل ولده إلى الحضرة السلطانية السليمية بتهنئتها، وتعريفها بكمال الطاعة والانقياد، ونهاية الامتثال والمحبة والاتحاد، فوافق الشريف بركات على جميع ما ذكر وأرسل ولده الشريف أبا نمي أحمد نائبا إلى مصر المحمية، فقابل مولانا

---

(١) "الإيضاح والإصلاح" ١/ ٥

السلطان سليم خان طاب ثراهما، وعظمه تعظيما مضاعفا، وخوله وحباه، وعاد سالما غانما في ظل والده حاميا حاكما ودام عزهما إلى أن توفي والده مولانا الشريف بركات عام إحدى وثلاثين وتسعمائة... ثم إن مولانا الشريف أبا نمي رحمه الله تعالى التمس من مولانا السلطان سليمان خان تفويض الأمر إلى ولده الثاني صاحب المقام السامي مولانا الشريف حسن، فتقلد بعد أن أجيب إلى مراده حماية الحرمين الشريفين، وجدة المعمورة، وينبع، وخيبر، وحلي، وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية، وذلك من خيبر إلى أطراف حلي، وأعمال جازان طولا، ومن أعمال الينبع المبارك إلى حجاز ثقيف وما اتصل به من أرض نجد عرضا، وكان ذلك سنة إحدى وستين وتسعمائة [٩٦١هـ] فتفرد بذلك بإشارة والده الشريف أبي نمي لما علم من كفايته وكماله، وخاطبته السلطنة الشريفة بالألقاب الهاشمية الملوكية وشاع وذاع ما في محل ولايته من العدل والإنصاف والأمن والطمأنينة في حاضرتها وباديتها، وما إليها ينسب ويضاف، وقطع قاطع الطريق، وأخذ حق المظلوم من الظالم، وإن كان أقرب حميم وأصدق صديق، فلما وصل خبر ذلك إلى الأبواب العالية فوضت إليه كل واصل إلى الأقطار الحجازية من أعيان دولتهم وكبرائهم وأركان سلطنتهم وأمرائهم حسبما يسطر ذلك في المرسوم السلطاني الواصل باسم مولانا المومأ إليه في كل عام، وكلما طلب من جانب السلطنة العليا مطلوبا من معالي الأمور أو إحسانا لمن يلوذ بمقامه المبرور أجيب بحصول المراد خصوصا في سلطنة مولانا السلطان مراد)[1].

---

(١) "سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي" ٤/ ٣٢٩

وكذا جاء في رسالة سليمان القانوني إلى أمير مكة بعد وفاة والده سليم الأول، وتوليه السلطنة والخلافة، وفيها (فجُعلنا على سرير السلطنة، ومستقر الخلافة، يوم الأحد السابع عشر من شهر شوال المكرم، المنخرط في سلك شهور سنة ست وعشرين وتسعمائة، ونشرنا ميامين معدلتنا الشريفة بين الأنام، ومحاسن مكرمتنا العلية على الخواص والعوام، وجددنا مراسم إحياء الدين، وأبطلنا قواعد الظلم والظلمة أجمعين، فكانت الرعية على ما كانوا في بساط الرعاية، وسائر الناس بحسب مقاديرها تحت كنف الحماية والعناية...)، وفيها يأمره بكمال الطاعة له والخطبة باسمه، (واهتمامه التام في تنفيذ الأوامر العلية بين الأنام). وقد أجابه الشريف بالسمع والطاعة ولزوم الجماعة، وجاء في جوابه: (ورد مرسومه السامي المنيف... مخبرا عن الفرح الجديد، والعهد السعيد، وهو جلوس ذاتكم على سرير السلطنة العظمى، ومسند الخلافة الكبرى)[1].

وفي هذا أوضح دليل على ثبوت الجمع -في الدولة العثمانية- بين السلطنة السياسية، والخلافة الشرعية، منذ فتح سليم الأول للشام ومصر، وثبتت لهم باجتماع الأمة عليهم الإمامة العامة والرئاسة التامة، بلا نزاع، حتى آخر خليفة عثماني!

وقال العصامي عن خطبة الحرم المكي باتفاق العلماء والأشراف بمكة بتهنئة السلطان سليم بن سليمان القانوني على تولي الخلافة: (واتفقت الآراء أن يخطب الخطيب باسم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان خان، وكانت نوبة السيد أبي حامد النجاري فأمروه أن يذكر في الخطبة هذه الألقاب:

(١) "منشآت السلاطين" ١/ ٤٤٨

اللهم وجدد نصرة الإسلام والمسلمين، وشيد قوائم أركان الدين المتين، ببقاء من جددت به أمر الخلافة العظمى، وشرفت بمقدمه تخت السلطنة والملك الأسمى، واخترته خير خلف عن خير سلف، وعوضت به خير عوض عمن درج إلى رحمة الله تعالى وسلف، وآتيته ما لم تؤت كثيرا من العالمين، ومكنته من سرير السلطنة والخلافة أعظم تمكين، وأورثته الخلافة الكبرى، كابرا عن كابر، وملكته الإمامة العظمى والسلطان الباهر)[1].

وليست الخلافة في حقيقتها الشرعية الفقهية والعرفية التاريخية إلا هذه الإمامة والرئاسة العامة على الأمة كلها أو أكثرها؛ كما قال الوزير الفقيه أحمد لطفي في "خلاص الأمة": (وقال شارح مشارق الأنوار: الإمام من ينوب مقام النبي عليه الصلاة والسلام في إقامة الدين، وتدبير مملكة الإسلام بالأمر والنهي، وتنفيذ الأحكام والحدود والقصاص.

وأما الإمام الأعظم وهو السلطان الفايق، الذي تحت ولايته أكثر بلاد المسلمين المعتد بها كبلاد الروم، والعرب، والحجاز، واليمن، إلى نهايات عمان وعراق العرب، وبغداد، وديار بكر، والمغرب، وبلاد الانكروس، إلى أقصى الألمان، ويرجع إلى ظله أحوال الزمان، في وقت الاختلافات الواقعة، كالسلطان سليمان، بن سليم خان، بن بايزيد خان، فهو إمام الزمان مع الشرائط المعتبرة في إقامة الدين وحراسة دار الإسلام)[2].

ولعله لم يتطرق أحد لبيان صحة خلافة العثمانيين من فقهاء عصورهم مع امتدادها أربعة قرون، إلا الصدر الأعظم والفقيه الوزير أحمد لطفي باشا المتوفي

(١) "سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي" ٤/ ٣٦١

(٢) "خلاص الأمة في معرفة الأئمة" ص ٦٦

سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٣م، في رسالته "خلاص الأمة في معرفة الأئمة"، والتي أورد فيها النصوص، وحشد أقوال فقهاء الحنفية قاطبة على صحة خلافتهم بالاتفاق؛ لتوفر الشروط فيهم، وأن اشتراط القرشية عندهم هو في حال الاختيار ووجود العصبية والقوة كما كان عليه العرب المسلمون في القرون الاولى، لا بعد تولي غير القرشي لها في الواقع بالقوة -لعجز غيره عن القيام بها- واجتماع الأمة أو **أكثرها عليه**، حيث قال في سبب تأليف هذه الرسالة: (هذه رسالة مرتبة في بيان كيف يكون حال الأمة، من بعد الخلفاء العباسية إلى الآن ومن بعد، وهل يجوز إطلاق اسم الإمام والخليفة للسلاطين إذا كانوا من غير قريش؟

وسبب جمع هذه الأمور الدينية اللازمة السمع، أنه قد سألوني يوما من الأيام بعض أشرف الأشراف، لدفع الشبهة، وإزالة الشك، وتحصيل اليقين، ومنهم بعض الفضلاء لأجل الإلزام، احتجاجا بقول عمر النسفي وسعد الدين التفتازاني. وقالوا: كيف يكون حال الأمة بعد الخلفاء العباسية؟ والمرء إذا صار بالاتفاق والغلبة سلطانا من غير قريش، يكون سلطانا بلا خلاف، لكن هل يجوز إطلاق اسم الإمام والخليفة له أم لا؟ لأن عمر النسفي قال في "عقيدته": "الإمام من قريش ولا يجوز من غيرهم". وكيف يكون هذا القول موافقا لحال الأمة والسلاطين؟).

وكل ذلك يؤكد سقوط دعوى توماس أرنولد في كتابه "الخلافة تاريخ الحضارة الإسلامية"[١] بأنه لم يكن أحد من الخلفاء العثمانيين قديما يخاطب بهذه الألقاب؟

(١) "الخلافة تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني" ص ٩٣

وهي الشبهة التي أثارها بعد المستشرقين المستغربون العرب كما زعم سلامة موسى في كتابه "حرية الفكر"[1] حيث نفى أن تكون الخلافة من دين الإسلام وأنه لا يوجد نص في القرآن عليها!

وهي المعركة الفكرية والثقافية التي خاضتها الحملة الصليبية ضد الخلافة العثمانية قبل هزيمتها عسكريا وإسقاطها بأكثر من قرن، منذ طلائع البعثات المصرية إلى فرنسا بعد حملة نابليون عليها، هذه المعركة التي توجت فكريا بظهور كتاب علي عبدالرزاق "الإسلام وأصول الحكم" الذي نفى فيه وجود نظام للحكم في الإسلام أصلا!

الاستقرار وتحقق الأمن وانطفاء الفتن في ظل الدولة العثمانية:

ثم ذكر الشيخ مرعي ما تميز به عصرهم من انطفاء الفتن، وتحقق الأمن، فقال: (ومن فضائل آل عثمان تسكين الفتن، وأمن السبيل في أيامهم وقطع دابر المفسدين، وقمع الخوارج المتمردين، وقهر المتغلبين المارقين بخلاف أيام غيرهم، فكم كان فيها من فتن وهموم ومحن)[2].

ثم بعد أن سرد الفتن في تاريخ الإسلام إلى ظهور بني عثمان؛ قال: (والفتن الواقعة في الأزمنة السالفة أكثر من أن تحصر، وإنما أشرنا إلى بعض منها للمعتبرين، ومن طالع تواريخ السالفين، علم ذلك علم اليقين. إذا علمت ذلك

(١) "حرية الفكر" ص ٤٤

(٢) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٠١

ووقفت على ما هنالك، علمت أن أيام دولة بني عثمان روح وريحان بالنسبة لما مضى، في سالف الزمان)[1].

مواجهة الدولة العثمانية للحملات الصليبية:

وكذلك ذكر الشيخ مرعي أشهر فضائلهم على الإطلاق وهي مواجهة الحملات الصليبية، وحماية الأمة الإسلامية حيث يشهد لهم هذا الإمام الحنبلي والقدوة السلفي وهو شاهد عيان ومؤرخ ثقة؛ قال: (ومن فضائل آل عثمان قمع النصارى الحربيين، وطرد الفرنج المخذولين، إلى أقصى بلاد المسلمين، وهم في غاية الذل والهوان والطرد والخذلان.

هذا وقد كانوا في زمن دولة الفواطم خلفاء مصر، قد قويت شوكتهم، وارتفعت كلمتهم، وقويت صولتهم، واستولوا على البلاد، وقهروا وأبادوا العباد، فأخذوا جزيرة قبرس من أيدي المسلمين، وأخذوا جميع ساحل بحر الشام غزة، ويافه، وعسقلان...

ومازالت شوكة الفرنج قائمة، وسلاطين مصر تجاهد فيهم بساحل بحر الشام من حدود ثمانين وأربعمائة إلى قرب أوائل القرن الثامن، حتى غزاهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وقطع دابرهم من أرض الشام، واستمرت جزيرة قبرس بأيديهم حتى فتحها الملك الأشرف برسباي سنة تسع وعشرين وثمانمائة. وبالجملة فالعاقل المنصف إذا تدبر حال الفرنج والنصارى من ذلك الزمان

(١) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ص ١١٦

وحالهم الآن مع سلاطين بني عثمان، وجدهم في غاية الذل، والهوان، والقهر والخذلان.

ومن فضائل آل عثمان الفتوحات العظيمة ببلاد الروم وغيرها، منها فتح مدينة برسا (بورصه)، فتحها السلطان أورخان في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة، وجعلها مقر سلطنته، وافتتح قلاع كثيرة وحصون منيعة. وكان والده السلطان عثمان قد افتتح من الكفار عدة قلاع وحصون؛ ومنها فتح مدينة أدرنة افتتحها السلطان مراد بن أورخان سنة إحدى وستين وسبعمائة، ومنها فتح القسطنطينية العظمى، مع عجز الخلفاء الأمويين عن فتحها، مع أنهم ملكوا الدنيا من أقصى الهند والصين إلى أقصى المغرب، وفتحوا جزيرة الأندلس، ومع ذلك فقد عجزوا عن فتحها لعظمها وشدة بأس أهلها وتحصين أسوارها وحصونها. وكان أول من غزاها يزيد بن معاوية في خلافة أبيه... وغزاها أيضا مسلمة بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان، أقام محاصرة لها نحو سنة حتى أكل عسكره الميتة من شدة الجوع، وحصل لهم غاية الجهد والمشقة.

فلما مات سليمان، وتولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز، أرسل يأمر مسلمة بالرجوع عن القسطنطينية؛ لشدة ما حصل للمسلمين من المشقة، ووبخ مسلمة على ذلك.

وعجز عن فتحها أيضا الخلفاء العباسيون، مع ما كان لهم من الصولة الباهرة والقوة القاهرة، لا سيما أبو جعفر المنصور، والرشيد هارون، والمأمون، والمعتصم، ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين. وقد فتحها أبو الفتوحات السلطان محمد والهمام الأمجد، وهو بذلك أجدر وأحرى، وساق إليها العساكر

برا وبحرا، وأقام في حصارها خمسين يوما، ثم افتتحها نهار الأربعاء في جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وصلى الجمعة في آياصوفيا...).[1]

تحرير السلطان سليم الأول شمال أفريقيا:

ثم استطرد في ذكر فتوحاتهم التي لم يُسبقوا إلى مثلها حتى ذكر تحريرهم تونس بعد أن احتلها الفرنج بخيانة ملوكها العرب بعضهم بعضا وتحالفهم مع الفرنجة فقال: (منها فتح حلق الوادي، وبلاد تونس الغرب من بعد استيلاء النصارى عليها؛ بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين الغرب من آل حفص؛ فصار بعضهم يتقوى على بعض بالفرنج، وأطمعوهم في بلاد المسلمين؛ فاستولوا عليها، وتمكنوا منها، وحصنوا الحصون، وأحكموا القلاع، بحيث أيس المسلمون من فتحها وانتزاعها منهم إلى آخر الدهر، وصار المسلمون تحت حكم الفرنج، وأخذوا مملكة تونس، ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد. فلما بلغ السلطان سليم بن السلطان سليمان ذلك، أرسل مئتي غراب مشحونة بالأبطال، والمدافع، وآلة الحرب، وكانت غزوة مشهودة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان، يحتاج تفصيلها لمؤلف كامل؛ فنصر الله المسلمين بعد أن قتل منهم عشرة آلاف، وأخربوا القلاع والحصون، و ذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

ومنها فتح جزيرة قبرس. وكان أول من فتحها أمير المؤمنين معاوية في خلافته، ثم فتحها الملك الأشرف برسباي سلطان مصر، ومازالوا يؤدون الجزية من حينئذ إلى أن اخذوا في المكر والخداع، وصاروا يقطعون الطريق في البحر على

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١١٦.

المسلمين؛ فأرسل السلطان سليم العساكر إليها فقتلوا ملكها، واستولى المسلمون على الجزيرة بأسرها إلى يومنا هذا...

ومنها فتح المدن الكبيرة، بعد إرسال العساكر الكثيرة إلى بلاد المجر في أيام السلطان مراد، ومنها فتح مدينة أكرى بعد أن توجه إليها السلطان محمد بن مراد بنفسه، وانهزمت فيها عساكر المسلمين، ثم تدارك الله تعالى بلطفه وفتحها، وكانت غزوة عظيمة...

ومنها ما فتحه سلطان عصرنا السلطان عثمان من حصونهم المنيعة، وقلاعهم الكبيرة، بعد أن توجه للجهاد بنفسه في سنة ثلاثين وألف، وفعل بهم الأفاعيل، وذلك لما بلغه أن النصارى ببلاد الروس قد تحركوا، لكن حركات هالت عليهم الجنود، وحل لهم بسببها ما حل بعاد و ثمود)[١].

وقد ذكر مؤرخ مكة القطب الحنفي تحرير سليم الثاني لتونس بعد أن فرّط الحفصيين فيها باستعانة بعضهم بالفرنسيين على بعض حتى أخذوها منهم فقال: (وأما فتح حلق الواد، وبلاد تونس الغرب، فهي من أجلّ الغزوات العثمانية، وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية، الواقعة في أيام السلطان الأعظم السلطان سليم خان العثماني رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة، ومتعه بالنظر إلى وجهه الكريم ومنحه جنات النعيم، وبيان ذلك أن سلطان الغرب من آل حفص، لما ضعفوا ووهنوا، وقع بينهم اختلاف، صار بعضهم يلتجئ إلى نصارى الإفرنج، ويأتي بجنود الكفر، ويستعين بهم عليهم، على أخذ تونس، وصار الإفرنج يقاتلون في تونس المسلمين، ويقتلونهم ويسبون

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٢٦

نساءهم وأولادهم، ويبنون القلاع، في تلك البلاد، ويواصلون بجنود النصارى إلى بلاد اليمن، ويولون من تحت أيديهم سلطانا، من ذوي سلاطين تونس قديما، على بلاد تونس، ومن بها من المسلمين، إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى، وعم أذاهم على المسلمين، وانفردوا عنهم، وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان، مشيدة البنيان، بقرب تونس في موضع يقال له حلق الواد، وشحنوها بالأبطال الباطلين، من شجعان النصارى والمشركين، وملؤها بآلات الحرب والقتال، وصار النصارى تكمن للمسلمين، ويرسلون منها الأغوية والمراكب في البحر على بلدان المؤمنين الموحدين، ويقطعون الطريق على المسلمين، ويأخذون كل سفينة غصبا، وعمّ أذاهم المسلمين، قتلا وأسرا ونهبا وسلبا، إلى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الإسلام، وزاد فساد أهل الصليب على ضعف المسلمين، وكبير ملوك النصارى الآن، صاحب إشبيله من جزيرة الأندلس، أعادها الله تعالى إلى دار الإسلام، جهز جيشا كثيفا؛ لأخذ تونس، ووالس على ذلك سلطان أحمد بن حسين الحفصي، قابله الله على سوء فعله بما يستحقه، فأخذت النصارى مملكة تونس، ووضعوا السيف في أهلها؛ فقتلوا الرجال، وسبوا الأولاد والنساء والأطفال، وباء أحمد المذكور بإثمه، واسود في صحائف الأيام والليالي ديباجه، واسمه وجاهه، واستلب خاسرا مدحورا، وانخلع عن ربقه الدين، وزاد خيبة وكفورا، ونفرت قلوب المسلمين منه، وزادت نفورا، وكيف لا يكون كذلك؟ وقد استعان بملة الكفر على الإسلام، واستدعى عبدة الصليب والأصنام، ينتصر بهم على ملة محمد،

عليه أفضل الصلاة والسلام، وامتهن دار الإسلام تونس بإقدام أولئك الكفرة اللئام..

فلما طرق سمعه - السلطان سليم - الشريف هذا الحادث الرجيف، وعلم ما أصاب الإسلام من هذه المصائب العظام، والامتهان الذي قصم الظهر وأوهن العظام، استشاط غيظا وغضبا، واضطربت نار حميته، وتأججت لهيبا، وتحركت العصبية للإسلام، والتهبت نيران الحمية العثمانية..

وقال: من يقدم منكم على نصرة الإسلام، وإذلال الصليب والأصنام، ويستنقذ من أسر من المسلمين، بيد أولئك النصارى الطغام، ويخرجه من عهدة الكفار الفجرة اللئام..

وكان يوم بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى، يوما عظيما مشهودا، وساعة مباركة، أظهرت يمنا وبركة وصعودا، وكان الجمع المنصور جمعا مباركا منصورا، وذلك في غرة ربيع الأول سنة ٩٨١هـ..

وكان السلطان الموالي للنصارى أحمد الحفصي ومن معه من النصارى، رأوا أنهم عاجزون على حفظ تونس لسعتها، ورأوا أن قلعتها خرابا أيضا متهدمة لا تصونهم؛ فخرجوا من تونس إلى رملة، بقربها، يقال لها قريلودكن، يعني بحر الرمل، وعملوا بها حصرة من الخشب، حشوه بالتراب والرمل وتحصنوا فيه، وكانوا سبعة آلاف مقاتل، ما بين كفار ومرتدين، ومردة من النصارى المخذولين، وشحنوا هذا الأثاث بآلات الحرب والمدافع والذخيرة ونحو ذلك.

فلما خلت تونس من أعداء الدين، فتحها عساكر المسلمين، وضبطوها وحصنوها، ثم برزوا إلى قتال أولئك الملاعين، وحاصروهم في قلعتهم التي أعدوها...

وانتصر على النصارى أهل ملة الإسلام الذي بعث الله به رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام إلى كافة الأنام، وعاد حضرة الوزير المعظم، ظافرا منصورا غالبا مسرورا، مثابا مأجورا، وغنمت العساكر المنصورة السلطانية، والجيوش الموفورة الإيمانية، ما يكلّ عن حصره أنامل التحرير ويضيق عن ذكره أدراج السلاطين، وجهزت البشائر إلى الأبواب الشريفة السلطانية والأعتاب المنيفة العثمانية، وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر المسلمين في الأفاق، وخفق على الخافقين أجنحة السرور، والبشر الخفاق، ما بين حدود الغروب والإشراق.

ولولا لطف الله تعالى بأهل الإسلام، لكان البلاء عاما على سائر المسلمين، فإن السلطان الأعظم الأفخم السلطان سليم خان، لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين، لكانوا يتسلطون على أخذ تونس، وأخذ الجزائر كلها، وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصاراتها غاية الإحكام، وكانت ترتد عن الإسلام عربان العرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من بلاد الإسلام، لا أبلغهم الله تعالى ذلك المرام، وأنزل عليهم الخزي والخذلان والنكال إلى يوم القيامة، وأبقى الله تعالى سلطان الإسلام لدفع أولئك الكفرة اللئام، ومزقهم كل ممزق بالسيف والسنان والحسام، وشتت شملهم، ومزق جمعهم فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك.

فالله تعالى يشكر؛ لتأييد الإسلام صنيع هذا السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم الأكرم السلطان سليم خان، صاحب هذه الهمة العلية والعفة، والأيادي الحسان، يجازيه عن الإسلام والمسلمين خيرا، دائم الفيضان)[1].

وقال عن ابنه مراد: (السلطان مراد خان بن سليم خان ابن سليمان خان بن سليم خان، مولده الشريف في سنة ٩٥٣هـ، وجلس على تخت الملك الشريف في عاشر رمضان المبارك سنة ٩٨٣ هـ، وسنه الشريف من يوم ولي السلطنة ثلاثون سنة.

وإني أشير في هذه الرسالة إلى سيرة معدلته في الرعايا، ومحدث بما طبعه الله عليه من كرم السجايا، وحسب إلى خلقه الشريف من الرأفة بالبرايا، والمحبة لعلماء الدين وإكرامهم بالمواهب الجزيلة، وحسن نظره إلى أهل الحرمين الشريفين، وإحسانه إلى الفقهاء والفقراء والصلحاء بالبلدين المحترمين، فلقد أتاه الله ما لم يؤت أحدا من العالمين، وجمع له ما بين أعظم سعادة الدنيا والدين، وجعله كريما مباركا وسلطانا رؤوفا رحيما، ومنحه ملكا جليلا عظيما واقفا عند مراد ربه فلا يتعداه عاملا في أمره بتقوى الله مراعيا للعدل والإحسان فيما استرعاه، طالما غمرني بإحسانه وهو شاه زاده قبل جلوسه...)[2].

حماية الخلافة العثمانية لحدود الدولة الإسلامية:

كما عدّ الشيخ مرعي الحنبلي من فضائلهم: حماية حدود الخلافة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وتطوير القوة العسكرية البرية والبحرية، حتى لم يتحقق لدار

(١) الإعلام ص ٣٦٥

(٢) الإعلام ص ٣٨٩

الإسلام أمن كما تحقق في عصرهم، فقال: (ومن فضائل آل عثمان تحصين ثغور المسلمين، وقلاع الموحدين، وتعمير سفن الجهاد، وإقامة العساكر بها والأجناد، يطوفون في البحر شتاء وصيفا، ويدفعون عن بلاد المسلمين بلاء وحيفا، وأمن في أيامهم مثل: دمياط وعكا وحيفا، وأقاموا في البحر وزيرا، يقال له القبطان منزلة الوزير الأعظم في الرفعة والشأن، ومن تحت يده عدة باشوات مع كل واحد سفن مشحونات بالمدافع، وآلات الحرب والسلاح، بحيث نامت الرعايا في بلادهم في مهاد الأمان، وبالفرنج بسوء الطرد والخسران، ولو نصحت العساكر حق النصيحة لمولانا السلطان؛ لأخذوا مدينة مالطة، التي حصل بها للمسلمين المسافرين في البحر غاية الضرر، ولما حملت محاصرة شهرين أو أكثر، ولو علم بالحال مولانا السلطان لخرج لفتحها بنفسه، دمرها الله في أيامه، وضاعف في قدره واحترامه، وبالجملة فالعساكر والأجناد التي في البحر من أتباع آل عثمان بجزائر الغرب، ورودس، وسفاقس، وبحر الروم، وما هم فيه من المنعة والكثرة، لم تتفق لغيرهم من السلاطين)[١].

رعاية الخلافة العثمانية للحرمين وتأمين الطرق إليهما:

وكذلك عدّ الشيخ مرعي من فضائلهم: عنايتهم بطرق الحج وتعميرها، وحمايتها وتأمين الحجاج السائرين فيها، فقال: (ومن فضائل آل عثمان قهر المفسدين من العربان، وطردهم عن البلدان، وتعمير القلاع بالبراري والقفار، خصوصا في طريق الحاج والمفاوز المخرقة، وإقامة الأجناد بها لمعونة المسافرين، وإسعاف

(١) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ص ١٣٠

المنقطعين، مع الاهتمام الزائد بشأن الحجاج، وتهيئة العساكر للسلوك بهم في مخاوف الفجاج، مع ترتيب عجيب، وتركيب غريب، ودفع أموال جزيلة من قبل السلطنة؛ لدفع المتغلبين من العربان المفسدين، بحيث يسير الحجاج وهم في غاية الأمان ونهاية الاطمئنان)[١].

كما أثنى الشيخ مرعي على التزام خلفاء بني عثمان بالسنة النبوية والسنن البكرية العمرية في عدم ترك ميراث للورثة، بل رد كل شيء إلى بيت المال، وادخاره للجهاد ومصالح الأمة، فقال: (من فضائل آل عثمان أن السلطان منهم يموت، ولا ينقل عنه أنه خلف تركة يقتسمها ورثته من بعده، كما كانت الملوك السالفة، والسلاطين الماضية، بل جميع ما تركه هو لبيت مال المسلمين)[٢].

وما ذكره الشيخ مرعي هنا عن عفة خلفاء الدولة العثمانية في القرن الهجري العاشر وهم في أوج قوتهم؛ تجلى بأوضح صوره بعد إلغاء الخلافة، ونفي آخر خليفة وهو السلطان محمد السادس وحيد الدين، الذي خرج من إسطنبول لم يأخذ دينارا واحدا، فعاش فقيرا حتى توفي، وقد شهد لهم بهذه الروح النبيلة المؤرخ التركي المعاصر إيلبير أورتالي؛ حيث يقول عنه: (لم ينهب هذا السلطان الخزينة العثمانية على الرغم من استطاعته القيام بذلك، وبعد أربع سنوات مات في منفاه معانيا من الفقر والفاقة وغارقا بالديون، فوق هذا، كان يستدين من أجل أن يعيش فقط! لم يصطحب معه يوم غادر العرش سوى طبيبه رشاد باشا وابنه وزوجته، حتى إنه ترك بناته وأحفاده، ولجأوا إلى أوروبا بعد مدة، عندما نفي أعضاء الأسرة المالكة كلهم... لا يمكن الحديث هنا أصلا عن

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٣٢

(٢) المصدر السابق

أسرة مالكة غنية جدا، وكما بينت في مواقف سابقة، لم يكن سلطان السلاطين يستطيع أن يمد يده إلى قطعة زمرد... عاش أعضاء الأسرة المالكة العثمانية أيام صعبة خارج البلد، وكانوا مفلسين، كانت الأسرة الحاكمة العثمانية هي الوحيدة التي لم تودع أموالا في بنوك أوروبا، على الرغم من هذا، لم تقدم على عمل غير كريم من أجل أن تعيش... لم تكن الأسرة العثمانية كأسرة الخديوي في مصر، ولم تكن أيضا مثل عائلة بهلوي الانقلابية في إيران، بل كانت تثق بتقاليد تجعلها ترفع الدولة فوق كل اعتبار، أعاد آخر السلاطين ساعة والده التي استعارها من الخزينة قبل فترة من مغادرته! لم يعتقد أفراد الأسرة المالكة العثمانيون أنهم سيرتاحون بنهب الخزينة أو إيداع أموال في البنوك الأوروبية، وتبنوا فكرة أن الإساءة لمن يديرون الدولة التركية ومعارضتهم تسيئان لديمومة الأمة والدولة)[1]!

شبهة قتل العثمانيين أولادهم وبيان أسبابها التاريخية والفقهية:

كما ذكر الشيخ مرعي ما أشيع عنهم من قتل أبنائهم حفاظا على الأمة ووحدتها، وناقش من أجاز لهم ذلك من فقهاء الحنفية، واعتبر الشيخ مرعي بأن قتل من ظهرت عليه منهم عند المراهقة بوادر الشقاق والفساد وترجح وقوع ذلك منهم بأن له وجها فقهيا، دون الصغار الذين يحرم قطعا قتلهم بمثل هذه المصلحة الموهومة، وقد رجّح الشيخ مرعي بأن وما وقع منهم هو في حق من ظهر منهم بوادر الفتن، فقال: (ومن فضائل آل عثمان: قتل أولادهم الذكور خوفا من الفتن،

(١) "العثمانيون في ثلاث قارات" ص ١٨١ - ١٨٤

وفساد ملكهم، واختلاف الكلمة وشق العصا بين المسلمين، وهذا الأمر لم يسبقهم إليه أحد فيما أعلم.

وهو وإن كان أمرا ينفر منه الطبع السليم بحسب الظاهر، لكنه في نفس الأمر خير كبير، ونفع كثير، ومع ذلك فلم يظهر لي جواز ذلك على سبيل الإطلاق، لأنهم أطفال لا ذنب لهم أصلا، وكون يحصل منهم بغي وإثارة فتن فيما بعد فهو أمر غير محقق، وترك القتل في مثل ذلك أليق. ولعل من أفتى من العلماء بالجواز، واستحل قتلهم، وأجاز محتجا بجواز قتل الثلث لإصلاح الثلثين، نزل الظن منزلة اليقين على ما فيه من البعد بلا مين، ويحتمل أن يقال يجوز قتلهم سياسة لا شريعة، وباب السياسة أوسع من باب الشرع، فقد قال العلماء المحققون: للسلطان سلوك سبيل السياسة ولا تتوقف السياسة على كل ما نطق به الشرع، قال العلامة ابن عقيل الحنبلي وهو الجزم عندنا)[(١)].

ثم قال بعد أن استدل بقول القرافي وابن تيمية في مراعاة أكمل المصالح، ودفع أشد المفاسد: (إذا علمت هذا فينبغي القول بجواز القتل إذا صار الغلام مراهقا مع القرائن الدالة على الفتنة؛ لأنه حينئذ صار مظنة الفساد والفتن. وأما قبل ذلك فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، وعند الخوف فربما يجوز القتل من هذه الحيثية عملا بالقرائن وشواهد الأحوال قبل أن يتسع الخرق، ويعظم الخطب، ويشتد الندم والكرب. هذا السلطان سليمان في أول توليته، شرع في قتل أولاده؛ خوف الفتن والخروج عليه، فأرسل وأمر بإحضار ولده مصطفى

(١) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ص ١٣٥

بعد توجيهه إلى تبريز؛ لأخذ العجم؛ فأمر بخنقه، ثم تحيل على تحصيل ولده بايزيد، بعد أن وقعت فتن قتل فيها نحو خمسين ألفا، ولا ريب أن قتل واحد أسهل من قتل عشرة، فكيف بخمسين ألفا؟ وهذا مولاي أحمد سلطان الغرب [مراكش المغرب]، لما مات وترك أولاده، فاقتتلوا بعده على الملك، وحصلت فتن قتل فيها ألوف من المسلمين، وذهب بعض أولاده إلى الفرنج، واستعان بهم وأطمعهم في بلاد المسلمين وسلمهم مدينة العرائش، وهي مدينة عظيمة، وهي بأيدي الفرنج إلى يومنا هذا، فوهي بهذا السبب سلطنة المغرب ولم تزل الأمور في التخبيط بالمغرب إلى الآن، ولو قتل مولاي أحمد أولاده إلا واحدا كبني عثمان، لما صار شيء من ذلك ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا)!

وقد ثار جدل كبير بين المؤرخين المعاصرين في حقيقة هذا الأمر وثبوته عن الخلفاء العثمانيين، ووجود نص في قانون محمد الفاتح يسوغ ذلك، وقد نفاه بعض المؤرخين الأتراك وبعض المستشرقين الأوربيين؛ لعدم وجود هذا النص في النسخ القديمة الأصلية لمراسيم الفاتح، وأثبته بعضهم على أنه ليس من قوانين محمد الفاتح بل مما زاده من جاء بعده من خلفائهم، وقد حقق القول في هذه القضية المؤرخ التركي أحمد آق كوندز في كتابه "الوثائق تنطق بالحقائق"[١] ورجّح صحة هذا القانون في مجموعة قوانين محمد الفاتح المستمدة من القوانين العباسية والسلجوقية التي تأخذ بأقوال فقهاء الحنفية، وهي ملتزمة بالشرع وأحكامه، والفقه الإسلامي ومصادره، وأن هذه المادة تتحدث عن قتل إخوة السلطان -لا أبنائه- إذا تولى السلطة، وخشي منهم إثارة فتنة تضر بالنظام العام للدولة، وقد جاء في نص المادة المذكورة (حفاظا على النظام العام

(١)"الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٤٥٠.

وقد أجاز أكثر العلماء هذا الأمر) **والذي أجازه الفقهاء هو قتل من تحقق ذلك منه بالبغي فعلا، لا من لم يقع منه شيء من ذلك، وأن الخطأ إنما وقع في التوسع في تفسير البغي ومفهوم النظام العام الذي يجب المحافظة عليه**. ثم قال: (رجال القانون العثمانيون قد عرفوا جميع الأعمال التي تهدف إلى التمرد ضد سلطة حاكم الدولة وعدم طاعة أوامره أو التي تسبب الفوضى والاضطراب في أرجاء الدولة أو من يسعى في الأرض فسادا كعمل من أعمال البغي، ومن يرتكبها يعتبر باغيا أمام الدولة. وقد أفتى هؤلاء بإعدام من تثبت عليه هذه التهمة، حتى لو كان الباغي شقيقا للسلطان، فإن هذا الحكم لا يغير من حكم الشريعة. وهذا ما نفذه السلطان ياووز سليم تجاه اثنين من أشقائه، فقد كان أحدهما مشاركا في حركة تمرد الشيعة، والآخر شريكا مع عصابات قطاع الطرق. وقد نفذ فيهما ما أمر به الشرع الاكتمال عناصر الجريمة.

إن المجموعة الأولى من المجرمين الذين تحدثت عنهم المادة الخاصة بقتل الإخوة الواردة في قوانين محمد الفاتح تنطبق عليهم هذه الحوادث. وهذه المادة نظريا قد فسرت كما هي معروفة لعلماء الشرع، ولكن حدث بون واسع بين النظرية والتطبيق، فكثيرا ما نفذت عقوبة الإعدام دون أن تكتمل عناصر الجريمة أو تثبت على صاحبها. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نوافق على قتل الطفل النائم في مهده. ولكن ليس هذا ما نصت عليه قوانين محمد الفاتح. ويعتبر نصف حوادث إعدام الإخوة في الدولة العثمانية من الحوادث التي أوجبت الإعدام لارتكاب ما يوجب إقامة الحد.

وهذا هو ما نقلته إلينا الفتاوى الصادرة بهذا الشأن، وينبغي التذكير هنا أن بعض أحكام الإعدام التي صدرت ضد جرائم البغي كانت تستند إلى وشاية أو شهادة زور مما كان يؤدي إلى استصدار فتوى من شيوخ الإسلام على وقوع جريمة البغي ضد الدولة. وأحسن مثال على هذه الحوادث الفتوى الصادرة بحق نجل السلطان سليمان القانوني الأمير مصطفى. وهناك وثيقة عثمانية في أرشيف رئاسة الوزراء تحمل في طياتها ما يلفت الانتباه فعلا وهي كما يلي:

تجمع كتب الفقه ويجمع الفقهاء على تعريف البغاة أو العصاة بأنهم عبارة عن مسلم أو مجموعة من المسلمين يقومون بالتمرد ضد الدولة الموجودة وشق عصا الطاعة، وإذا تمادى هؤلاء المسلمون في بغيهم فإن جزاءهم الإعدام، ولكن إذا كانت هناك عقوبات أخف من الإعدام تقلل من ثورة التمرد فينبغي تنفيذها، وقد أورد العلماء شروحا تفصيلية عن الجرائم التي يرتكبها هؤلاء البغاة، مثلا اعتبروا البغي شاملا لجرائم من نوع عدم طاعة أوامر السلطان المشروعة أو ارتكاب ما يخرب النظام العام من فتنة وفساد وتمرد أو قتل الناس واغتصاب أموالهم أو إعاقة سياسة الدولة.

ولننتقل إلى الفتاوى الصادرة من كبار العلماء أمثال أبي السعود وذكر نسخها الأصلية: هذه نسخة من الفتوى الصادرة بعد المسألة التي قام بها السلطان بايزيد بحق أحد أبنائه الأمراء:

السؤال: إذا قام أحد أبناء السلطان بالخروج عن طاعته واستولى على بعض القلاع وجمع الجنود ضد الدولة واغتصب أموال الناس بالإكراه، فهل يجوز شرعا قتلهم بعد تفريق شملهم؟

الجواب: نعم. فهذا ثابت في نص قرآني كحكم شرعي لا مناص من تطبيقه، وقد أجمع الصحابة على ذلك أيضا. فكل من يقوم بالتمرد المسلح تتم محاربته، وكل من كان عاجزا عن القتال تتم مجادلته بالكلمة والموعظة الحسنة حتى يرعوي؛ درءا للفتنة والفساد)[١].

وبعد أن أورد د. أحمد كوندز الفتاوى الصادرة في مثل هذه الحوادث والتي كان الخلفاء لا يتجاوزونها التزاما منهم بأحكام الشرع المطهر؛ قال: (إن فقهاء الحنفية والحنابلة قد رأوا جواز تنفيذ حكم الإعدام كعقوبة تعزيرية فيمن يمارس عملا مخلا بالمصلحة العامة، وهذه العقوبة تدعى سياسيا بعقوبة القتل تعزيرا مثل اللواط الذي يعتبره فقهاء الحنفية جريمة ولكن لا يستوجب إقامة الحد لأنه لا يعتبر زنا، ولكن هذا لا يعني التخلي عن فكرة كونه جريمة. وعقوبة هذه الجريمة يتم تقديرها من قبل أولي الأمر، وقد أجمع الفقهاء على تطبيق عقوبة الإعدام على من اعتاد على ممارسة اللواط حفاظا على أمن المجتمع وسلامة أخلاقه، وكذلك أجمع غالبية فقهاء الحنفية على إعدام من يظهر استعدادا للتمرد ضد الدولة حتى وإن لم يتمرد فعليا، وهذه العقوبة تطبق تعزيرا في نظر هؤلاء الفقهاء حفاظا على الأمن العام... وهذا هو بالضبط ما قصده السلطان محمد الفاتح في سنه للقانون عندما قال: وهذا ما أجازه أغلبية العلماء)[٢].

(١) "الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٤٥٩.

(٢) "الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٤٦٦.

التزام الدولة العثمانية بأحكام الشرع وقضاته:

وقد كان خلفاء بني عثمان يعظمون الشرع وأحكامه وقضاته، فلا يقومون بعمل إلا بفتوى شرعية، وهذا ما عدّه الشيخ مرعي من فضائلهم وهو تعظيم خلفاء بني عثمان للعلماء والصلحاء؛ فقال: (ومن فضائل آل عثمان: إجلال العلماء، واعتقاد الصلحاء، وإكرام أهل القرآن، فلم ينقل عنهم ولم يسمع منهم إهانة أحد من العلماء حقيقة، بخلاف غيرهم من الملوك والخلفاء؛ فقد آذوا كثيرا من العلماء والأئمة، وأهانوهم، وقتلوهم. وهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى مع جلالة قدره ووفور علمه وورعه قد حصل له من الخليفة أبي جعفر المنصور ما حصل، ووقع له معه ما وقع، كما ذكرت ذلك في كتابي "تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين"..)[1].

ثم استطرد الشيخ مرعي في ذكر ما تعرض له باقي الأئمة الأربعة ومن بعدهم من الأئمة الأعلام في كل زمان ثم قال: (<u>وإذا تدبر العاقل دولة بني عثمان وما العلماء فيه من الإجلال والإكرام، والتوقير والاحترام، مع الأرزاق الواصلة إليهم، والوظائف الجارية عليهم، علم أن أيامهم خير أيام، وزمانهم خير زمان،</u> لولا ما يحصل من حواشيهم بغير علمهم من الظلم للرعايا، والجور في القضايا، ولكن المصائب والبلايا والنوائب والرزايا بعضها أخف من بعض، والتي وقعت في زمن غيرهم لم يقع شيء منها في زمنهم، بل العلماء عندهم في غاية التعظيم، والتبجيل والتكريم، ولعل بهذا السبب دامت دولتهم، وارتفعت كلمتهم)[2].

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٣٨.

(٢) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٤٧.

كما ذكر من فضائلهم تعظيم آل البيت النبوي وإكرامهم وتوقير الأشراف فقال: (ومن فضائل آل عثمان: تعظيم الأشراف العلويين، والسادة البكريين، ومعاملتهم بالإجلال والتعظيم، والإنعام والتكريم، فانظر إلى تعظيم البكرية والسادة الوفائية بمصر المحمية، وكذلك تعظيم الأشراف وآل عبد مناف بديار الروم وبقية البلدان)[1].

ثم ذكر الشيخ مرعي إجماع الفقهاء على وجوب إقامة الحد والحق على كل شريف وضعيف، وأن حرمة آل البيت، لا تحول دون إقامة الحدود عليهم، وكذا حرمة الحرمين لا تمنع من قتال من أراد فيه إلحادا؛ فقال: (وقد ذكر أبو بكر بن العربي أنه لو تغلب في الحرم كفار وبغاة وجب قتالهم بالإجماع، ونقل النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" عن الماوردي إمام الشافعية أنهم يقاتلون على بغيهم إذا لم يمكن ردهم إلا بالقتال؛ لأن قتال أهل البغي من حقوق الله تعالى التي لا يجوز إضاعتها، ولأن يكون حق الله محفوظا في الحرم أولى من أن يكون مضيعة فيه.

قال الإمام النووي: (وهذا ما ذكره الماوردي هو الصحيح، وقد نصّ عليه الشافعي في الأم) انتهى. ولأن من استخفّ بالحرم وامتهن حرمته، فالواجب أن يمنع بركته كيف لا! والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وروى الإمام الأثرم بإسناده، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "من أحدث حدثا في الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شيء". وقد بسطت الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، وقال شيخ

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٤٨.

الإسلام ابن تيمية إمام الحنابلة: يجب على السلطان قتال كل طائفة ممتنعة من التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛ كالصلاة، أو الزكاة، أو الصيام، أو كانت مستحلة ما كان من المحرمات الظاهرة المجمع عليها؛ كنكاح ذوات المحارم، والفساد في الأرض؛ فيجب جهادها حتى يكون الدين كله لله، باتفاق الفقهاء)[١].

رعاية الخلافة العثمانية لمذاهب أهل السنة والجماعة ونصرتها:

كما ذكر الشيخ مرعي من الفضائل التي اشتهر بها خلفاء آل عثمان صحة عقائدهم، ونصرهم لمذاهب أهل السنة في الاعتقاد، وقيامهم فيها غاية الاجتهاد، وأنهم كانوا خير أهل زمانهم دينا واتباعا للكتاب والسنة، وإقامة لأحكام الشرع، فقال عنهم: (ومن فضائل آل عثمان: حسن العقيدة، واتباع الطريقة الناجية الحميدة، جارين على سنن مذهب أهل السنة والجماعة، مقتفين لطريقة أهل الحق مع السمع والطاعة، فلم ينقل عن أحد منهم سوء اعتقاد، بل يكرهون أهل الزيغ والإلحاد، بخلاف غيرهم من الخلفاء والملوك، فقد داخل كثيرة منهم الأوهام والشكوك، وعرجوا عن طريق الاستقامة، فباءوا بالخسر والندامة..

فانظر أيها العاقل إلى هؤلاء وإلى سلاطين بني عثمان المتمسكين بالسنة والقرآن، المتقلدين بمذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، يلوح لك الحق والفرقان، وانظر أيضا إلى عقائد ملوك العجم شاه عباس الآن، وأجداده وإلى اسماعيل شاه الذي كان في أيام السلطان الغوري، الذي استولى على سائر ملوك العجم، وقتل ما يزيد على ألف ألف، وقتل العلماء، وأحرق كتبهم

(١) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ص ١٥٣.

ومصاحفهم، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة، وأخرج عظامهم وأحرقها، وأظهر مذهب الرفض والإلحاد بأرض العجم إلى يومنا هذا.

فانظر إلى ما اشتمل عليه ملوكهم الآن من سبة الشيخين، وتعطيل الجمعة والجماعات، واستحلال المحرمات، والمجاهرة بالفجور في المساجد، وتعطيلها من الراكع والساجد، ولو رأيت أهل بلاده من أهل السنة والجماعة، وما هم فيه من الذل والهوان، لتتابعت منك عليهم الزفرات والأحزان، ويا ليتهم عندهم بمنزلة أهل الذمة عندنا، بل بالغوا في احتقارهم وازدرائهم وإيذائهم. وانظر الآن إلى حال ملوك الهند، وإلى عقيدة ابن السلطان جلال الدين الأكبر، فقد قيل أنه الآن لا يتدين بدين، وقد ارتكب في اعتقاده طريقة المتلاعبين من الزنديقين والملحدين. اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مالك الملوك ومزيل غياهب الشكوك، انصر مذهب أهل الحق واعلِ كلمة الإيمان، ببقاء أيام دولة سلاطين بني عثمان، واخلع عليهم خلع القبول والرضوان، وأيّد كلمتهم بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، واجعل الدنيا كلها ملكهم، وأيد سلطانهم وملكهم فإنهم الآن خير ملوك الزمان.

ومن فضائل آل عثمان كما شهد لهم الشيخ مرعي الحنبلي (انقيادهم للشرع الشريف مع علو مقدارهم المنيف، فهم دائما للشرع معظمون، وباتباعه آمرون، وعن اجتنابه ناهون، وكلمة الشرع فيما بينهم جارية على الوزير والأمير، كالمسكين والفقير، حتى لو أمر سلطانهم، أو وزيرهم، أو أميرهم بأمر لابد من تأييده بحكم حاكم الشرع الشريف، وأن يمضي عليه قاضيهم لمزيد الامتثال والتشريف، وكفى بهذه لهم منقبة فاخرة، ومزية ظاهرة، حيث أقاموا الشرع،

وأعزوا أنصاره، وشيدوا بنيانه، وعمروا أمصاره. ولقد وقع في زماننا أن بعض الباشوات بمصر الأماثل المعتبرين، وكان ذا صولة ومهابة وتمكين، أخذ من بعض التجار بمصر أموالا جزيلة، محتجا عليهم بحجج واهية، فلما توجه الباشا المذكور إلى ديار الروم، اتبعوه واشتكوه لمولانا السلطان؛ فخرج توقيعه الشريف، بأن الدعوى تسمع عليه في مجلس الشرع الشريف، ويؤخذ منه ما أخذه بغير حق، ويدفع الحق لأصحابه، فأحضر لمجلس الشرع، وسمعت الدعوى عليه، وأخذ الحق منه، وكان قريبا من عشرين ألف دينار، فهل هذا إلا محض عدل وإنصاف، وصرف رفق وإسعاف، حيث سووا في الحق بين من هو وزير من ذوي الشهامة والبأس، وبين من هو من أحاد الرعية والناس.

وبالجملة فهم للشرع معظمون، وباتباعه آمرون، وإن حصل زيغ أو ظلم؛ فالظن أنهم لا يعلمون)[١].

شبهة علمانية الخلافة العثمانية:

وقد حاول المستشرقون في العصر الحديث كجولد زيهر وغيره إثارة الشبه حول التزام الدولة العثمانية بأحكام الشرع وبالفقه الإسلامي، وتابعهم بعض المعاصرين كعزمي بشارة، وأن الخلافة العثمانية كانت دولة علمانية!

وقد نقض هذه الشبه البرفسور أحمد آق، وعزا[٢] هذه الشبه لعدم معرفة من أثاروها بأصول الفقه الحنفي ومصادره التي كانت تلتزم بها الخلافة

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٥٥.

(٢) "الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٤٠٨.

العثمانية حتى سقوطها، وقال عن (القوانين العامة العثمانية على ضوء الكتب الفقهية:

كانت المدونات القانونية كمثيلاتها في الدول الإسلامية الأخرى موجودة ضمن الكتب الفقهية التي كان يؤلفها كبار الفقهاء المجتهدين، أي أن الدولة العثمانية كانت تعتبر النصوص الفقهية التي كانت تكتب من قبل الفقهاء مرجعا قانونيا أو دستوريا؛ ولهذا السبب لم يقم العثمانيون بتدوين دستور خاص بهم، والأهم من كل ذلك التطابق الكامل الموجود بين ما هو مدون في السجلات الشرعية وبين ما هو موجود في الكتب الفقهية، أي أن الأبحاث تؤكد القاعدة التالية: أن أي حكم شرعي يتعلق بأحد فروع القانون مدون في الكتب الفقهية يمكن العثور على مثيله مدونا للفرع القانوني نفسه في السجلات الشرعية والعكس صحيح.

لقد كان الكتاب الفقهي المسمى "الدرر والغر" للملا خسرو أستاذ السلطان محمد الفاتح دستورا شبه رسمي أو مرجعا قانونيا للدولة العثمانية ولمدة قرون، ولقد كان أيضا مرجعا دراسيا لمعلمي المدارس فضلا عن كونه دليلا قانونيا للقضاة في المحاكم الشرعية، وفي سنة ١٦٤٨ تم اتخاذ كتاب "ملتقى الأبحر" لمؤلفه إبراهيم الحلبي دستورا رسميا للدولة العثمانية، واستمر يحمل هذه الصفة الرسمية خصوصا في القضايا الخاصة بالقوانين العامة حتى سنة ١٨٤٣، بل استمر هذا الوضع فيما يخص القوانين الخاصة حتى سنة ١٩١٧.

وتعتبر الأحكام التي دونتها مجلة الأحكام العدلية بشأن الديون والأحوال الشخصية والقوانين التجارية وقوانين الأصول القضائية ترجمة تركية لكتاب

"ملتقى الأبحر" مع بعض التعديلات الطفيفة، ويستطيع المطلع أن يجري المقارنة بينهما بسهولة.

وهناك آراء متعلقة بهذا الموضوع أدلى بها أحد القانونيين الهولنديين تعتبر ملفتة للانتباه إلى جانب الآراء السائدة عندنا حاليا، وهذه الآراء التي أدلى بها هذا القانوني هي كما يلي:

يعتبر الفقهاء المجتهدون المنظمين الأصليين للقوانين الإسلامية، ويمكن تشبيههم برجال القانون في روما، إلا أن دور هؤلاء المجتهدين المسلمين لم يقتصر على التأثير الروحي كما حدث عندنا، بل كان لهم نفوذا ماديا مؤثرا إلى درجة أن القضاة ينبغي لهم التسليم بآراء هؤلاء الفقهاء المجتهدين، ولكن إذا كان القاضي ذا علم يوازي علم المجتهد فعندئذ يتولد أمر ثاني، وهذا النفوذ والتأثير ليس مصدره حاكم الدولة، بل هو الصيت العلمي والديني لهؤلاء الفقهاء عند العامة، وحاكم الدولة ليس له إلا النزول عند رأي هؤلاء الفقهاء، وليس له أن يعرض آراء هؤلاء على الاستشارة والمناقشة.

ويعتبر كتاب "ملتقى الأبحر" أوّل كتاب فقهي يتم اتخاذه دستورا ومرجعا قانونيا رسميا في الدولة العثمانية، وذلك في السنوات بين ١٦٤٨-١٦٨٧. وهذا الكتاب أُلّف من قبل إبراهيم الحلبي المتوفي سنة ١٥٤٩، وتمت ترجمته إلى التركية تحت اسم "الموقوفات" بأمر من السلطان محمد الرابع، ويحتوي الكتاب على جميع الأحكام الشرعية المتعلقة بفروع القوانين؛ ولهذا السبب يمكن اعتباره المجلة القانونية الحقيقية لقوانين الدولة العثمانية، أما الكتب

الفقهية التي ألفت بعد القبول الرسمي لـ"ملتقى الأبحر" فتعتبر كتبا للفتوى تتناول جميعها شروحات وإيضاحات لما ورد من أحكام في هذا الكتاب.

وسوف نذكر الخطوط العامة للموضوعات المتعلقة بالقوانين العامة التي ورد ذكرها في هذا الكتاب باعتباره المجلة القانونية الحقيقية للدولة العثمانية، وهدفنا توضيح الأمر بشيء من التفصيل كما يلي:

١- الأسس الرئيسية للقوانين المالية والأحكام الشرعية لقانون الضرائب (كتاب الزكاة).

٢- جرائم الحدود وعقوباتها بكل تفاصيلها (كتاب الحدود).

٣- الأسس الشرعية للعقوبات التعزيرية.

٤- الأحكام المتعلقة بالقوانين العامة والخاصة للدولة والقوانين الإدارية (كتاب السير).

٥- الأحكام المتعلقة بالمعاملات المالية والنقدية.

٦- الأحكام المتعلقة بالمحاكمات (كتاب القضاء، كتاب الشهادات، كتاب الدعاوى).

٧- الأحكام المتعلقة بالقصاص والديات...)[١].

صلاح خلفاء بني عثمان وحب الرعية لهم واجتماع الأمة عليهم:

ثم تحدث الشيخ مرعي الحنبلي عن صلاح خلفاء الدولة العثمانية وما كانوا عليه من ديانة وصيانة وعناية بالعلم؛ فقال: (ومن فضائل آل عثمان: أن

(١) "الوثائق تنطق بالحقائق" ص ٤١٦.

سلاطينهم بأسرهم في غاية ما يكون من طهارة الفم والذيل، وعدم الحيف والميل، وعدم تعاطي المنكرات، وقبائح المحرمات؛ من شرب الخمور، وتعاطي الفجور، كما يفعله غيرهم من الملوك والسلاطين، فلم ينقل عن أحد منهم أنه فعل شيئا من ذلك، ولم يعلم لأحد منهم صبوة، ولا ارتكاب رذيلة أو ما يخل بالمروءة والفضيلة، بل هم دائما في غاية الصيانة، ونهاية الديانة، وتحصيل الفضائل، واجتناب الرذائل، مع الخوف، والمراقبة، والحضور، والإقبال على الله تعالى، والاعتماد عليه في جميع الأمور، بل بيوتهم، وقصورهم، وسراياهم مشحونة بتلاوة القرآن، ومطالعة كتب العلم من الفقه، والنحو، والصرف، والتفسير، وغير ذلك، مع المحافظة على الصلوات في أوقاتها حتى أن مماليكهم وأتباعهم الذين داخل سراياهم كلهم كذلك، وهم في غاية من الأدب واللطافة، ونهاية من الكمال والنظافة، صغيرهم في يده لوحه يؤدب فيه، وكبيرهم مصحفه بيده يقرأ فيه، وينظر إليه، أو يشتغل بالعلم، ومطارحة المسائل، ولا يكاد يوجد فيه إلا فاضل وكامل، لا يتعاطون المهملات، ولا يقربون الرذالات، حتى أنهم كما قيل لا يشربون فيها الدخان، فضلا عن قربان غيره من زور وبهتان، بخلاف غيرهم من السلاطين، واتباع غيرهم من الملوك؛ فكم يرتكبون من فسق وفجور، وكم يتعاطون من فعل محرم وخمور، ولا يمنعهم من ذلك شهامة الملك والسلطنة، ولا يبدلون السيئة بالحسنة، ولولا الخوف من غيبة ملوك أهل السنة والإسلام، وذكر مساوئهم بين الأنام، لذكرت هنا كثيرا منهم، مع ذكر ما كان يفعله، ويتعاطاه، ولا يهمله، غير أن الستر مطلوب،

والواجب الإغضاء عن العيوب، إلا ما كان من ذلك بدعة؛ فإنها تذكر لأجل التحذير منها والتنفير عنها)[١].

وقال عن حب الرعية ودعائها لهم: (ومن فضائل آل عثمان: ميل قلوب الرعايا إليهم، وثناؤهم بالحسن الجميل عليهم؛ فلا تجد أحدا من الرعايا يذكرهم بسوء، وينسب إليهم ما لا يليق، بل كلهم يثنون ويدعون ويحبون؛ فلا تجد أحدا من رعاياهم إلا وهو يحبهم، ويدعو لهم بالنصر والتأييد، حتى إنك تجد الصغير والكبير من ذكر أو أنثى؛ إذا ذكر السلطان، يقول: نصره الله تعالى، الله ينصر السلطان، وكأن الله تعالى قذف في قلوب رعيتهم حبهم، وقذف في قلوب سائر الناس تعظيمهم، وهو دليل على حب الله وملائكته لهم. روى أبو نعيم في الحلية، عن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: " إذا أحب الله عبده قذف حبه في قلوب الملائكة، ثم يقذفه في قلوب الآدميين، وإذا بغض عبده قذف بغضه في قلوب الملائكة، ثم يقذفه في قلوب الآدميين". وفي حديث آخر: إذا أحببتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من الثناء، وما تولى سلطان منهم وتمنى أحد زواله، بل تجد الرعايا قاطبة داعية له بالنصر وطول العمر بخلاف غيرهم من الملوك والسلاطين فإن كثيرا من رعاياهم يكرههم ويتمنى زوالهم، وإن حدثت ظلامه فما تجد أحد ينسبها إليهم)[٢].

كما عدّ الشيخ مرعي من أعظم فضائل الخلفاء العثمانيين اجتماع الأمة عليهم بعد أن تفرق شملها بعد التتار وفتنتهم (لكن الله تعالى من لطفه بهذا الدين، قد جمع غالب ما تفرق من كلمة المسلمين بالسلاطين العثمانيين،

---

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٦٣.

(٢) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٧٩.

وجمع بهم للمؤمنين بين العلا، والرفعة، والتمكين، واتسعت لهم الممالك أي اتساع، وسلم لهم الأمر بلا نزاع، واعترفت لهم بذلك سائر ملوك الأقطار، وخطب باسمهم على المنابر في غالب الأمصار، وابتهجت بدولتهم الدنيا في هذا الإعصار، وقد أصبح سلطان عصرنا بين الملوك كأنه هالة الأقمار، وقد أحيا ما اندرس من مذهب الأخبار. ونعم الخلف من أولئك السلف الكرام الأبرار، افتتح دولة سلطنته بجهاد الكفار، وإحياء سنن المرسلين أولي الأيدي والأبصار)[1].

ثم يختتم الشيخ مرعي كتابه في تحديد مراده من ذكر فضائلهم، ومن يقصد بالثناء عليه منهم، وأنه يريد بيت آل عثمان نفسه الذي يراه طاهرا مقدسا، وهو ما يؤكد أنه يعزو نسبهم إلى بيت النبوة، وأنه كتب هذا الكتاب لا لحاجة له عندهم، بل شهادة عنده لهم، إذ فرغ منه سنة ١٠٣١هـ وهو في آخر حياته، وتوفي بعد تأليفه بنحو سنة، فيقول: (اعلم أيها الناظر، وذا الوجه الناضر، والمولى الناصر، إني لم أقصد بذكر جميع هذه الفضائل، وتعداد هذه الشمائل حواشي آل بني عثمان، ولا من في عمالهم أولي الرفعة والشأن، وإنما قصدي بذلك نفس بيت أهل السلطنة المعظمة وسلالتهم المكرمة، فإنهم في حد ذاتهم بيت طاهر مقدس، ونسب فاخر أقدس، غير خالين عند الله تعالى من صدق سريرة، وحسن نية وسيرة؛ وبذلك قرت لهم السياسة، واستقرت لهم الرئاسة، مع إقامة ناموس السلطنة والملك أحسن قيام، وانتظام أمورهم أتم نظام، وخلدوا لهم بذلك ذكرا يسطر في تواريخ الأخبار، وثناء ينشر ما تعاقب

(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٨٤.

الليل والنهار. وبالجملة فسلاطين بني عثمان من خير ملوك الزمان، نسبا، وحسبا، وشهامة، ومروءة كاملة، وإنعامات شاملة، وعزم، وحزم، ويقين، وجلالة، ومهابة وتمكين مع سطوة باهرة، وصولة قاهرة، وخبرة بالسياسة، ومعرفة في الرئاسة، وكثرة عساكر وأجناد، مع امتثال وأدب وانقياد، صيتهم قد ملا الخافقين، وذكرهم عمر المشرقين والمغربين، وأجمل الملوك جمالا، وأوسعهم أفضالا ونوالا، وأطولهم طولا وزمانا، وأملكهم ملكا ومكانا؛ فاقوا مفاخر بني ساسان، ومآثر بني يونان:

أولئك الناس إن عدوا وإن ذكروا	ومن سواهم فلغو غير معدود
لو خلد الدهر ذا عز لعزته	كانوا أحق بتعمير وتخليد

وليست شهادتي هذه لعلة وتبرير غلة، ولست ممن يقول منهم: عساه ولعله، فإني عن خيراتهم من التقاعد قاعد، ولكن رحم الله امرأ عرف الحق فأنصف، ومن الإنصاف أن يقول المرء الحق ولو على نفسه، وأن ينزل الناس منازلهم؛ ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "اتقوا الله وأنزلوا الناس منازلهم". ولا تظن أيها الناظر، واللبيب المسامر، أني قد بالغت في مدحهم أو غاليت في وصفهم، بل هم فوق ذلك، وأبلغ من ذلك مما هنالك، وما ذكرته فإنما هو بعض أوصافهم الكاملة وفضائلهم الشاملة، ولو رأيتهم أيها الناظر لرأيت غاية الرفعة والشأن، ولاح لك صدق اليقين والبرهان، وعرفت سرة ليس الخبر كالعيان، ولأنشدت مرتجلا ولقلت متمثلا:

كانت مسائلة الركبان تخبرني	عن أحمد بن سعيد أحسن الخبر
ثم التقينا، فلا والله ما سمعت	أذني بأحسن مما قد رأى بصري

لا يزال الوجود بدوام خلافتهم سنيا عامرا، ولا برح الإيمان في أيام سلطنتهم قويا ظاهرا وأيد الله تعالى ملكهم، وجعل الدنيا بأسرها ملكهم)[١].



(١) "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان" ص ١٨٨.

المبحث الثاني: في التجديد السياسي والديني:

أولا: حالة العالم الإسلامي السياسية عند قيام الخلافة العثمانية:

ورثت الدولة العثمانية قيادة العالم الإسلامي بالخلافة مدة أربعة قرون، بعد أن دخل السلطان سليم الأول مصر سنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٦م، وتنازل له عن الخلافة محمد المتوكل آخر خليفة عباسي فيها، وبايعه الأشراف والأمراء والفقهاء في مصر والشام والحجاز، ليصبح أول خليفة مسلم من غير العرب على النسب المشهور، فأجمع المسلمون على صحة الخلافة العثمانية لم ينازعهم أحد فيها طوال مدتهم؛ كما ذكر الشيخ مرعي.

الخلافة العثمانية واشتراط القرشية:

ولم يطعن أحد في شرعيتهم السياسية، حتى وإن تخلف فيهم شرط القرشية التي اشترطها جمهور الفقهاء من أهل السنة، حين تحقق فيهم الشرط الأهم، والقصد الأقوم: وهو إقامة دين الإسلام، والجهاد في سبيل الله، بعد أن فُقد الإمام القرشي القادر على النهوض بها، وتحمل أعبائها، ولا خلاف بين الفقهاء أن شرط القرشية مقيد بالقدرة والكفاءة والقيام بالدين، للحديث الصحيح: (هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين)[1]، وحديث: (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي ما قادكم بكتاب الله)[2]، فإذا فقد ذلك في قريش؛ لعجزهم وفقدهم للعصبية التي تقوم بها السلطة؛ جاز أن يتولى الخلافة غيرهم

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم ٣٥٠٠.

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح من طرق كثيرة وعنده أيضا بلفظ: (ما أقام فيكم كتاب الله)، ومسلم في صحيحه رقم ١٨٣٨ ولفظه: (ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا).

ممن توفرت فيه الشروط، كما قال الرافعي الشافعي: (وأن يكون من قريش، وللإمام [يعني الشافعي] احتمال فيه [يعني أنه ليس شرطا عنده]، وربما نسب إليه منع اشتراطه، والمذهب الأول.. فإن لم يوجد من ولد إسماعيل من يصلح لذلك، يولى رجل من العجم)[١]، وقال الحافظ العراقي: (خامسها: اشتراط كونه قرشيًا ذكره "المنهاج"، وأهمله "الحاوي"، ومحله: عند وجود قرشي مستجمع للشروط، وإلا.. فكناني، فإن لم يوجد.. فرجل من ولد إسماعيل، فإن لم يوجد.. ففي "التهذيب": أنه يولي رجل من العجم)[٢].

وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه: (ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية: القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم من الخلفاء فأسقط شرط القرشية... ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها، وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها.. فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية؛ فرددناه

(١) شرح كتاب العزيز للغزالي ١١/ ٧٢

(٢) تحرير الفتاوى ٣/ ١٧٤

إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية، فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين: أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية)[١].

ولا خلاف بين فقهاء السنة قاطبة بأن شرط القرشية في الخلافة مقيد بثلاثة قيود:

القيد الأول: وجود القرشي القادر على النهوض بأعبائها بالفعل الظاهر -لا بالقوة الكامنة فقط- فإن عُدم القرشي؛ جاز تولية غير القرشي القادر على القيام بالخلافة وأحكامها.

القيد الثاني: أن يقيم القرشي الدين وأحكامه، وأعظمها: الجهاد في سبيل الله؛ كما في الصحيح: (الإمام جنة يقاتل من ورائه)، فإذا لم يقم بذلك؛ كان غيره أولى بالخلافة منه وإن كان أعجميا.

القيد الثالث: أن اشتراط القرشية هو في حال السعة والاختيار، لا الضيق والاضطرار، فإذا تغلب غير القرشي واجتمع الناس عليه؛ حرم الخروج عليه!

وقد رجّح الحافظ ابن حجر العمل بمفهوم اشتراط إقامة قريش للدين وأحكامه، وأنهم إذا لم يفعلوا جاز تولية غيرهم وخرج الأمر منهم، فقال: (الأخبار الواردة في ذلك الدالة على العمل بمفهومه، أو أنهم إذا لم يقيموا الدين يخرج الأمر عنهم) ثم بعد أن أورد تلك الأخبار التي تؤكد خروج الخلافة عن قريش إذا لم يعدلوا ويقيموا الدين (وبه يقوى أن مفهوم حديث: "ما أقاموا الدين"

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٤٣

أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم، ويؤخذ من بقية الأحاديث أن خروجه عنهم إنما يقع بعد إيقاع ما هددوا به من اللعن أولا، وهو الموجب للخذلان، وفساد التدبير، وقد وقع ذلك في صدر الدولة العباسية، ثم التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم، ووجد ذلك في غلبة مواليهم بحيث صاروا معهم كالصبي المحجور عليه يقتنع بلذاته ويباشر الأمور غيره، ثم اشتد الخطب فغلب عليهم الديلم فضايقوهم في كل شيء حتى لم يبق للخليفة إلا الخطبة، واقتسم المتغلبون الممالك في جميع الأقاليم، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة حتى انتزع الأمر منهم في جميع الأقطار، ولم يبق للخليفة إلا مجرد الاسم في بعض الأمصار)[١]!

وقال ابن حجر أيضا في اشتراط الحرية في الخليفة -الذي هو أقوى من شرط القرشية بلا خلاف- شارحا حديث: "وإن ولي عليكم عبد حبشي": (وهذا كله إنما هو فيما يكون بطريق الاختيار، وأما لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة، فإن طاعته تجب إخمادا للفتنة ما لم يأمر بمعصية كما تقدم تقريره)[٢]!

وقال القسطلاني المصري -المتوفي سنة ٩٢٣ هـ- جامعا بين الأخبار التي تنصّ على أن الخلافة في قريش، والأخبار التي تفيد خروجها عنهم في آخر الزمان: (ولا تناقض بين الحديثين؛ لأن هذا إنما يكون إذا لم تقم قريش الدين، فيدال عليهم في آخر الزمان، واستحقاق قريش الخلافة لا يمنع وجودها في غيرهم، فحديث عبدالله في خروج القحطاني حكاية عن الواقع، وحديث معاوية في الاستحقاق، وهو مقيد بإقامة الدين، ومن ثم لما استخف الخلفاء بأمر الدين

(١) "فتح الباري شرح صحيح البخاري" ١٣/ ١١٦ - ١١٧
(٢) "فتح الباري شرح صحيح البخاري" ١٣/ ١٢٢

ضعف أمرهم، وتلاشت أحوالهم، حتى لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد في بعض الأقطار دون أكثرها.

وقول الكرماني، فإن قلت: فما قولك في زماننا حيث ليس الحكومة لقريش؟ قلت: في بلاد المغرب الخلافة فيهم، وكذا في مصر خليفة!

اعترضه العيني بأنه لم يكن في المغرب خليفة، وليس في مصر إلا الاسم، وليس له حل ولا ربط، ثم قال: ولئن سلمنا صحة ما قاله، فيلزم منه تعداد الخلافة، ولا يجوز إلا خليفة واحد؛ لأن الشارع أمر ببيعة الإمام والوفاء ببيعته ثم من نازعه يضرب عنقه)[1]!

وقال الشنقيطي في تفسيره "أضواء البيان" عن أهلية الخليفة: (فاشتراط كونه قرشيا هو الحق، ولكن النصوص الشرعية دلّت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة مشروط بإقامتهم الدين وإطاعتهم لله ورسوله، فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم)[2].

وهذا ما وقع حين عجز الخليفة العباسي والسلطان المملوكي في القاهرة عن القيام بواجبات الخلافة والرئاسة العامة ومسئولياتها، وفقدا العصبية والشوكة والقدرة، حتى تحالف قنصوه الغوري وطومان باي -آخر المماليك بمصر- مع إسماعيل الصفوي الذي تحالف مع البرتغاليين وهددوا الخليج وجزيرة العرب والحرمين، وكاد العالم الإسلامي يسقط أمام الحملات الصليبية الأسبانية والبرتغالية، فاستنجد المسلمون والعرب في المغرب والمشرق بالسلطان سليم الأول، فتوجه بجيوشه إلى الشام ثم مصر، وتولى الخلافة

---

(١) "إرشاد الساري شرح صحيح البخاري" ٦/ ٦

(٢) "أضواء البيان" ١/ ٢٤

وتنازل له الخليفة العباسي بعد أن فقد أهلية الإمامة وهي القدرة على القيادة وحماية الأمة؛ كما في الصحيح: (إنما الإمام جُنّة يُقاتَل من ورائه)، ولهذا أجمع فقهاء عصرهم على جواز خلافتهم لعدم وجود قرشي صالح بالفعل آنذاك لتوليها، ولأهليتهم وكفاءتهم واجتماع الأمة عليهم؛ كما قال الإمام أحمد حين سئل عن حديث: (من مات وليس في عنقه بيعة) فأجاب: (أتدري من الإمام؟ الذي يقول المسلمون كلهم هذا هو الإمام)!

وكذا عززوا شرعيتهم بالقيام بالجهاد بأنفسهم، حتى لا يكاد يعرف خليفة عثماني لم يجاهد بنفسه ويقود الجيوش، ولا يكون الإمام عند أهل السنة قاطبة إماما أصلا إلا بالجهاد!

كما قال العلامة عبد الرحمن بن حسن: (بأي كتاب، أم بآية حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام متبع! هذا من الفرية في الدين، والعدول عن سبيل المؤمنين؛ والأدلة على إبطال هذا القول أشهر من أن تذكر، من ذلك عموم الأمر بالجهاد، والترغيب فيه، والوعيد في تركه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]، وقال في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ الآية [سورة الحج: ٤٠].

وكل من قام بالجهاد في سبيل الله، فقد أطاع الله وأدى ما فرضه الله، ولا يكون الإمام إماما إلا بالجهاد، لا أنه لا يكون جهاد إلا بإمام...

ومعلوم: أن الدين لا يقوم إلا بالجهاد، ولهذا أمر النبي ﷺ بالجهاد مع كل بر وفاجر، تفويتا لأدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، وارتكابا لأخف الضررين لدفع أعلاهما؛ فإن ما يدفع بالجهاد من فساد الدين، أعظم من فجور

الفاجر؛ لأن بالجهاد يظهر الدين ويقوى العمل به وبأحكامه، ويندفع الشرك وأهله حتى تكون الغلبة للمسلمين، والظهور لهم على الكافرين)[1]!

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على اختلاف مذاهبهم وأعصارهم وأمصارهم بأن السلطنة ثم الخلافة العثمانية قد ملأت الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا، وأنها أحيت معالم الدين بالجهاد بعد أن كادت تطمس، كما قال مؤرخ مكة قطب الدين الحنفي - المولود ٩١٩هـ والمتوفى ٩٩٠هـ-: (فلما أراد الله تعالى بأهل الأرض إحسانا وإفضالا، وظهور العدل والفضل بهم إكراما لهم وإجلالا، وقضى بإطفاء نور الظلم والفتن، ورفع مواد الفساد والظلم والمحن، وتأييد دين الإسلام، وتقوية السنة السنية، وإقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام أطلق في أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية، وأجلس وأسطع من أوج سماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية)[2].

وبعد أن ذكر محمد الفاتح قال عن ابنه بايزيد: (وكان السلطان بايزيد -رحمه الله تعالى، وجعل الجنة مثواه- من المجاهدين في الله الذين لا يزالون يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، منصورين على من شق منهم لعصاتهم وعاداهم، يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فما زال غازيا في سبيل الله مظفرا على أعداء الله إلى أن صار بيضة الإسلام بسيوفه محمية محفوظة، وحركاته وسكناته بعين عناية الله وإعانته منظورة ملحوظة، وكانت أيامه من أحسن الأيام، وأكثرها أمنة وراحة، وجمع

(١) "الدرر السنية" ٨/ ١٩٩

(٢) "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ص ٢٣٦

قلوب الأنام، وكانت به كلمة الإسلام مجموعة، وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة، وتولى الله على يديه إعزاز دينه، وإذلال طواغيت الشرك وشياطينه.

وكان -مع ذلك- محبا لفعل الخيرات، مثابرا على بذل الإنعام والصدقات، محبا للعلماء، والمشايخ، والأولياء من أهل الكرامات بحيث دخل الخلوة، وجلس الأربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين، وبني الجوامع، والمدارس، والعمارات، ودار الضيافات، والنكايا، والزوايات، والخانقات، ودار الشفاء للمرضى، والحمامات، والحبور)[١].

مواجهة الخلافة العثمانية للدولة الصفوية والحملات الصليبية:

وقد تأهل بعد بايزيد بن محمد الفاتح، ابنه سليم الأول للخلافة، واستحق القيادة، بتصديه لخطر الحملات الصليبية غربا وجنوبا، ولخطر الدولة الصفوية شرقا، ووحد الأمة فاجتمعت عليه، وكان يقول: (أشد ما يحزّ في نفسي هذه الفرقة بين المسلمين، بل تقض مضجعي حتى في رمسي، ولا حل أمامنا إلا الاتحاد والتعاون حتى تقوي شوكتنا، وإن حادت هذه الأمة عن الاتحاد فهو لعمري الذلة والهوان)[٢].

وكان السلطان سليم عالما أخذ حظه من كل علم وفن، كما وصفه المؤرخ الفقيه الوزير لطفي باشا بقوله: (وكان السلطان سليم أصغر أبناء السلطان بايزيد، وكان دقيق النظر، أديبا، عالما باللطائف، وله في كل الفنون باع، ولا يوجد سلطان مثله في القيادة والأعمال التي يقوم بها منذ عصر الإسكندر)[٣]!

(١) "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ص ٢٧٣

(٢) انظر الوثائق - كوندز ص ٥٥٩

(٣) "تواريخ آل عثمان" ص ٨٠

وقد هزم سليم الأول شاه إيران إسماعيل الصفوي في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، كما هزم حلفاءه مماليك مصر في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م.

قال القطب الحنفي عن فتنة إسماعيل الصفوي: (وكانوا يعتقدون فيه الألوهية، ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا ينهزم، إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة، حتى وصلت أخباره إلى السلطان سليم خان -عليه الرحمة والرضوان- فتحرك فيه قوة العصبة العصيبة وأقدم على نصر السنة الشريفة السنية، وعد هذا القتال من أعظم الجهاد وقصد أن يمحو من العالم هذه الفتنة والفساد، وينصر مذهب أهل السنة الحنيفية على مذهب أهل البدع والإلحاد، ويأبى الله إلا ما أراد، فتهيأ السلطان سليم بخيله ورجله وعساكره المنصورة ورجله وسافر لقتاله، وأقدم على جلاده وجداله؛ وهو بحر الجيش العرمرم، ويصول بسيف عزمه، ويقدم ويتقدم إلى أن تلاقى العسكران في قرب تبريز ، ورتب السلطان سليم عسكره، وتنزل من عند الله الفتح القريب والنصر العزيز)[1].

وقال ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب": (وقال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه "نزهة الناظرين": وفي أيامه تزايد ظهور شأن إسماعيل شاه، واستولى على سائر ملوك العجم، وملك خراسان، وأذربيجان، وتبريز، وبغداد، وعراق العجم، وقهر ملوكهم، وقتل عساكرهم، بحيث قتل ما يزيد على ألف ألف، وكان عسكره يسجدون له ويأتمرون بأمره، وكاد يدعي الربوبية، وقتل العلماء، وأحرق كتبهم ومصاحفهم، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة وأخرج عظامهم

(١) الإعلام ص ٢٨٥

وأحرقها، وكان إذا قتل أميرا أباح زوجته وأمواله لشخص آخر فلما بلغ السلطان سليم ذلك تحركت همته لقتاله، وعدّ ذلك من أفضل الجهاد، فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرار، وكانت وقعة عظيمة، فانهزم جيش إسماعيل شاه، واستولى سليم على خيامه وسائر ما فيها، وأعطى الرعية الأمان... وفي أيامه كانت وقعة الغوري، وذلك أن السلطان سليم لما رجع من غزو إسماعيل شاه تفحص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه، فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه الغوري، فإنه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا، فلما تحقق سليم ذلك، صمم على قتال الغوري، أولا، ثم بعده يتوجه لقتال إسماعيل شاه ثانيا، فتوجه بعسكره إلى جهة حلب سنة اثنتين وعشرين كما تقدم، فخرج الغوري بعساكر عظيمة لقتاله، ووقع المصاف بمرج دابق شمالي حلب، ورمى عسكر سليم عسكر الغوري بالبندق، ولم يكن في عسكر الغوري شيء منه، فوقعت الهزيمة على عسكر الغوري)[1].

وقال العصامي المكي في تاريخه: (وسليم هذا هو أول من ملك مصر من آل عثمان سلاطين الزمان، أدام الله تعالى دولتهم إلى يوم القيامة، ومد على ملكهم فسطاط الإجلال والكرامة، فإنهم ظل الله تعالى الممدود على الأرض، والقائمون بشعائر الإسلام من السنة والفرض، كان عظيم الهيبة، سعيد الحركة، كثير المبرات، دائم الأسفار، مستيقظا للأمور الجليلة، نظره إلى معالي الأمور، لو انتظم في سلكه كل لحظة أعظم الأمصار، هو عنده في غاية الاحتقار والاستصغار، ويكفيه فتح مصر أم الدنيا، طاب ثراه في الجنان العليا، ولد

---

(١) "شذرات الذهب" ١٠/ ١٩٩

السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته بنزوله له عن الملك لأمر اقتضاه الحال، وأما سبب ركوبه ومقاتلته لإسماعيل شاه، فإن إسماعيل هذا طغى وبغى، وصار يقتل من ظفر به قتلا ذريعا، ولا يمسك شيئا من الخزائن بل يفرقها في الحال على عساكره إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وخراسان، وكان يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقتل ألف ألف أو يزيدون، بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية مقدار ما قتله شاه إسماعيل هذا، وهو من ملوك العجم الموسومين بقزل باش، وكان ركوبه عليه سنة عشرين وتسعمائة فحاربهم سليم الأول الحرب الشديد، وانتصر عليهم، وملك غالب بلادهم، مع مزيد قوتهم وعزتهم، وكان قبل الحرب كتب إليهم كتابا فلم يعبئوا به، ثم كتب إليهم كتابا آخر أغلظ عليهم فيه، ووسمهم بالخوف والجبن عن اللقاء! فاستنهضهم به ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وصورة الكتاب الأول:

"ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام، وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفرك، وفسادك وضلالك وعنادك؛ لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسدة، والأحوال الفظيعة، والأقوال القبيحة الشنيعة، ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية، والرايات الدينية، وسرت إلى بلادك لإمحاء رسمك ووجودك، واضمحلال اسمك وجنودك، لكن لما كان من سنة الدين وطريق الحق المبين الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام قبل الإلجاء بالسيف، حين لا يفيد أين ولا كيف، أرسلت إليك مخبرا

بأنك إن أخلصت التوبة، وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة، فقد فزت بالمقصد الأسنى، ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى، وإن لم ترجع فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، ورايات الظفر المبين، عملا بقوله تعالى ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ لترمى بالعذاب مجاهرة، والنكال مباهرة، والسلام على من اتبع الهدى".

فلم يرتدع لذلك فأرسل إليه بكتاب ثان بديع اللفظ والمعاني، فلم يرتدع لفرط العتو والطغيان؛ فسار إليه السلطان سليم فتلاقيا في جالديران بقرب تبريز، وأراد أن يقيم بتبريز لأخذ إقليم العجم جميعه فما أمكنه..

ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل وتأخرها عنه وقت الحاجة، فأخبر أن سبب ذلك أن سلطان مصر الغوري قانصوه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات بحيث كان السلطان الغوري يتهم بالرفض وعقيدته سبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنهم صمم على قتال الغوري أولا وبعد استيلائه عليه وعلى بلاده يتوجه على شاه إسماعيل ثانيا، فلما استقر ركابه في تخت ملكه تهيأ لأخذ مصر وإزالة دولة الشراكسة عنها، وتوجه إلى ناحيته من جهة حلب فالتقيا بمرج دابق كما تقدم ذكر ذلك مفصلا، كانت مدته ثمان سنين وأياما، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله برحمته وأسكنه بحابيح جنته)[1].

وقد كان الغوري سلطانا ظالما جائرا ضاقت الرعية من جوره وجور نوابه وولاته في مصر والشام، وتمنوا زوال ملكه، وقال له أمراء جيوشه بأن أهل

(١) "السمط العوالي" ٤/ ٨٣

حلب بسبب الظلم صاروا يميلون إلى سليم العثماني وعدله، وقال ابن إياس عنه بعد قتله: (اعجبوا للأشرف الغوري الذي... مذ تناهى ظلمه في القاهرة زال عنه ملكه في ساعة... خسر الدنيا إذا والآخرة)، وقال عنه وعن ولاته: (ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم، وسلط عليهم ابن عثمان)[١].

وقال المؤرخ المصري ابن أبي السرور البكري عن سبب قتال السلطان سليم للغوري بعد أن تواطأ مع إسماعيل الصفوي: (فبدأ بقتال شاه إسماعيل فكسره وهزمه، وإسماعيل المذكور هو أول من أظهر الرفض في بلاد العجم، ووضع التاج الأحمر على رؤوس عسكره، فسموا "قزلباشه"، وكان بينه وبين السلطان الغوري مصافاة ومحبة، فلأجل ذلك أرسل الغوري إلى جهات حلب، يمنع القوافل عن الذهاب إلى عسكر مولانا السلطان سليم بالميرة، محبة في شاه إسماعيل، فحين رجوع مولانا السلطان سليم إلى سرير مملكته، بعد أخذ شاه إسماعيل، سأل عن سبب تأخير القوافل، فأخبر أن سبب ذلك السلطان الغوري، فغضب غاية الغضب، وتحرك على الغوري)[٢].

وقال البكري أيضا: (وكانت مدة سلطنة الغوري خمسة عشر سنة، وتسعة أشهر، وعشرين يوما، وأما ما ذكره ابن إياس في تاريخه، فكانت الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك...

(١) انظر التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ص ١٤، وبدائع الدهور لابن إياس ٣/ ٤٧

(٢) التحفة البهية ١/ ٣٢

وانتهى الحال على ما قدره الله تعالى، وله الحمد والنعمة على إزالة الدولة الظالمة، ومجيء الدولة العادلة، فإن جدي رضي الله تعالى عنه كان يقول: ما معناه زوال العدل بزوال دولة بني عثمان، جعل الله الملك فيهم...

وهذا جميعه بما فعل [الغوري] هو وأمراؤه بالمسلمين وعسكره، فإنهم جاروا وتركوا النظر في مصالح المسلمين، والعمل بالشرع الشريف، والقانون المنيف، فرد الله عليهم أعمالهم، وسلط الله تعالى عليهم مولانا السلطان سليم خان)[1].

كما أرسل أمراء الأكراد وعلماؤهم في المشرق الرسائل والوفود يستنجدون بالسلطان سليم الأول لإنقاذهم من الخطر الصفوي الإيراني الذي هدد وجودهم ودينهم، كما في رسالة مع الملا إدريس البتليسي سنة ٩٢١هـ؛ وجاء فيها (نبايع سلطان الإسلام بكل قلوبنا، ونتبرأ مما أقدم عليه القيزيل باشية الملاحدة، نكتب هذه العريضة من ممالك كردستان التي تبعد مسافة شهر تقريبا، وقد أزلنا جميع البدع والضلالات لتي نشرها القيزيل باشية [الصفوي] وتمسكنا بمذهب أهل السنة والمذهب الشافعي على وجه الحصر، وقد تشرفنا باسم سلطان المسلمين، وذكرنا مناقب الخلفاء الراشدين الأربعة في المنابر... وانتظرنا قدوم الموكب السلطاني إلى ديارنا بفارغ الصبر فضلا عن بذلنا جهودا كبيرة في أداء فريضة الجهاد.

وقد بلغ إلى مسامعنا أن سلطان المسلمين وعلاء الدولة في طريقه إلى العودة، وقد اتفق رأينا على إرسال مولانا الشيخ إدريس البتليسي ليمثل بين أيديكم

(١) التحفة البهية ١/ ٥٩

والذي سبق أن اتصل بكم. ومطالبنا من جلالتكم هي كالآتي: أن يمدنا جلالتكم بالعون والمدد.

واعلم يا جلالة السلطان أن بلادنا ومساكننا قريبة ومجاورة لبلاد القيزيل باشية بل متداخلة معها، وهؤلاء الملاحدة دأبوا منذ سنوات طويلة على تقويض الأمن في ربوع بلادنا، ومازالوا يقاتلوننا منذ أربعة عشر سنة. وما كتابتنا لهذه العريضة سوى عربون محبة لجلالتكم وكلنا أمل أن تمدوا يد العون إلى هؤلاء المسلمين لإنقاذهم من نير ظلم تلك الطائفة الظالمة. وبدون عونكم لا نستطيع لوحدنا أن نجابههم.

واعلم يا جلالة السلطان أن الأكراد يتألفون من طوائف وأقوام وعشائر غير متفقة فيما بينها، ولكننا نحن الأكراد نتفق في شيء واحد وهو إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبنبيه ﷺ. أما اتفاقنا في باقي الأمور الأخرى فغير ممكن، وهكذا جرت سنة الله فينا، ولكن كلنا أمل أن يأتينا المدد من جلالتكم الذي بواسطته يتحقق خلاص عراق العرب والعجم وأذربيجان ويتم قطع أيدي أولئك الكفار، ويتحقق خلاص "آمد المحروسة" بصورة خاصة لأنهم يعتبرونها مفتاحا لفتح الممالك الإيرانية وعاصمة لسلطانهم بأذربيجان، وهذه المدينة مازالت تنوء تحت حصارهم منذ ما يقارب السنة. ويأمل أهلنا أن يقوم سلطان الإسلام بتخليصهم من شر هؤلاء القيزيل باشية الذين قتلوا أكثر من خمسين ألف شخص، وإذا قام السلطان بمد يد العون إلينا هذه السنة فسوف ينال ثوابا عظيما في الآخرة وفوائد عظيمة يعم خيرها جميع المسلمين)[1].

(١) انظر الوثائق - كوندز ص ٥٦٠.

فاستطاع السلطان سليم -بتوحيده الشام ومصر وجزيرة العرب واليمن وتونس والجزائر، وتحقيق العدل والإصلاح السياسي والمالي الداخلي- التفرغ للتصدي للحملات الصليبية جنوبا وشرقا وغربا؛ فاستحق بذلك الخلافة، **بعد أن استنجد به العرب في المغرب -حين عجز المماليك في مصر عن حماية الحرمين والجزيرة العربية من خطر الحملات الصليبية البحرية الأسبانية والبرتغالية، التي هددت سواحل المغرب والجزائر حتى وصلت البحر الأحمر والخليج العربي- فأرسل العرب الرسائل والوفود من الأشراف والعلماء إلى السلطان سليم يستغيثون به قبل أن يستولي النصارى على أرضهم بعد أخذهم للأندلس**؛ كما جاء في رسالة أهل الجزائر وتونس سنة ٩٢٥ هـ؛ وفيها:

(المكتوب الوارد من قاضي الجزائر وخطيبها وفقهائها وأئمتها وتجارها وأمنائها وعامة أهلها.

بعد الدعاء لمقام السلطان العالي بالنصر والسعادة والهداية إلى العمل الصالح أكتب إليكم عن الأحداث الواقعة في مدينة الجزائر..

إن مقامكم العظيم له من الحظوة القصوى والاحترام الرفيع عندنا، خصوصا بعدما ذاع صيتكم وذكرت أيامكم، ونحن نشعر بالفخر والاعتزاز معلنين ولاءنا لكم انطلاقا من ثقتنا العالية بكم، وهذا هو شعورنا سواء كان ظاهرا أم باطنا، وننتظر أوامركم السامية لنا، وكونوا مطمئنين أننا لا نشعر تجاهكم إلا بالتوقير والتعظيم، ومتمنين لمقامكم الشريف العزة والسؤدد، وموقفنا هذا نابع من عاداتنا وتقاليدنا في تبجيل كافة المؤمنين من أولياء الله المؤيدين بنصره والمظفرين في إلحاق الهزيمة بالكفار كما وردت لنا الأنباء بذلك، ونفصل إليكم الوضع على النحو التالي:

بعد أن استولت الطائفة الطاغية على الأندلس انتقل شرها إلى قلعة وهران ومن ثم خططت للاستيلاء على سائر البلاد، وحصلت على موطئ قدم في بجاية وطرابلس، أما مدينتنا الجزائر فقد بقيت بعيدة عن دينهم، ولكنها أصبحت كالغريب وسط هؤلاء، وضيق علينا أهل الكفر من كل جانب، وما كان منا إلا أن استنفرنا كافة جهودنا ولجأنا إلى الله الناصر المعين، ولكننا قمنا بدراسة الموقف من عدة وجوه خصوصا بعد أن طلبت الطائفة الطاغية منا أن ندخل تحت ذمتها، وقد اضطررنا أن نقبل الصلح مع الكفار بعد اشتداد وطأة المحنة علينا وخوفنا على أنفسنا وعلى حريمنا وأولادنا من السبي وأموالنا من السلب، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

بعد هذه الضائقة جاء الكفار واستولوا على وهران وبجاية وطرابلس، ومن ثم قصدوا إلينا بسفنهم للاستيلاء على مدينتنا وإيقاعنا في حبائل أسرهم وتفريق شملنا، إلا أن قدوم أوروج بك مع نفر من المجاهدين في سبيل الله وحماة أهل الدين والمسلمين غيّر الأمر، وقد فرحنا بقدومه واستقبلناه بكل إكرام، خصوصا أن هذا المدد قد حررنا من الخوف بفضل الله تعالى، وكان المشار إليه أوروج بك قد قدم على باجة إحدى المدن التونسية قبل قدومه إلينا، وقصده من ذلك تحريرها من دنس الكفار ودعم إخواننا المسلمين فيها، وقام بمحاصرة قلعتها بمعاونة المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي، وقاما بتوجيه ضربات ساحقة للكفار عن طريق هدم القلعة وبث الخوف في صفوف الأعداء، وهكذا استطاعا الدخول إلى القلعة على مرأى من الكفار، وكانت هناك مجموعة من المجاهدين استطاعت أن تسيطر على أحد

أبراج القلعة وهكذا دخلوها عنوة، وقد فر بعض الكفار، والبعض الآخر قتل في انتظار نار جهنم التي أعدها الله للكفار. وقد قاتل المجاهدون ضد الكفار قتالا عظيمة، وأبدوا مشاهد مثيرة من البسالة والإقدام ليلا ونهارا من شروق الشمس حتى غروبها. وقد قدم إلينا المشار إليه أوروج بك في قلة من أصحابه، ليكونوا عونا لنا في قتالنا ضد أعداء الدين، وهذا هو السبب بالذات الذي حررنا من عقدة الخوف من الأعداء.

وقد نال المشار إليه أوروج بك مرتبة الشهادة في معركة تلمسان، وحل محله في قيادة المجاهدين شقيقه أبو التقى خير الدين **[المشهور بربروس]** وكان خير خلف؛ لأننا لم نعهده إلا متبعا للشرع الشريف وسنة المصطفى ﷺ، ولم يثبت عليه إلا التعظيم لمقامكم ودأبه على الجهاد لإعلاء كلمة الله، وبذلك نال محبة الجميع واحترامهم، وكيف لا ينالها وهو أتى بقلب سليم ونية صادقة للجهاد في سبيل الله، مقدما عليه بكل بسالة وإقدام، مضحيا براحته منفذا لأمر الله تعالى بالجهاد ومنطلقا من عقيدة إيمانية كأنها كوكب وهاج..

وأود أن أعلمكم أن خير الدين قد نوى زيارتكم، إلا أن أعيان البلدة المذكورة قد رجوه بالتخلي عن فكرة الزيارة حاليا؛ لعدم زوال خطر النصارى الكفار، وبدلا منه اتفقنا على إرسال العالم الفقيه سيد أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد وأرسلناه إلى حضرتكم فعلا، ويحمل منا رسالة ولاء لمقامكم الرفيع، واعلم يا سيدي أن إقليم بجاية وأهالي الشرق والغرب في خدمتكم، وأن ما حدث في هذه الديار قد تم شرحه لكم في هذه الرسالة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[١].

وكان سليم الأول كلما دخل بلدا رفع عن أهله الحيف والظلم، وأقام فيهم العدل، وأكرم أشرافهم، وأسعف ضعفاءهم وفقراءهم، ونظّم دواوين العطاء والنفقات، وجمع الله عليه قلوب المسلمين، كما ذكر القطب الحنفي دخوله حلب والشام وكيف عامل أهلها (فقابلهم بالإجلال والإكرام، وأفرغ على أهلهم خلع اللطف والأنعام، وتصدق بأنواع الصدقات الجلية على الخاص والعام، وحضر صلاة الجمعة، وخطب الخطيب باسمه الشريف ودعا له ولآبائه وأسلافه، وبالغ في المدح والتعريف، وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه "خادم الحرمين الشريفين"، سجد شكرا لله ثم قال: الحمد لله الذي يسر لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين، وأضمر خيرا جميلا وإحسانا جزيلا لأهل الحرمين الشريفين، وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر، فأحسن إليه إحسانا كثيرا بعد ذلك، وأقام بحلب أياما يسيرة، وهو يمهد الملك، ويجري أحكام العدل، ويحسن إلى العرب، ثم ارتحل بالجيش المنصور إلى الشام، فخرج أهل الشام إلى لقائه، وطلبوا منه الأمن والأمان، واللطف والرحمة والاطمئنان، فأجابهم إلى ما سألوه، وبسط لهم ما طلبوه، وأملوه، فقبلوا الأرض بين يديه، وبالغوا بالدعاء بدوام دولته والثناء عليه، فخلع على كل من يستحق التشريف خلع الرضا والإكرام، وألبسهم التشاريف الفاخرة كل بحسب حاله واستحقاقه. ودخل إلى الشام بموكبه الكريم، وأقام به لتمهيد أمور المملكة برأيه الشريف القويم، وخطب له

(١) انظر الوثائق - أحمد آق كوندز ص ١٣٤

الخطباء، فخلع عليهم وأكرمهم وأحسن إليهم، وقابل الناس بسن ضاحك ووجه متهلل مسرورا، وجبينا أغر يملأ الأرجاء ضياء ونورا..

وصار كلما مر ببلدة وقرية أو قصبة في طريقة أحسن إلى الرعايا، ونظر بعين المعدلة والإحسان إلى البرايا، وأزال عن الضعفاء ظلم الظالمين، ونشر العدل في العالمين...

ثم جمع طائفة من الفقراء -بمكة- وأعطى لكل نفر ثلاثة دنانير ذهب متفرقة، وكتب أسماءهم في الدفتر، ثم كتب بيوت فقهاء مكة المشرفة، وكتب أسماء من في البيوت، وعين لكل نفر منهم ثلاثة دنانير ذهبا، وألحق ذلك في دفتر الومية، وسماها البيوت؛ وهي باقية إلى الآن، ثم كثر عليه الفقراء، فجمعهم في حوش كبير، وأعطى لكل واحد دينارين ذهب، وسماهم العامة، وكتب أسماءهم وألحقهم بالدفتر، وهذا الترتيب كله باق إلى الآن، وثوابه لمن أسس هذا الخيرات؛ جاريا في صحائف حسناته إلى يوم القيامة...

ثم أحسن إليهم ورتب لهم الصر في دفتر الصدقات، ثم وصل من بندر السويس إلى بندر جدة بحرا سقايين مسماريه فيها حبوب للصدقات السلطانية لأهل الحرمين الشريفين، جهزها الأمير خير بك نائب السلطنة الشريف بمصر بأمر السلطان سليم، وهي سبعة آلاف أردب حب فيها؛ ألفي أردب لأهل المدينة الشريفة وخمسة آلاف أردب لأهل مكة، ووصل الأمر الشريف السلطاني أن يوزع ذلك الأمير مصلح الدين، فجلس في الحرم الشريف، وطلب قاضي القضاة شيخ الإسلام؛ مولانا القاضي صلاح الدين بن ظهرة الشافعي، والقضاة

الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي، ونائب جده، الأمير قاسم الشرواني، وبقية الفقهاء الأعيان.

وأمر شيخ الإسلام الصلاحي أن يباشر كتابه دفتر ذلك ورقم أسامي الناس الشيخ رضي الدين الحناووي الشاهد العدل الكبير، والشهود العدول، في باب السلام المكي، فكتب كل محلة، وكتب ما في كل بيت في أعداد الأنفار: رجالا ونساء، وأطفالا وخدمة، ما عدا التجار والسوقة والعسكر، فكانوا اثني عشر ألف نفر، فخص كل نفر ست رباعي بكيل الربع الكبير، الذي هو أربع كيل عن أربع وعشرين قدحا بالكيل المصري المستمر الآن، وأن يدفع ذلك لكل نفر دينار، فوزع ذلك جميعه على هذا الوجه، ثم جعل لكل واحد من القضاة الأربع ثلاث أرادب.

فزيد في أسماء بعض البيوت بحسب الاغتنا بشأن كبير البيت، وهذا أول صدقات الحب الشريف السلطاني، واستمر إلى الآن وتزايد على ما كان، بحيث كان سائر فقهاء مكة والمجاورين يتعيشون بوصول هذا الحب إليهم.

إما في جميع السنة أو أكثرها، فلو فقدوا ذلك والعياذ بالله تعالى، هلكوا)[1].

وقد كان سليم الأول مع سطوته وشدة بأسه وحدته، وقافا عند حكم الشرع، لا يتجاوز ما يصدر عن المفتي، كما هو شأن خلفاء بني عثمان، قال ابن العماد الحنبلي عن المفتي علاء الدين الجمالي الحنفي:(وكان يصرف جميع أوقاته في التلاوة، والعبادة، والتدريس، والفتوى، ويصلي الخمس في الجماعة، وكان كريم الأخلاق لا يذكر أحدا بسوء.

---

(١) الإعلام ص ٢٨٧

وكان يغلق باب داره ويقعد في غرفة له فتلقى إليه رقاع الفتاوى فيكتب عليها ثم يدليها، يفعل ذلك لئلا يرى الناس فيميز بينهم في الفتوى.

وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويصدع بالحق ويواجه بذلك السلطان فمن دونه، حتى إن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزينة، فذهب إليه إلى الديوان ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان إلا لأمر عظيم! فلما دخل تحيروا وقالوا: أي شيء دعا المولى إلى المجيء، فقال: أريد أن ألاقي السلطان فلي معه كلام، فعرضوا أمره على السلطان فأمر بدخوله وحده، فدخل وسلم وجلس، وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعا، فغضب السلطان سليم -وكان صاحب حدة- وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال: بل أتعرض لأمر آخرتك وهو من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة غضبه وعفا عن الكل، ثم تحدث معه ساعة، ثم سأله في إعادة مناصبهم فأعادها لهم.

وحكي أن السلطان سليم أرسل إليه مرة أمرا بأن يكون قاضي العسكر، وقال له: جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق فكتب إليه: وصل إليّ كتابك- سلمك الله تعالى وأبقاك- وأمرتني بالقضاء، وإني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهدا أن لا تصدر عني لفظة حكمت، فأحبه السلطان محبة عظيمة)[1].

---

(١) "شذرات الذهب" ١٠/ ٢٥٧

وقد امتد سلطان الخلافة العثمانية على عامة دار الإسلام شرقا وغربا، وكان كثير من أمراء بلدانها من آل البيت كما أشراف الحجاز والمغرب الأقصى، فكانوا يدينون لهم بالطاعة، ويخاطبونهم باسم الخلافة، وقد أكرم السلطان سليم الأول آل البيت النبوي غاية الإكرام، وولّى أشراف مكة كل السلطات في إمارة مكة، كما قال البكري المصري في تاريخه: (وفي يوم الخميس رابعه خرج إلى السفر السيد الشريف بن بركات أمير مكة، فتوجه إلى وطاقه بالريدانية، وكان له موكب حافل، وخلع عليه السلطان قفطانا، وخرج قدامه النفطية، وخرج قدامه غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة .

وكتب مولانا السلطان سليم للسيد الشريف بركات أمير مكة: بأن يكون عوضا عن الباشا الذي كان بها، وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة، وأضاف إليه نظر الحسبة في مكة، وأنصفه غاية الإنصاف، ومولانا السلطان سليم، رحمه الله هو أول من جعل التصرف للسادة الأشراف خالصة، من غير مشارك لهم في ذلك، فتزايدت عظمة السيد بركات إلى الغاية، وأكرم ولده غاية الإكرام)[١].

وقد بلغ سلطان سليم الأول فاس ومراكش بعد فتح تونس والجزائر، وحمايتهما من الخطر الأوربي، وبقي هذا النفوذ إلى ما بعد عصر حفيده سليم الثاني بن سليمان القانوني، كما في رسالته سنة ١٥٦٧م إلى الأمير السعدي عبدالمؤمن بن مولاي الشريف أحمد، بعدم موافقة السلطان على تعيينه حاكمًا على فاس بدلًا من أخيه الحاكم عبدالله الغالب؛ لأنه تم تعيينه من

(١) "التحفة البهية" ص ١٠٠.

قبل والده السلطان سليمان القانوني، وفيها: (هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني ما زال نافذًا ومطاعًا في المشارق والمغارب أرسلناه إلى العلماء الفضلاء والصلحاء وجميع الأمراء والكبراء وأهالي الإسلام بإقليم فاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة)[1].

وكان والده سليمان القانوني قد أرسل جيشه إلى تلمسان واستولى عليها سنة ١٥٥١م. ثم وقع خلاف بين سلطان فاس عبدالله السعدي وأخويه عبدالمؤمن السعدي وعبدالملك، فذهبا إلى إسطنبول وطلبا من السلطان سليمان القانوني دعمهما، إلا أن السلطان رفض ذلك ودعا إلى المصالحة بينهم، وبقي عبدالملك في اسطنبول.

وبعد وفاة عبدالله سنة ١٥٧٤م، وتولّي ابنه محمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي وتحالفه مع اسبانيا والبرتغال؛ ولّى السلطان مراد الثالث عمه عبدالملك السعدي على فاس، وأمر والي الجزائر العثماني رمضان باشا بتجهيز حملة عسكرية إلى فاس لدعم عبدالملك ونجحت الحملة سنة ١٥٧٥م، وبسط عبدالملك سيطرته، وضرب السكة [العملة] باسم مراد الثالث وخطب له على المنابر في المغرب الأقصى، واستنجد المتوكل بملك البرتغال سيباستيان وتنازل له عن موانئ المغرب مقابل إعانته على استعادة الحكم، فتوجه سيباستيان بجيوشه وحملته الصليبية ومعه المتوكل، فالتقى الجمعان في معركة وادي المخازن سنة ١٥٧٨م، فتم سحق الجيش البرتغالي، وقتل الملك سيباستيان في

(١) "السلطان الشريف" لنبيل مولين، "الدولة العثمانية والمغرب (إشكالية الصراع والتحالف)" لمحمد علي داهش ص ١٤١.

المعركة، وغرق المتوكل في البحر، وتوفي عبدالملك السعدي على فراشه وكان مريضا، وتولى بعده أخوه أحمد المنصور الذي كان لاجئا معه في إسطنبول سنة ١٥٧٤م، وشارك أخاه عبدالملك في حروبه حتى وفاته، وقد استمرت ولايته حتى وفاته سنة ١٦٠٣م، وظل تابعا للخلافة العثمانية، التي استطاعت حماية المغرب الأدنى والأقصى من الخطر البرتغالي والأسباني والفرنسي.



ثانيا: حالة العالم الإسلامي الدينية عند ظهور الخلافة العثمانية:

لم تكن حال العالم الإسلامي الدينية أحسن منها في حاله السياسية، فقد شاعت الانحرافات الدينية في آخر العهد المملوكي بمصر والشام والحجاز، وكادت الصفوية تسيطر على المشرق الإسلامي بعقائدها الباطنية الوثنية، فكان لقيام الخلافة العثمانية بالجهاد في سبيل الله أكبر الأثر في بعث الروح الإيمانية والحمية الدينية من جديد، فواكبت النهضة السياسية نهضة إصلاحية دينية، وظهر الأئمة المصلحون، والفقهاء المجددون، في هذه الفترة في كل أقاليم الخلافة وخارجها، يجددون من معالم الدين ما اندرس منه، ويحيون فرائضه وسننه، حتى ظهر كل أئمة المذاهب الأربعة المتأخرين من المحررين للمذاهب والمحققين لها في عهدها وفي ظل خلافتها!

التجديد والإصلاح الديني في ظل الدولة العثمانية:

وقد كان للخلافة العثمانية نفسها الأثر الأبرز في بعث هذا الإصلاح الديني، وكان للسلطان محمد الفاتح دور كبير في النهضة العلمية حيث بنى المدارس الثمان المشهورة في القسطنطينية بعد فتحها؛ كما قال عنه الإمام الشوكاني أنه (ولد سنة ست وثلاثين وثمان مائة -٨٣٦هـ-، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقرر قواعده، ومهد قوانينه، وهو الذي افتتح القسطنطينية الكبرى، وساق إليها السفن برا وبحرا، وكان فتحها في يوم الأربعاء من جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ واستقر بها هو ومن بعده من السلاطين، وبنى بها المدارس الثمان المشهورة، وكان مائلا إلى العلماء، مقربا لهم، يخلطهم بنفسه، ويأخذ عنهم في كل علم، ويحسن إليهم ويستجلبهم من الأقطار النائية، ويراسلهم،

ويفرح إذا دخل إلى مملكته واحد منهم، وله معهم أخبار مبسوطة في "الشقائق النعمانية" عند ذكر علماء دولته وتوفي سنة ست وثمانين وثمان مائة ٨٨٦هـ)[١].

وكذا عدّ المؤرخون المسلمون الخليفة العثماني الثاني سليمان القانوني أحد الخلفاء المجددين؛ كما قال ابن العماد الحنبلي: (السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادي عشر من ملوك بني عثمان. قال القطب الحنفي في "الأعلام"[٢]: كان سلطانا سعيدا ملكا، أيده الله لنصر الإسلام تأييدا.

ولي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ست وعشرين وتسعمائة -٩٢٦هـ-، وجلس على تخت السلطنة وما دمي أنف أحد، ولا أريق في ذلك محجمة من دم، ومولده الشريف سنة تسعمائة، واستمر في السلطنة تسعا وأربعين سنة، وهو سلطان غاز في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، مرغم أنوف عداه بلسان سيفه وسنان قناه.

كان مؤيدا في حروبه ومغازيه، مسددا في آرائه ومعازيه، مسعودا في معانيه ومغانيه، مشهودا في مواقعه ومراميه، أيان سلك ملك، وأنى توجه فتح وفتك، وأين سافر سفر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر، مع الفضل الباهر، والعلم الزاهر، والأدب الغض الذي يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر، إن نظم نضد عقود الجواهر، أو نثر آثر منثور الأزاهر، أو نطق قلد الأعناق

(١) "البدر الطالع" ٢/ ٢٦٩

(٢) "الأعلام" ص ٢٩٩

نفائس الدر الفاخر، له ديوان فائق بالتركي، وآخر عديم النظير بالفارسي، تتداولهما بلغاء الزمان وتعجز أن تنسج على منواله فضلاء الديوان. وكان رؤوفا، شفوقا، صادقا، صدوقا، إذا قال صدق، وإذا قيل له صدق، لا يعرف الغل والخداع، ويتحاشى عن سوء الطباع، ولا يعرف المكر والنفاق، ولا يألف مساوئ الأخلاق، بل هو صافي الفؤاد، صادق الاعتقاد، منور الباطن، كامل الإيمان، سليم القلب، خالص الجنان: وما تناهيت في بثي محاسنه... إلا وأكثر مما قلت ما أدع وأطال في ترجمته وترجمة أولاده، وذكر غزواته، فذكر له أربع عشرة غزوة انتصر وفتح في جميعها، وذكر كثيرا من مآثره، فمن ذلك الصدقة الرومية التي هي الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين، فإنه أضاف إليها من خزائنه الخاصة مبلغا كبيرا.. ومنها إجراء العيون، ومن أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة المشرفة. ومنها بمكة المدارس الأربعة السليمانية. ومنها تكيته ومدرسته العظيمة الشأن الكائنة بمرجة دمشق إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة)[1].

وقال القطب الحنفي عن فتوحات السلطان سليمان التي جددت شباب الإسلام ورحه، وكان القطب معاصرا لها: (وكان السلطان محبا للجهاد في سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه، بإعلاء كلمة الله، يؤثر التعب في ذلك على الراحة، ويجب الغزو، ويرغب إليه عن الاستراحة، بحيث لم ترتفع راية الإسلام عن رأس من السلاطين العظام أكثر جهادا ونصرة للدين، وأكمل عدة وآله لقطع دابر المشركين، وأكبر ملكا وسلطانا، وأكثر جيوشا وأعوانا، وأقطع سبقا وسنانا،

(١) "شذرات الذهب" ١٠/ ٥٤٨

وأحمى للإسلام وذويه، وأوفى للشرك ومتحليه، وأعدى للإفرنج اللعين، وأقمع للكفرة والملحدين، وأقوى نصرة للإسلام والمسلمين. وأشد عضدا لأهل الإيمان، وأنصر لأهل الشرف في هذا الزمان من السلطان سليمان)[1].

وكذا عد مؤرخ مكة العصامي -المتوفي سنة ١١١١ هـ- السلطان سليمان بن سليم الأول هو مجدد القرن العاشر الهجري فقال عنه في تاريخه: (ولد سنة تسعمائة تقريبا فتكون سنه حين التولية ستا وعشرين سنة، سلك طريق المعدلة، وجادة الإنصاف، وتفقد أحوال الرعايا والعساكر، ورفع الظلم والاعتساف، وأعرض عن المنهيات، وله خيرات لا تحصى معروفة في الآفاق، وفتوحات وغزوات رفعت أهل الإيمان وخفضت أرباب الشقاق والنفاق، منها انكروس ورودس وبدن وبلغراد وغزوة العجم وألمان وأولونية وبغداد وإسطنبول والستوراغون وسكتوار آخر غزواته، وتوفي فيها سنة أربع وسبعين وتسعمائة -٩٧٤هـ-، ومن مشاهير العلماء في أيام دولته المفتي على شلبي، وكمال باشا زاده، وسعدي شلبي، وجوي زاده، ومفتي خواجه شلبي، وأبو السعود أفندي صاحب التفسير، وغيرهم.

ووزراؤه: بيري باشا، وإبراهيم باشا، وإياس باشا، ولطفي باشا، وسليمان باشا، ورستم باشا، وعلي باشا، ومحمد باشا، كلهم كانوا أرباب خيرات ومبرات. افتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بالطعن والضرب، وأيد الدين الحنيفي بمجده وسيفه الباتر، وأقام الملة الحنيفية وأحيا ما لها من مآثر، ونصر مذهب السنة السنية، وأظهر شعائر الإسلام

(١) الإعلام ص ٣١٤

الهيبة، وردع أهل الإلحاد فما لهم من قوة ولا ناصر، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر، كما ورد لكل قرن مجدد ظاهر، وبنى المدارس المعروفة بالسليمانية للأربعة الأئمة المالكي ثم الحنفي ثم الشافعي ثم الحنبلي، وقد جعلت مدرسة دار حديث لعدم متأهل من الحنابلة، وبسط بساط العدل في سائر الممالك، وفتح القلاع والحصون ومهد المسالك، وكانت أيام سلطنته باسمة الثغور، ودولته الشريفة غرة في جباه الدهور، وله فتوحات عديدة)[١].

أبرز العلماء والأئمة المجددين في عهد الخلافة العثمانية:

وقد ظهر في عصر السلطان سليمان وبعده كثير من الأئمة المجددين والعلماء المصلحين من الترك والكرد والعرب وغيرهم الذين أسهموا في هذه النهضة الدينية، وكانت لهم دعوة إصلاحية مجتمعية، ومن أبرزهم:

١) الإمام محي الدين محمد بن بير علي البركوي:

وهو الإمام المفسر، الفقيه المحدث، الصوفي الحنفي، والمصلح الداعية الأثري، **محي الدين محمد بن بير علي البركوي، أو البركلي**، ولد سنة ٩٢٩هـ، وتوفي سنة ٩٨١هـ، وطلب العلم في بلده، ثم درس في مدارس السلطان محمد الفاتح بإسطنبول، التي أسسها الفاتح لتخريج العلماء، وبلغ البركوي درجة الاجتهاد والفتوى، ونبذ التقليد الأعمى، ودعا إلى الأخذ بالدليل، وقال عن نفسه في شرح الأربعين: (وقد رزقني الله والحمد لله من العلوم العربية، والعقلية،

(١) "سمط العوالي" ٤/ ٨٥

والمعارف الدينية الشرعية الشريفة ما أميز به بين الصحيح والسقيم، والقوي والضعيف، والخطأ والصواب، وانحلّ عن قلبي عقدة التقليد بعض الانحلال، وامتزج تحقيقي بالتحقيق والإتقان)[1]، وقال عنه علي بالي: (وممن تعانى العلم والعمل، وحصل وكمل، فالتحق في شبابه بالمشايخ الكمل: الشيخ محيي الدين الشهير بيركيلو، كان رحمه الله آية في الزهد والصيانة، ونهاية في الورع والديانة، رأسا في التجنب والتقوى، متمسكا بما هو أتم وأقوى)[2]، وقال عنه العلامة داود القارصي الحنفي المتوفي سنة ١١٦٠هـ في مقدمة شرحه على كتاب البركوي في "أصول الحديث": (الإمام العلامة، وحيد عصره في التحقيق، وفريد دهره في التدقيق)، وقال عنه العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي: (أفضل المتأخرين، الإمام العالم العامل، المحقق والمدقق الكامل)[3].

وقال عنه في "حاشية البحر الرائق شرح كنز الدقائق في فقه الحنفية": (وقد ذكر ذلك العلامة الرملي في وصايا فتاواه المشهورة حيث أفتى ببطلان الوصية لمن يقرأ ويهدي ثواب ذلك إلى روح الموصي، وكذلك العلامة البركوي صرح ببطلان ذلك في آخر "الطريقة المحمدية")[4].

كما عدّه الشيخ محمد رشيد رضا من المجددين في أرض الترك، كالدهلوي في الهند، وابن عبدالوهاب في نجد.[5]

(١) الأربعين ص ٣
(٢) العقد المنظوم ص ٤٣٧
(٣) مجموعة رسائل ابن عابدين ١/ ٦٧
(٤) "حاشية البحر الرائق شرح كنز الدقائق في فقه الحنفية" ٥/ ٢٤٧
(٥) مقدمة كتاب الشيخ محمد رشيد رضا "تاريخ الإمام محمد عبده" (ص/ج)

وأشهر كتبه الإصلاحية (الطريقة المحمدية والسيرة الأحمدية) الذي دعا فيه إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، ونبذ البدع والمحدثات، وقد لقي كتابه هذا عناية كبرى من العلماء في عصره ومن بعده، شرحا وتعليقا وتخريجا لأحاديثه.

ومن كتبه "إنقاذ الهالكين" الذي قرر فيه بطلان الاستئجار على قراءة القرآن لإهداء ثوابه؛ حيث يقول فيه: (اعلم وفقك الله تعالى وإيانا، أني أذكر لك أصلا أصيلا يكفيك في هذا الباب، إن كان لك عقل ودين، وهو أنّا عرفنا الدين وحصول الثواب والعقاب من الشارع؛ إذ ليس العقل مستقلا فيه، ولو جاز حصول الثوب باستئجار الغير على القراءة لفعله رسول الله، أو حثّ عليه، ولفعله الصحابة والتابعون الذين هم خير القرون بشهادة خير الأنام، ولم يروَ عن النبي ﷺ ولا عن وأحد من الصحابة والتابعين فعله ولا الحث عليه، كيف وقد أنكر مالك والشافعي مع قرب عهدهما وصول ثواب العبادات البدنية الخالصة إلى الغير، فيكون بدعة، قال عليه الصلاة والسلام: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد". وقال في الهداية: ويكره أن يتنفل بعد طلوع الفجر بأكثر من ركعتي الفجر؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يزد عليهما مع حرصه على الصلاة، فانظر كيف جعل عدم فعله عليه الصلاة والسلام في باب العبادات دليلا على الكراهة. وقال صاحب "مجمع البحرين" في شرحه: إن رجلا يوم العيد في الجبانة أراد أن يصلي قبل صلاة العيد، فنهاه علي رضي الله تعالى عنه، فقال الرجل: إني أعلم أن الله تعالى لا يعذب على الصلاة!

فقال علي: وإني أعلم أن الله تعالى لا يثيب على فعل حتى يفعله رسول الله، أو يحث عليه..

ودليل التقليد يكفي فيه ما هو المذكور في عامة الكتب، وهو لا يجوز الإجارة على الطاعات، وذكر في بعضها -كالهداية-: أن بعض أصحابنا المتأخرين استحسنوا الاستئجار على تعليم القرآن اليوم لظهور التواني في الأمور الدينية، ففي الامتناع تضييع حفظ القرآن، وعليه الفتوى. وذكر في بعضها جوازه على الإمامة والتأذين وتعليم الفقه أيضا، ولم يذكر في واحد منها الاستئجار على القراءة وإعطاء الثواب، فبقي داخل تحت العام. وقال في الاختيار: الذي صرح فيه جواز الاستئجار على الإمامة والتأذين، وفي "مجمع الفتاوى": لو أوصى بأن يطين قبره أو يجعل عليه قبة أو يدفع شيء إلى من يقرأ عند قبره القرآن، فالوصية باطلة؛ لأن عمارة القبور للإحكام مكروه، وأخذ الشيء للقراءة لا يجوز؛ لأنه كالأجرة. فانظر إلى هذا كيف نفي الجواز عن مشابهة الأجرة، فكيف عن الأجرة؟ وإنما قال: كالأجرة؛ لعدم تعيين المقروء..)[(١)].

وقال أيضا: (ومعرفة هذا المطلب الشريف موقوفة على معرفة أمور قطعية يقينية اتفاقية من عرفها عرفه، ومن جهلها جهله، وهي اختصاص العبادة لله تعالى، ووجوب الإخلاص فيها، وكونه عبادة عن إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وحرمة الرياء وإرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة، وكون النية شرطا في كل عبادة، من حيث إنها عبادة وكون الثواب منوطا بالنية، وكونها عبادة عن قصد القلب الباعث على العمل، لا عمل اللسان، ولا حديث النفس)[(٢)].

وقال أيضا في الرد على من جوّز الاستئجار بشبهة أن السلطان أمر به: (والحادي عشر: إن سلطان زماننا أمر بهذا، فالطاعة له لازمة، وهذا غلط؛ إذ

---

(١) "رسائل البركوي" ص ٧٤

(٢) رسالة "إيقاظ النائمين" كتاب "رسائل البركوي" ص ٨٦

لا أمر للسلطان به، غايته عدم المنع، ولو سلم فلا طاعة للمخلوق في معصية الخالق...

والثالث عشر: سكوت علماء زماننا وعدم نهيهم عن هذا، وهذا لو سلم فإنما يكون حجة في زمان الاجتهاد فيما لا يخالف النصوص. وأما في زمان التقليد مع مخالفة النصوص، فدال على معصيتهم ومداهنتهم وعدم مبالاتهم في أمر الدين أو جهلهم وقلة عملهم يشهد عليه الأخبار والآثار في علماء آخر الزمان وعبادهم)[١].

كما حذر من البدع التي تقع عند القبور لمن يزورها، فقال في رسالته "أحوال أطفال المسلمين" التي ألفها بعد وفاة ولده عبد الحليم: (ويكره أن يبني عليه - أي: على القبر - مسجدا يصلي فيه، وأن يضرب عليه فسطاطا أو قبة يقام فيه، أو يظل القبر، وإنما يظل الميت عمله. ولا بأس بإعلام القبر بعلامة كالحجارة المنصوبة في زماننا يعرف بها أنه قبر حتى لا يوطأ بالأقدام، ويدعو بدعاء لأهله..)[٢].

وقال في رسالته "زيارة القبور": (وبعد، فهذه أوراق انتخبتها من "إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان" للشيخ الإمام العلامة ابن القيم الجوزي جعل الله روحه مع الأرواح التي رجعت إلى ربها راضية مرضية، كتبتها لبعض إخوان الآخرة مع ضم ما وجدته في الكتب المعتبرة؛ لأن كثيرا من الناس في هذا الزمان جعلوا بعض القبور كالأوثان يصلون عندها ويذبحون القربان، ويصدر منهم

---

(١) في حاشيته على رسالة "إيقاظ النائمين" كتاب "رسائل البركوي" ص ٩٥

(٢) كتاب "رسائل البركوي" ص ١٢٤

أفعال وأقوال لا تليق بأهل الإيمان، فأردت أن أبين لهم ما ورد به الشرع في هذا الشأن، حتى يتميز الحق من الباطل عند من يريد تصحيح الإيمان..)[1].

وما ذكره البركوي وابن القيم في شأن التحذير من فتنة تعظيم القبور سبقهما إليه الإمام الشافعي الذي كان يرى الولاة بمكة يهدمون ما بني عليها، فلا يعيب ذلك أحد من الفقهاء، اتباعا للسنة، حيث يقول في كتابه الأم: (وأحب أن لا يزاد في القبر تراب من غيره، وليس بأن يكون فيه تراب من غيره بأس إلا إذا زيد فيه تراب من غيره ارتفع جدا، وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه، وأحب أن لا يبنى، ولا يجصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء، وليس الموت موضع واحد منهما، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة عن طاوس: "إن رسول الله ﷺ نهى أن تبنى القبور أو تجصص".

قال الشافعي: وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها، فلم أر الفقهاء يعيبون ذلك...

وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوى أو يصلى عليه وهو غير مسوى، أو يصلى إليه.

قال: وإن صلى إليه أجزأه، وقد أساء، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: "قاتل الله اليهود، والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقى دينان بأرض العرب".

(١) كتاب "رسائل البركوي" ص ١٥٥

قال: وأكره هذا للسنة، والآثار، وأنه كره والله تعالى أعلم أن يعظم أحد من المسلمين، يعني يتخذ قبره مسجدا، ولم تؤمن في ذلك الفتنة، والضلال على من يأتي بعد فكره)[1].

كما حذر البركوي من بدع الصوفية كالرقص واتخاذه عبادة، وشنع على الولاة والقضاة الذين لا يمنعونهم من ذلك، فقال في "الطريقة المحمدية": (منها: الرقص واللعب... ويدخل فيهما ما يفعله بعض الصوفية في زماننا؛ بل هو أشد من كل ما عداه منهما؛ لأنهم يفعلونه على اعتقاد العبادة، فيخاف عليهم أمر عظيم! قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص...

قلت: من له إنصاف وديانة، واستقامة طبع، إذا رأى رقص صوفية زماننا في المساجد، والدعوات بالألحان، والنغمات، مختلطا بهم المرد، وأهل الأهواء والقرى، من الجهال العوام، والمبتدعة الطغام، الذين لا يعرفون الطهارة والقرآن، والحلال والحرام، بل لا يعرفون الإيمان والإسلام، لهم زعيق وزئير، ونهاق يشبه نهاق الحمير، يبدلون كلام الله تعالى، ويغيرون ذكر الله، ثم يتلفظون بألفاظ مهملة، وهذيانات كريهة؛ مثل: هاي وهوي وهي وهيا!

يقول: لا محالة هؤلاء اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وإن لم يكن له ممارسة بالفقه وعلم تفصيلي بحالهم، فالويل للقضاة، حيث يعرفون هذا، ويشاهدون ولا ينكرون، ولا يغيرون مع قدرتهم عليهم، بل يخافون منهم، ويلتمسون الدعاء منهم)[2].

---

(١) الأم ١/ ٣١٦.

(٢) "الطريقة المحمدية" ص ٤٨٥

وقد عمت دعوة الإمام البركوي -الحنفي الصوفي- الإصلاحية الأثرية هذه، ورسائله العلمية، وكتبه الدعوية؛ أرجاء دار الخلافة، وجاءه الطلبة من كل حدب وصوب، يأخذون عنه العلم والعمل والسلوك والعبادة، و(كان رحمه الله من قصبة بالي كسرى، وكان أبوه رجلا عالما من أصحاب الزوايا، ونشأ في طلب المعارف والعلوم، ووصل الى مجلس العظام، ودخل محافل الكرام، وعكف على التحصيل والإفادة من الأفاضل... في عهد السلطان سليمان، ثم غلب عليه الزهد والصلاح، ولاح في جبينه آيات الفوز والفلاح، فتحول عن مضايق الشكوك إلى مسارح السلوك... واستفرغ مجهوده في الزهد والعبادة، ثم أمره شيخه بالعود والاشتغال بممارسة العلوم ومذاكرة المنطوق والمفهوم، والتصدي للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكرات، والوعظ بالزواجر الزاجرات، وحصل بينه وبين المولى عطاء الله محبة أكيدة ومودة شديدة فأقبل بحسن الالتفات عليه وبنى مدرسة في قصبة بركي، وفوض تدريسها إليه وعين له كل يوم ستين درهما، فكان رحمه الله يدرس تارة، ويعظ أخرى، بما هو ألين وأحرى، فقصده الناس من كل فج عميق، وأتى إليه الطلبة من مكان سحيق، واجتمع عليه الطلاب، واشتغلوا عليه من كل فصل وباب، وأكب هو على الاشتغال بيومه وأمسه، وانتفع الناس بوعظه ودرسه، فكم من أسير في غيابة الجهالة، مقيد بسلاسل الشؤون والبطالة، نال بسببه من شرف العلم وعزه ما ناله، وكم من تائه بمهامه هواه، عاد إلى السبيل بهداه!

كان رحمه الله في طرف عال من الفضل والكمال، وتتبع الكتب والرسائل، وجمع القواعد والمسائل، وجمع العلم وتبحر فيه، وحوى من الفضل والمعرفة ما يكفيه.

شرح مختصر البيضاوي في النحو، وكتب متنا لطيفا في علم الفرائض، وله في الحديث وتفسير القرآن والفقه تعاليق ورسائل...

وكان رحمه الله آية في الزهد والصيانة، ونهاية في الورع والديانة، رأسا في التجنب والتقوى، متمسكا بما هو أتم وأقوى، قائما على الحق في كل مكان، يرد على من خالف الشريعة كائنا من كان، لا يهاب أحدا لعلو رتبته، وسمو منزلته.

جاء في آخر عمره الى قسطنطينية، ودخل مجلس الوزير محمد باشا، وكلمه في قمع الظلمة، ودفع المظالم، بكلمات أحد من السيوف الصوارم، وملأ بفرائد المواعظ ذلك النادي، ولكن لا حياة لمن تنادي، وكان لا يرى الاستئجار على التلاوة وتعليم العلوم، ويباحث فيه مع الفحول بالمنقول والمعقول، وتوفي رحمه الله في شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وهو مكب على الزهد والعبادة)[١].

وقد استشهد ابن عابدين بقول البركوي ووصفه بالإمام في هذه المسألة، فقال: (وممن أفتى ببطلان هذه الوصية الخير الرملي كما هو مبسوط في وصايا فتاواه فراجعها.

(١) كتاب "العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم (ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية)" ص ٤٣٦

ونقل العلامة الخلوتي في حاشية المنتهى الحنبلي عن شيخ الإسلام تقي الدين [ابن تيمية] ما نصه: ولا يصح الاستئجار على القراءة وإهدائها إلى الميت؛ لأنه لم ينقل عن أحد من الأئمة الإذن في ذلك. وقد قال العلماء: إن القارئ إذا قرأ لأجل المال فلا ثواب له فأي شيء يهديه إلى الميت، وإنما يصل إلى الميت العمل الصالح، والاستئجار على مجرد التلاوة لم يقل به أحد من الأئمة، وإنما تنازعوا في الاستئجار على التعليم. اهـ بحروفه.

وممن صرح بذلك أيضا الإمام البركوي قدس سره في آخر "الطريقة المحمدية" فقال: الفصل الثالث في أمور مبتدعة باطلة أكب الناس عليها على ظن أنها قرب مقصودة إلى أن قال: ومنها الوصية من الميت باتخاذ الطعام والضيافة يوم موته أو بعده وبإعطاء دراهم لمن يتلو القرآن لروحه أو يسبح أو يهلل له وكلها بدع منكرات باطلة، والمأخوذ منها حرام للآخذ، وهو عاص بالتلاوة والذكر لأجل الدنيا اهـ ملخصا.

وذكر أن له فيها أربع رسائل...

فإذا علمت ذلك ظهر لك حقيقة ما قلناه وأن خلافه خارج عن المذهب وعما أفتى به البلخيون وما أطبق عليه أئمتنا متونا وشروحا وفتاوى، ولا ينكر ذلك إلا غمر مكابر أو جاهل لا يفهم كلام الأكابر، وما استدل به بعض المحشين على الجواز بحديث البخاري في اللديغ فهو خطأ؛ لأن المتقدمين المانعين الاستئجار مطلقا جوزوا الرقية بالأجرة ولو بالقرآن كما ذكره الطحاوي؛ لأنها ليست عبادة محضة بل من التداوي. وما نقل عن بعض الهوامش وعزي إلى الحاوي الزاهدي من أنه لا يجوز الاستئجار على الختم بأقل من خمسة وأربعين درهما فخارج

عما اتفق عليه أهل المذهب قاطبة. وحينئذ فقد ظهر لك بطلان ما أكب عليه أهل العصر من الوصية بالختمات والتهاليل مع قطع النظر عما يحصل فيها من المنكرات التي لا ينكرها إلا من طمست بصيرته، وقد جمعت فيها رسالة سميتها "شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل"..)[1].

٢) العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي:

وهو العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي المصري (ت ١٠٣٢هـ /١٦٢٤م)، وقد كان الشيخ مرعي -كما سبق في ترجمته- من أشهر علماء مصره وعصره -العثماني- آنذاك الذين بلغوا درجة الاجتهاد، ودعوا إلى التجديد، وحذروا من البدع والمحدثات، حتى وصفه الغزي بأنه (شيخ مشايخ الإسلام... العالم الرباني، والإمام الثاني)[2].

وقد دعا الشيخ مرعي إلى لزوم السنة، وما كان عليه سلف الأمة، في العقائد والسلوك والعبادات، وصنف في ذلك عشرات المصنفات، ومع شدته على أهل البدع؛ كان يرى الدولة العثمانية خلافة سنية مهدية، ويرى خلفاء آل عثمان ممن أحيوا السنة بعد شيوع البدعة، في آخر العهد المملوكي، كما سبق بيانه من كتابه "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان"، فقد كان الشيخ مرعي نتاج البيئة العلمية العثمانية، التي أحيت الفقه والاجتهاد، ووفرت أجواء الحرية باحترام كل المذاهب السنية، وقد ألّف الشيخ مرعي كتابه (شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور) الذي نصر فيه طريقة ابن تيمية في الموقف من

(١) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ٦/ ٥٧

(٢) النعت الأكمل ١/ ١٩٠

الانحرافات العقائدية وشرك القبور، قال: (وقال ابن تيمية: السفر لزيارة القبور مما ذكره أبو عبد الله ابن بطة في الإبانة الصغرى من البدع المخالفة للسنة والإجماع، قال: وبهذا يظهر ضعف حجة من استدل على جواز السفر لزيارة القبور، بأنه ﷺ كان يزور مسجد قباء؛ لأن زيارته عليه السلام لمسجد قباء، لم تكن بشد رحل. قال: فمن اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين، قربة، وعبادة، وطاعة؛ فقد خالف الإجماع، وإذا سافر لاعتقاده أنها طاعة، كان ذلك محرما بإجماع المسلمين، قال: ومعلوم أن أحدا لا يسافر إليها إلا لذلك.

هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في غاية التحقيق، ولقد أجاد في نقله كلام الأئمة على وجهه، وأحسن في بيان المذاهب في هذه المسألة، واختار القول بتحريم السفر إلي زيارة المشاهد والقبور، تبعا لطائفة من العلماء المحققين، وعملا بظاهر الحديث المتفق على صحته بين المحدثين، وقد حرفوا الكلم في هذه المسألة عليه، ونسبوا ما لا يليق إليه؛ قائلين بأن ابن تيمية يقول بتحريم زيارة قبور المسلمين، وجعل من المعصية زيارة قبور الأنبياء، والمرسلين، فانظر إلى هذا التحريف الشنيع على شيخ الإسلام، وكلامه مصرح باستحباب زيارة قبور المسلمين، وجواز زيارة قبور الكافرين.

وأما مسألة السفر، وشد الرحال لزيارة القبور فهي مسألة أخرى، ذات خلاف ونزاع بين الأئمة، وهو مسبوق فيها إلى القول بالتحريم بكلام أئمة من المحققين، فلينكر عليهم من أنكر عليه، على أن من أنكر عليه، يعتقد استحباب السفر إلى زيارة القبور، ولا قائل بذلك من أئمة المسلمين، كما تقدم تحريره،

والتنبيه عليه، ولما حرفوا الكلم عليه فيه عند السلطان الملك الناصر بن قلاوون، وأكثروا الكلام من مصر إلى الشام بحبس ابن تيمية بقلعة دمشق، فحبس بها سنتين وثلاثة أشهر وأياما، إلى أن توفي بها محبوسا، ولما مات ارتجت دمشق بموته وازدحم الناس على جنازته، بحيث حضرها ما يزيد على خمسمائة ألف رجل وخمس عشرة ألف امرأة، وكثر التأسف عليه رحمه الله تعالى، وأما علماء بغداد فإنهم لما بلغهم خبر ذلك، قاموا كلهم بنصرته، وأفتوا بموافقته، وأن ما نقله في كلامه في هذه المسألة؛ حق وصدق، وهو كلام الأئمة المعتبرين، والعلماء المحققين، وأنه لم يقل أحد منهم باستحباب السفر إلى زيارة القبور، وأرسلوا بفتاويهم إلى مصر والشام، وقد ذكرت ذلك كله في كتابي "الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية"...

قال ابن تيمية: بل قبر إبراهيم الخليل، لم يكن أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، من يأتيه للصلاة عنده، ولا الدعاء، ولا كانوا يقصدونه للزيارة بالسفر أصلا. وقد قدم المسلمون إلى الشام مع عمر بن الخطاب غير مرة، واستوطن الشام خلائق من الصحابة، وليس فيهم من فعل شيئا من هذا.

ولم يبن المسلمون عليه مسجدا للصلاة، لكن لما استولى النصارى على غالب إقليم الشام، في أواخر المائة الرابعة، لما أخذوا بيت المقدس بسبب استيلاء الرافضة الفواطم على ملك مصر والشام، والرافضة أمة مخذولة ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصورة؛ قويت النصارى، وأخذت سواحل الشام، وغيرها من الرافضة، وحينئذ نقبت النصارى في حجرة الخليل عليه السلام، وجعلت لها بابا، وأثر النقب ظاهر

الباب، فكان اتخاذ ذلك معبدا؛ مما أحدثه النصارى، وليس هو من عمل سلف الأمة وخيارها. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى)[(١)].

٣) الإمام قاضي زاده محمد الحنفي:

وهو الإمام قاضي زاده محمد بن مصطفى الحنفي - ولد سنة ٩٩٠ هـ/ ١٥٨٢م، وتوفي سنة ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥م- وهو وارث دعوة الإمام البركوي، أخذها عن ولده فضل الله، كما قال المحبي في تاريخه: (الشيخ فضل الله بن محمد الرومي البركلي، وأبوه الشيخ العالم العلم صاحب كتاب "الطريقة المحمدية" أخذ العلوم عن والده، وقدم الى قسطنطينية في حدود سنة عشرين وألف، وأقام بها واشتهر صيت علمه، وأُعطي وظائف الوعظ والتذكير، من ذلك وعظ جامع السلطان سليم، وكان ينقل فيه التفسير، ثم أُعطي وعظ جامع السلطان بايزيد، وكان عالما، فصيح اللسان، حسن البيان، باهر الشان، وكان للناس عليه إقبال تام، وكانت وفاته سنة ثلاثين بعد الألف، وصار مكانه واعظ العالم الشهير بقاضي زاده الرومي، صاحب الطريقة المشهورة في التقشف والصلابة في الدين، وكان صار مكانه أيضا واعظا بجامع السلطان سليم)[(٢)].

وقد كان قاضي زاده الحنفي كالبركوي متأثرا بدعوة شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذه ابن القيم، فترجم رسالته (السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة) وشرحها وسماها (تاج الرسائل ومنهاج الوسائل)، وقدّمها للسلطان

(١) "شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور" ص ٩٩

(٢) "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ٣/ ٢٣٦

مراد الرابع، ولخّص كتاب ابن القيّم (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) في كتاب (إرشاد العقول المستقيمة إلى الأصول القويمة بإبطال البدع السقيمة).

وقد تبنى السلطان مراد الرابع دعوة الشيخ قاضي زاده هذه، وقام بالإصلاح السياسي والديني الذي دعا إليه.

وقد كان السلطان مراد الرابع بن أحمد بن محمد الثالث - ولد سنة ١٠١٨هـ/١٦٠٦م، وتولى الخلافة سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٣م - قد تصدى للشاه عباس الصفوي الذي احتل بغداد، ونشر فيها الشرك والإلحاد، فحررها مراد الرابع سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٨م، وأنقذ بذلك المشرق الإسلامي من فتنة كبرى!

وقد عمت دعوة الإمام قاضي زاده الإصلاحية العالم الإسلامي في الشام والعراق ومصر وصار له أتباع وأنصار يدعون لطريقته.

وقد كان لتولي قاضي زاده الإمامة والخطابة في جوامع إسطنبول الرئيسة أكبر الأثر في اتساع دعوته، وكثرة أتباعه، حيث (اشتهر قاضي زاده بقدرته المميزة على الخطابة بجانب عمله كمدرس، فعين في منصب خطيب الجمعة في جامع السلطان سليم الأول، وهو من المساجد السلطانية ذات المقام الرفيع والوضع الاجتماعي المرتفع لمن يخطب فيه، ثم عين بعد ذلك في عدد من المساجد السلطانية الهامة مثل جامع السلطان بايزيد الثاني، وجامع السليمانية، وآيا صوفيا؛ فاستطاع جذب أعداد كبيرة من الواعظين لمنهجه بالإضافة إلى عامة الشعب.

استطاعت شبكة وعاظ الحركة بصفتهم وعاظ في جوامع سلطانية كبيرة الوصول إلى عدد كبير من الناس عبر خطب الجمعة أو عبر النقاشات العامة

التي كانت تتم بداخل الجوامع، داعين الناس إلى ضرورة تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمحاربة البدع)[1].

٤) العلامة محمد الأسطواني الحنفي الدمشقي:

وكان من أشهر من تأثر خطى الإمام قاضي زاده، وهو العلامة محمد بن أحمد الأسطواني الدمشقي -المولود سنة ١٠١٦هـ/ ١٦٠٨م، والمتوفي ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م- إمام عصره علما وزهدا وأمرا بمعروف، ونهيا عن منكر، قال عنه المحبي: (محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن سليمان المعروف بالأسطواني الدمشقي الحنفي، الفقيه الواعظ الإخباري، أعجوبة الزمان، ونادرة الوقت، كان من منن الله تعالى على عباده، لم يزل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان ورعا ناسكا متقشفا مخشوشنا كثير العبوس في وجوه الناس لما يكرهه منهم، شديد الإنكار عليهم فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك، متحملا للأذى من الناس بسببه..

وكان أحد أعاجيب الدنيا في حلاوة المنطق، وحسن التأدية، ومعرفة أساليب الكلام، لا يمل حديثه بحال، بل كلما طال طاب، وبالجملة فلم ير نظيره في هذا الدور، ولم يسمع بمثله في أوصافه، كان في الأصل على مذهب أسلافه حنبليا، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وقرأ الفقه على مشايخ عصره منهم الشمس الميداني والنجم الغزى وغيرهما، وأخذ العربية والمعقولات عن الشيخ

---

(١) "عثمانيون وسلفيون" للباحث كريم عبد المجيد ص ٦.

عبد الرحمن العمادي، والشيخ عبد اللطيف الجالقي، والشيخ عمر القاري، والإمام يوسف بن أبى الفتح...

ثم تحنف [صار حنفي المذهب] وصار إماما بجامع السلطان أحمد، ولازم على عادة موالي الروم، ثم قدم إلى دمشق حاجا في سنة ثلاث وستين وألف، وعاد الى الروم فصار واعظا بجامع السلطان أبى الفتح محمد خان [محمد الفاتح]، واشتهر بحسن الوعظ، ولطافة التعبير، فانكبت عليه الناس، ولزمه جماعة قاضى زاده الرومي، وعظم حزبه، فبالغ في النهي عن أشياء كان غنيا عنها، فكاد أن يوقع فتنة، فعزل عن وظيفة الوعظ، ونفي إلى جزيرة قبرس، ثم أمر بالمسير الى دمشق فوردها في سنة سبع وستين، وأقام بها، ولزم الدرس تحت قبة النسر بالجامع الأموي، بين العشاءين وبعد الظهر، ونشر علم القراءات والمواعظ، وأقرأ شرح الهمزية، ورغب الناس في حضور دروسه من علماء وعوام لحسن تقريره، وعذوبة تفهيمه، ولطافة مناسباته، وسمعت والدي رحمه الله تعالى يقول إن درسه كان يليق أن يرحل إليه من بلد إلى بلد، وأنه قرر أشياء لم يسمعها من أهالي دمشق أحد)[1].

وقد وجد الأسطواني حظوة عند السلطان، والصدر الأعظم -رئيس الوزراء- أحمد باشا الذي أصدر أمرا بمنع الطريقة الخلوتية لانحرافاتها العقائدية والسلوكية.

وقال عنه المرادي في "سلك الدرر": (من العلماء والفقهاء، وتوطن أعواما من السنين دار السلطنة قسطنطينية، وصار إماما في جامع السلطان أحمد خان،

(١) "خلاصة الأثر" ٣/ ٣٨٦

وواعظا في جامع أبي الفتح السلطان محمد خان، واشتهر بحسن الوعظ، ولطافة التقرير والتعبير، ثم نفى إلى جزيرة قبرس بالأمر السلطاني لأمر أوجب ذلك، وتوفي بدمشق في محرم سنة اثنتين وسبعين وألف)[١].

٥) الشيخ مصطفى الأسطواني:

وقد ورث ابنه مصطفى دعوته ومكانته، وولي الخطابة بالجامع الأموي بدمشق حتى وفاته، مما يؤكد شيوع دعوته في الشام؛ كما قال عنه المرادي: (مصطفى الأسطواني ابن محمد بن أحمد بن حمد بن حسين بن سليمان المعروف كأسلافه بالأسطواني الحنفي الدمشقي أحد الأفاضل والنبلاء المشاهير، ولد في عشري جمادي الأولى سنة أربع وخمسين وألف، ونشأ بكنف والده.. تبع مسلكه ونهج على طريقته، وولي خطابة الجامع الشريف الأموي بعد وفاة إسماعيل بن علي الحائك المفتي والخطيب، وباشرهما إلى أن مات، وكان أنبل أهل بيتهم، وأشهرهم فضلا وكمالا، وتوفي في سنة خمس وعشرين ومائة وألف رحمه الله تعالى)[٢].

٦) الشيخ محمد الواني الحنفي:

كما تصدى لقيادة الحركة الإصلاحية الدينية بعد الأسطواني الشيخ محمد الواني -المتوفى سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م- الذي كان إماما وواعظا للسلطان محمد

(١) "سلك الدرر" ٤/ ٢٠٠

(٢) المصدر السابق.

الرابع، واستطاع إقناع الوزير أحمد الكوبري بمنع البدع والمنكرات التي يقوم بها بعض الصوفية.

وقد كان الصدر الوزير أحمد باشا الكوبري أعظم وزراء الخلافة العثمانية، وقام بإصلاحات دينية كبرى، كما قال عنه المحبي في "خلاصة الأثر": (أحمد باشا بن محمد باشا، الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري الأصل، القسطنطيني المولد، أحد وزراء الدولة العثمانية، بل أوحدهم، الذي عزت به السلطنة، وافتخرت الدولة، وكان في وقته من مفاخره السامية، وأفراده المتعالية، وبه ظهر رونق الزمن، وعلا قدر الفضل، وكان عصره إلى أواسط مدته أحسن العصور، ووقته أنضر الأوقات، ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعبا شديدا في أمور الشرع، سهلا في أمور الدنيا، وكان حاذقا مدبرا للملك قائما بضبطه، وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ولا يضبط بالإحصاء، ولد بقسطنطينية ونشأ بها واعتنى أبوه بتهذيبه، وأقرأه العلوم حتى مهر، وسمت همته نحو معالي الأمور وسلك في بداية أمره طريق المدرسين، ثم عدل إلى طريق والده، فتولى وأبوه في الصدارة العظمى، ولاية أرض روم ايلي، فظهرت كفايته، وحمدت طريقته، ثم انتقل منها إلى حكومة الشام، وأعطيها برتبة الوزارة، وذلك في سنة إحدى وسبعين وألف، وقدمها وكانت أمورها مختلة النظام فأصلها، وتقيد في أمور الأوقاف وأزال ما بها من محدثات الوظائف وغيرها.. وبعد وصوله إلى قسطنطينية صار قائما مقام أبيه فيها، وكان السلطان إذ ذاك بأدرنة، وأقام أياما قليلة ثم طلب إلى أدرنة، وكان والده قد ابتدأه المرض فلما وصلها صار

قائما مقامه في حياته وبعد أيام قليلة توفي والده فتولى مكانه وذلك في سنة اثنتين وسبعين وألف.. وسلك طريقا في وزارته لم يسبقه إليها أحد، وبلغ من الإحكام ونفوذ القول مبلغا ليس فيه مستزاد، ولم يبق للناس سوى التمسك بعنايته، ومراعاة حاشيته، وكان صائب الرأي كامل الفراسة...)[1].

وقد افتتح المجر وجزيرة كريت، (وعاد إلى أدرنة وأخذ في نقض الأمور وإبرامها على الوجه الحميد، والرأي السديد، ثم تغيرت أطواره وحببت إليه العزلة فانقطع عن الديوان وتعاطي المصالح، واشتغل باتخاذ الندماء، وكان مجلسه كله فوائد، ولم ينسب إليه ما يشينه سوى بعض التشاغل عن أمور الرعية، وإلا فقد يقال إن جميع مزايا الحسن جمعت فيه، فحاز من كل وصف كماله وغايته).

وقد قويت علاقة الشيخ الواني به حتى غدا مستشاره (فكان يستشيره في الأمور الدينية وشئون الدولة، وتطور الأمر إلى دعوة الوزير للواني للتعرف إلى السلطان محمد الرابع ووالدته، اللذان أعجبا به، وطلبا منه أن يكون شيخهم الخاص، مما أعطى له نفوذا ضخما بالوصول إلى رأس الدولة، وصانعي القرار فيها، ولا يدل على نفوذ واني لدى السلطان أكثر من أن السلطان بشخصه كان يزوره في منزله، وُعين واني كخطيب الجمعة في جامع الوالدة سلطان الجديد الجامع الجديد بمنطقة إيمينونو بإسطنبول حاليا، وقد دعا عبر المنابر إلى ضرورة ترك البدع والعودة بالإسلام إلى نقائه الأول، وبسبب خطابته القوية

(١) "خلاصة الأثر" ١/ ٣٥٢

وشخصيته الكاريزمية، طلب منه أتباع حركة قاضي زاده أن يصبح قائدا جديدا للحركة)[1].

وقد تعاون الصدر الأعظم مع واعظ السلطان الشيخ محمد الواني فمنع كل مظاهر الشرك والبدع -كما رصد ذلك الرحالة ت سميث الذي كان في إسطنبول آنذاك- إذ مضى الوزير أحمد الكوبري قدما (في تنفيذ حظر على ممارسات صوفية معينة مثلما كانت جماعة قاضي زاده تريد القيام به، ويصف ت. سميث الذي سافر إلى إسطنبول في ذلك الوقت بأن كوبرلو حظر -أيضا- على الدراويش الرقص ضمن حلقات والدوران، والتي كانوا سابقا يحرصون على فعلها في أوقات محددة أمام الناس، وعلاوة على ذلك فعندما تولى فاضل أحمد بن محمد باشا كوبرلو منصب الصدر الأعظم بعد وفاة والده، أصبح الراعي الرئيس للشيخ محمد أفندي الواني القائد الجديد للجماعة، إن التحالف بين محمد أفندي الواني وأسرة كوبرلو مهم جدا فمن خلال هذا التحالف دخلت جماعة قاضي زاده عهد القوة المتصاعدة، وتمتد حقبة كوبرلو حتى عام ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م، تمثل هذه الحقبة المرحلة الأخيرة من توسع وازدهار الدولة العثمانية لتصل إلى أقصى توسع لها، وتم تنفيذ سياسات جماعة قاضي زاده خلال هذه الحقبة.

استقر الشيخ محمد أفندي الواني في إسطنبول بعد سفر طويل من أجل تحصيل العلم الشرعي، وكان الواني قد اتخذ من جامع السلطان سليم مركزا له، وكان واعظا مفوها ومؤثرا، وكانت تربطه مع فاضل أحمد كوبرلو صداقة

(١) "عثمانيون وسلفيون" ص ١٠.

قوية، فلما تولى منصب الصدر الأعظم - خلفا لوالده - عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م أصبح الواني قادرا على كسب ثقة السلطان محمد الرابع، وتم تعيينه إماما وواعظا للسلطان وابنه، وعلى غرار سلفه الأسطواني بات الواني يعرف بلقب: "شيخ العاهل" أو: "شيخ السلطان". تمكن الواني مستعينا بنفوذه السياسي من إقناع السلطان بضرورة منع طقوس الرقص الصوفية وزيارة القبور المبتدعة، ففي عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م تمكن الواني من كسب دعم السلطان والصدر الأعظم لهدم مزار تابع للبكتاشيين العلويين..

وفي عام ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧١م أقام الصدر الأعظم فاضل أحمد كوبرلو علاقة مهمة مع الشيخ المحدث محمد بن سليمان الروداني المغربي الذي كان له ارتباط سابق بالطريقة الشاذلية الصوفية، بعد حوالي سنة واحدة تمت ترقية المغربي وظيفيا ليستلم وصاية الأوقاف في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأرسل السلطان إلى المغربي مرسوما يقضي بحظر بعض ممارسات الصوفية البدعية، وعلى الرغم من العلاقة التي كانت تربطه بالصوفية؛ فقد حل المغربي محل جماعة قاضي زاده في تنفيذ الإصلاحات الشرعية في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالتزامن مع ما كان يتم في إسطنبول في نفس الوقت)[١].

وقد قال المحبي في "خلاصة الأثر" عن المغربي: (ولما وصل الى الروم حظي عند الوزير ومن دونه، ومكث ثمة نحو سنة ورجع الى مكة المشرفة مجللا، وحصلت له الرياسة العظيمة التي لم يعهد مثلها، وفوض إليه النظر في أمور

(١) "دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية" ص١١٢

الحرمين مدة حتى صار شريف مكة لا يصدر إلا عن رأيه وأنيطت به الأمور العامة والخاصة إلى أن مات الوزير)[1].

وبقي أحمد باشا وزيرا وصدرا أعظم، حتى مرض وتوفي سنة ١٠٨٧هـ.

وقد توفي الشيخ محمد الواني سنة ١٠٩٥هـ، بعد أن امتد أثر الحركة الإصلاحية الدينية من إسطنبول إلى الشام والحجاز، حيث صارت مظاهر البدع ممنوعة بأمر السلطان، وهو ما سيوفر البيئة العلمية التي ستخرج منها بعد ذلك دعوة الشيخ محمد حياة السندي في الحجاز، وتلميذه محمد بن عبدالوهاب في نجد.

وقد امتد نفوذ حركة قاضي زاده إلى مصر كما ذكر المؤرخ الجبرتي المصري في أحداث رمضان سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١م حيث قدم على مصر واعظ من إسطنبول وصار يعظ ويدرس (بجامع المؤيد فكثر عليه الجمع، وازدحم المسجد، وأكثرهم أتراك، ثم انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر بضرايح الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء، وتقبيل أعتابهم، وأن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه، وعلى ولاة الأمور السعي في ذلك. وذكر أيضا قول الشعراني في طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ أنه لا يجوز ذلك، ولا تطلع الأنبياء فضلا عن الأولياء على اللوح المحفوظ، وأنه لا يجوز التكايا ويجب هدم ذلك. وذكر أيضا وقوف الفقراء بباب زويلة في ليالي رمضان. فلما سمع حزبه ذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة فهرب الذين يقفون بالباب فقطعوا الجوخ والأكر المعلقة وهم يقولون أين

(١) "خلاصة الأثر" ٤/ ٢٠٥

الأولياء! فذهب بعض الناس إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ، وكتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوي والشيخ أحمد الخليفي بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، وإن إنكاره على اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحاكم زجره عن ذلك.

وأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو في مجلس وعظه، فلما قرأها غضب وقال: يا أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم! وإني أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم في مجلس قاضي العسكر فهل منكم من يساعدني على ذلك وينصر الحق؟

فقال له الجماعة: نحن معك لا نفارقك. فنزل عن الكرسي واجتمع عليه العامة زيادة عن ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضي قريب العصر، فانزعج القاضي وسألهم عن مرادهم، فقدموا له الفتوى وطلب منه إحضار المفتين والبحث معهما.

فقال القاضي: اصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرهم ونسمع دعواكم.

فقالوا: ما تقول في هذه الفتوى؟ قال: باطلة.

فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة ببطلانها.

فقال: إن الوقت قد ضاق، والشهود ذهبوا إلى منازلهم، وخرج الترجمان فقال لهم فضربوه، واختفى القاضي بحريمه.

فما وسع النائب إلا أنه كتب لهم حجة حسب مرادهم، ثم اجتمع الناس في يوم الثلاثاء عشرينه وقت الظهر بالمؤيد [الجامع] لسماع الوعظ على عادتهم فلم يحضر لهم الواعظ، فأخذوا يسألون عن المانع من حضوره.

فقال بعضهم: أظن أن القاضي منعه من الوعظ.

فقام رجل منهم وقال: أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معي. فتبعه الجم الغفير، فمضى بهم إلى مجلس القاضي. فلما رآهم القاضي ومن في المحكمة طارت عقولهم من الخوف، وفر من بها من الشهود، ولم يبق إلا القاضي فدخلوا عليه، وقالوا له: أين شيخنا؟

فقال: لا أدري.

فقالوا له: قم واركب معنا إلى الديوان ونكلم الباشا في هذا الأمر، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم، فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم. فركب القاضي معهم مكرها وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلعوا إلى الديوان، فسأله الباشا عن سبب حضوره في غير وقته.

فقال: انظر إلى هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا بي وعرفه قصتهم وما وقع منهم بالأمس واليوم، وأنهم ضربوا الترجمان، وأخذوا مني حجة قهرا، وأتوا اليوم وأركبوني قهرا، فأرسل الباشا إلى كتخدا [ولاة وأمراء] الينكجرية [الانكشارية وهم الجنود الترك] وكتخدا العزب، وقال لهما: اسألوا هؤلاء عن مرادهم.

فقالوا نريد إحضار النفراوي والخليفي ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به عليه، فأعطاهم الباشا بيورلديا [خطابا ومرسوما] على مرادهم، ونزلوا إلى المؤيد، وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلى الكرسي، فصار يعظهم ويحرضهم على اجتماعهم

في غد بالمؤيد، ويذهبون بجمعيتهم إلى القاضي، وحضهم على الانتصار للدين وقمع الدجالين.

وافترقوا على ذلك، وأما الباشا فإنه لما أعطاهم البيورلدي [الأمر السلطاني] أرسل بيورلديا إلى إبراهيم بك وقيطاس بك يعرفهم ما حصل وما فعله العامة من سوء الأدب وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضي، وقد عزمت أنا والقاضي على السفر من البلد.

فلما قرأ الأمراء ذلك لم يقر لهم قرار وجمعوا الصناجق [المدراء] والأغوات [السادة] ببيت الدفتردار [وزير أو مسئول المالية]، وأجمعوا رأيهم على أن ينظروا هذه العصبة وينفى ذلك الواعظ من البلد)[1].

وما ذكره الجبرتي هنا يؤكد مدى نفوذ هذه الحركة شعبيا، وامتدادها جغرافيا، على نطاق أقاليم دار الخلافة كلها، وستبدأ بعد هذه الحادثة بعشرين سنة فقط دعوة الشيخين السندي في الحجاز، ومحمد بن عبد الوهاب في نجد، واللتان عبرتا عن وحدة الموقف الدعوي في أقاليم الخلافة تجاه الغلو في الموتى والقبور والخرافات!

٧) الشيخ صنع الله الحلبي المكي:

وهو الشيخ صنع الله الحلبي والفقيه الحنفي المكي الذي تصدى لعبد الغني النابلسي الذي هاجم دعوة الشيخ قاضي زاده وألّف الكتب في الرد عليها، فألّف صنع الله كتابه "سيف الله على من كذب على أولياء الله"، أبطل فيه الشبهات

(١) " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " ١/ ٨٣

التي أوردها النابلسي في كتابه: "كشف النور عن أصحاب القبور"، فقال صنع الله: (ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهممهم تنكشف المهمات، فيأتون قبورهم، وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات! وقررهم على ذلك من ادعى العلم بمسائل، وأمدهم بفتاوى ورسائل، وأثبتوا للأولياء -بزعمهم- الإخبار عن الغيب بطريق الكشف لهم بلا ريب، أو بطريق الإلهام أو منام! وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد نجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور. وهذا -كما ترى- كلام فيه تفريط وإفراط، وغلو في الدين بترك الاحتياط، بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه هذه الأمة)[١].

وقد توفي الشيخ صنع الله المكي سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٧م، وقد كشف في كتابه هذا -الذي ألفه سنة ١١١٧هـ- بداية عودة جماعات الغلو بالأولياء والموتى وقبورهم في عصره، بعد أن حُظرت في عهد السلطان مراد الرابع، وبيّن رأي علماء الأمة فيهم عامة، ورأي الفقهاء الحنفية خاصة. وقد ولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١١٥هـ، وذلك قبل وفاة الشيخ صنع الله بخمس سنين، وسيستشهد بأقوال الشيخ صنع الله بعد ذلك شيوخ الدعوة النجدية في ردهم

(١) "سيف الله على من كذب على أولياء الله" ط ١ ص ٢٢

على القبوريين؛ كما فعل الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب في كتابه "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد"؛ حيث استشهد بأقوال أئمة الحنفية وبصنع الله الحلبي فقال: (وقال الشيخ قاسم بن قطلبغا الحنفي في "شرح درر البحار": النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية، فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة ويقول: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه. منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر، إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربا إليهم فحرام بإجماع المسلمين. نقله عنه ابن نجيم في "البحر الرائق" في آخر كتاب الصوم. ومنه نقله المرشدي أيضا في "تذكرته" ونقله غيرهما عنه وزاد: وقد ابتلي الناس بهذا لا سيما في مولد أحمد البدوي.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء، وأثبت الأجر في ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله، فيكون باطلا.

وفي التنزيل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: صلاتي وذبحي لله، كما فسر به قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾)[1].

وقال: (وفي "الفتاوى البزازية" من كتب الحنفية، قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر.

فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع على كفر معتقد ذلك، وإن أراد علماء الحنفية خاصة، فهو حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك، وعلى التقديرين تأمله تجده صريحا في كفر من دعا أهل القبور؛ لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرون على إجابة سؤاله، وقضاء مأموله.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفا على الحياة وبعد الممات في سبيل..)[2].

وكذا استشهد به الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه "فتح المجيد" قال: (وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلا. وفي التنزيل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره..)[3].

(١) "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" ص ١٦٨

(٢) "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" ص ١٩٠

(٣) "فتح المجيد" ص ١٦٠

وكذا استشهد به الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في رده على ابن جرجيس؛ قال: (وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي، في رسالته في الرد على من زعم: أن الأولياء يدعون، ويتصرفون، على أن ذلك كرامة؛ قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط؛ بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة عقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة؛ والمقصود: أنه حكى إجماع الأمة على كفر من زعم ذلك)[1].

وقد عد الشيخ صنع الله هذا القول من (الشرك العظيم)[2]، وفرق بين الاستغاثة في الأمور العادية المقدورة للأحياء، وغير العادية وغير المقدورة لهم، وعد الاستغاثة بالأموات فيها شركا فقال: (والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه، كقولهم: يا لزيد! يا لقومي! يا للمسلمين! كما ذكروا ذلك في كتب النحو، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.

أما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض، وخوف الغرق، والضيق، والفقر، وطلب الرزق، ونحوه؛ فمن خصائص الله، فلا يذكر فيها غيره، قال جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فنفى دعاء غيره؛ فتعين انفراده به)[3].

---

(١) "الدرر السنية" ١٢/ ٢٠٤

(٢) "سيف الله على من كذب على أولياء الله" ط ١ ص ٣٦

(٣) المصدر السابق ص ٥٠

وقال أيضا: (فمن اعتقد أن لغير الله من نبي، أو ولي، أو روح، أو غير ذلك في كشف كربة، أو قضاء حاجة، تأثير؛ فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير...

قال جل ذكره: ﴿...أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ...﴾...

فإن ذكْر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر -من نبي، وملك، وولي، وغيرهم، على وجه الإمداد منه- إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره)[1].

وقال عن حرمة النذر للأموات والذبح لهم، أو عند القبور، وأن ذلك شرك: (فيقال: هذا الذبح والنذر؛ إن كان على اسم فلان وفلان، فهو لغير الله، فيكون باطلا، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾، وفي الحديث "لا نذر إلا فيما يبتغي به وجه الله تعالى" متفق عليه، وورد أن "من حلف بغير الله قد أشرك" رواه الحاكم وغيره)، ونحوه النذر لغير الله، وفي التنزيل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. فالنذر لغير الله كالذبح لغيره.

وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك: الركوع، والسجود، والذبح، والنذر، واليمين.

(١) "سيف الله على من كذب على أولياء الله" ط ١ ص ٥٨

ومن ذكر غير اسم الله على ذبيحة، فهي ميتة يحرم أكلها، ولو شرك مع اسمه تعالى أحدا، كقوله: بسم الله ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، بواو العطف، فكذا تحرم ذبيحته.

وكذا لو ترك اسم الله عمدا على الذبيحة، لا تؤكل عندنا، فهي ميتة؛ لصريح قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وترك المؤمن ذكره تعالى عمدا، كذكر غيره)[١].

وما ذكره صنع الله المكي الحنفي ونقل عن فقهاء الحنفية الاتفاق عليه، بل إجماع الأمة والمذاهب الأربعة، نص عليه كذلك أيضا أئمة الشافعية والحنابلة منذ القرن الهجري الخامس، حيث نصوا على أن النذر والذبح عبادة لا تكون إلا لله وحده، وحتى أفتى بعض الشافعية بأن الذبح تعظيما للسلطان شرك وكفر ووقع خلاف بين فقهاء قزوين بسبب ذلك!

وقال الإمام الرافعي الشافعي -ولد سنة ٥٥٥هـ وتوفي سنة ٦٢٣ هـ- في "العزيز شرح الوجيز للغزالي": (وفي تعليقة إبراهيم المروذي أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربا إليه، أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهلّ به لغير الله تعالى.

واعلم أن الذبح للمعبود وباسمه نازل منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم والعبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة، لم تحل ذبيحته، وكان ما يأتي به كفرا كمن سجد لغيره سجدة عبادة، وكذا لو ذبح له ولغيره على هذا الوجه.

(١) "سيف الله على من كذب على أولياء الله" ط ١ ص ٨٠

فأما إذ ذبح لغيره لا على هذ الوجه، كما إذا ضحى لغيره أو ذبح للكعبة تعظيما لها؛ لأنه بيت الله تعالى، أو للرسول ﷺ؛ لأنه رسول الله ﷺ فهذا لا يجوز أن يمنع الحل. وإلى هذا المعنى يرجع قول القائل: أهدى فلان للحرم أو للكعبة.

ومن هذا القبيل: الذبح عند استقبال السلطان فإنه استبشار لقدومه نازل منزلة ذبح العقيقة لولادة المولود، ومثل هذا لا يوجب الكفر، وكذا السجود للغير خضوعا وتذللا... وكانت وقعت مشاجرة بين جماعة ممن لقيناهم من فقهاء "قزوين". في أن من ذبح باسم الله واسم رسوله، هل تحل ذبيحته؟ وهل يكفر بذلك؟ وأفضت تلك المشاجرة إلى فتنة، والصواب ما بينا)[١].

وقال النووي في "الروضة": (ولا يجوز أن يقول الذابح والصائد: باسم محمد ولا باسم الله واسم محمد، بل من حق الله تعالى أن يجعل الذبح باسمه، واليمين باسمه، والسجود له، ولا يشاركه في ذلك مخلوق)[٢].

وكذا قال الإمام ابن عقيل الحنبلي المتوفى سنة ٥١٣هـ: (لما صعبت التكاليف على الجهال، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها، بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران، وتقبيلها وتخليقها [يعني تطييبها بالطيب والبخور ونحوه]، وخطاب الموتى بالحوائج وشد الرحال إليها)[٣].

وكل ما قرره الشيخ المحدث، والفقيه المحقق: صنع الله بن صنع الله الحنفي الحلبي المكي في كتابه "سيف الله" -الذي ذكر في مقدمته أن كل ما أورده من

(١) "العزيز شرح الوجيز للغزالي" ١٢/ ٨٤
(٢) "الروضة" ٣/ ٢٠٥
(٣) انظر "إغاثة اللهفان" ص ١٩٥

أقوال وعقائد هو قول أئمة المذاهب الأربعة وأهل السنة قاطبة- مما اشتهر في الحجاز قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بثلاثين سنة فقط!

٨) الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الحنبلي النجدي:

الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الحنبلي النجدي المتوفي سنة ١١٤٠هـ، وهو كما قال ابن حميد: (من أفاضل فقهاء نجد قرأ على علمائها بها، ثم ارتحل إلى الشام؛ فقرأ على علامتها وشيخ الحنابلة بها أبي المواهب، وأخذ عنه جمع منهم الشيخ صالح بن عبد الله بن محمد الصائغ العنيزي، كما ذكره في إجازته لأحمد بن شبانة، وسكن في المدينة إلى أن مات)[١]، وقال عبد الرحمن ابن عثيمين في تعليقه عليه: (مولده في المدينة النبوية وفيها وفاته سنة ١١٤٠هـ؛ وهو صاحب منزلة عالية في العلم سافر في طلبه إلى الشام والتقى بعلمائها، وأخذ عن جمع منهم ابن الصائغ العنيزي والشيخ أبي المواهب، والشيخ فوزان بن نصر الله النجدي، وأخذ عنه جمع من العلماء في مقدمتهم ابنه، وشيخ الإسلام المجدد محمد ابن عبد الوهاب)[٢].

وشيخه أبو المواهب الحنبلي الدمشقي ممن أخذ العلم عن الإسطواني والمغربي وغيرهم من جماعة قاضي زاده الحنفي.

قال عنه المرادي: (أبو المواهب بن عبد الباقي.. الحنبلي البعلي الدمشقي.. مفتي الحنابلة بدمشق، القطب الرباني، الهيكل الصمداني، الولي الخاشع التقي النوراني، شيخ القراء والمحدثين، فريد العصر، وواحد الدهر، كان إماما

---

(١) السحب الوابلة ١/ ٤٤

(٢)السحب الوابلة ١/ ٤٠

عاملا، حجة حبرا، قطبا خاشعا، محدثا ناسكا، تقيا فاضلا، علامة فقيها محررا، ورعا زاهدا، آية من آيات الله سبحانه وتعالى، صالحا عابدا، صافي العلوم، بحرا لا يدرك غوره، وكوكب بها على فلك التقى دوره، ولد بدمشق في رجب سنة أربع وأربعين وألف، ونشأ بها في صيانة ورفاهية وطواعية في كنف والده، وقرأ القرآن العظيم وحفظه وجود على والده ختمة للسبع من طريق الشاطبية، وختمه للعشر من طريق الطيبة والدرة، وقرأ عليه الشاطبية مع مطالعة شروحها وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من دمشق ومصر والحرمين.. وأخذ عنه الحديث والقراءات والفرائض والفقه ومصطلح الحديث والنحو والمعاني والبياني أممٌ لا يحصون عددا، وانتفع الناس به طبقة بعد طبقة، وألحق الأحفاد بالأجداد، ولم ير مثله جلدا على الطاعة مثابرا عليها.. وكان يسقى به الغيث، حتى استقي به في سنة ثمان ومائة وألف.. وكان لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يهاب الوزراء ولا غيرهم، وكانت وفاته في عصر يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال سنة ست وعشرين ومائة وألف)[1].

وقد كان أبو المواهب الحنبلي الدمشقي من شيوخ شيوخ محمد ابن عبد الوهاب، وقد وصفه ابن عبدالوهاب؛ كما في إسناده إليه بأنه "شيخ الإسلام"، وهو في الوقت ذاته ممن تأثر خطى قاضي زاده الحنفي وحركته الإصلاحية، وسينعكس ذلك على تلميذه عبد الله بن إبراهيم النجدي، الذي أثّر بدوره على تلميذه محمد بن عبد الوهاب، كما قال محمد كوري في كتابه "دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية": (أما الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي وهو محدث

(١) "سلك الدرر" ١/ ٦٧.

وفقيه حنبلي، من تلاميذ الشيخ أبي المواهب؛ فيعد من أبرز مشايخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ولد في المجمعة -وهي من قرى نجد -، وانتقل لاحقا مع والده إلى المدينة المنورة ليتلقى العلم على أيدي العلماء فيها، ثم سافر إلى دمشق لمواصلة تحصيله العلمي، وبعدها عاد إلى المدينة المنورة ليدرس فيها.

ويذكر بأن الشيخ عبد الله بن إبراهيم نقل علمه الذي تلقاه من الشيخ أبي المواهب في دمشق إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب عن طريق مؤلفات وإجازات تلقاها الإمام وقد وثق الإمام محمد بن عبد الوهاب الإجازات الممنوحة من طريق الشيخ أبي المواهب بخط يده مشيرا إلى الشيخ أبي المواهب بلقب: "شيخ الإسلام ومفتي الشام". هذا اللقب والتشريف الذي لقب به الإمام الشيخ أبا المواهب يدل على احترام كبير، ويدل أيضا على قوة الإجازة الممنوحة للإمام محمد بن عبد الوهاب من قبل شيخه عبد الله بن إبراهيم. كان الشيخ عبدالله قلقا بشكل واضح إزاء الوضع في نجد، وكانت لديه خطة لتغيير ذلك الواقع، وفي هذا الصدد نورد رواية مثيرة للاهتمام يسأل فيها الشيخ عبد الله بن إبراهيم تلميذه محمد بن عبد الوهاب: "أتريد أن أريك سلاحا أعددته للمجمعة [وهي بلدته في نجد]؟"، ثم أدخله منزلا فيه كتب كثيرة، وقال: "هذا الذي أعدّه لها"، ولكن توفي الشيخ عبد الله بن إبراهيم في المدينة قبل أن يذهب إلى المجمعة... يستنتج من هذا أن للشيخ عبد الله بن إبراهيم أثرا مهما في إيصال رؤيته عن نجد لتلميذه عن طريق إخباره بما تحتويه مكتبته، وما جمعه من علوم، وربما عن رغبته في التغيير الشامل، ويظهر أيضا تلميحا عابرا من الشيخ

لتلميذه باستخدام السلاح إذا اقتضى الأمر، مع التركيز بشكل أساسي على الدعوة العلمية.

دراسة الإجازات العلمية لمحمد بن عبد الوهاب تكشف أن مشايخه كانوا علماء الحديث الحنابلة في دمشق، في وقت تصاعد فيه نشاط جماعة قاضي زاده ليصل إلى القمة، وبعدها فقدوا فجأة ما حصدوه من مكاسب سياسية في إسطنبول.

يحتل الشيخ أبو المواهب مكانا بارزا بين شيوخ الحديث الحنابلة في دمشق، ومن بين تلاميذه يظهر الشيخ عبد الله بن إبراهيم، وهو أبرز وأهم من نقل رؤيته المستقبلية لنجد للإمام محمد بن عبد الوهاب. وقد أثّر الشيخ أبو المواهب على أجيال من العلماء، وهذا يظهر جليا في إطلاق الإمام محمد بن عبد الوهاب عليه لقب "شيخ الإسلام" عند توثيقه للإجازة المقدمة له من الشيخ عبد الله بن إبراهيم لتصل إلى الشيخ أبي المواهب.

وكان الشيخ أبو المواهب من تلاميذ اثنين من العلماء العرب المرتبطين بجماعة قاضي زاده: المغربي والإسطواني، ونظرا لهذا الارتباط العلمي الوثيق فالملفت للنظر هنا تشابه الرؤى بين الإسطواني ومحمد بن عبد الوهاب ولا سيما الطموح والأساليب)[١].

(١) "دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية" ص ١٣٠

٩) العلامة محمد حياة السندي الحنفي:

وهو الإمام محمد حياة بن إبراهيم الحنفي السندي المدني المتوفى سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م، قال عنه المرادي: (المدني الحنفي العلامة، المحدث الفهامة، حامل لواء السنة... ولد بالسند ببعض قراها ورغب في تحصيل العلم وهو بها ثم انتقل إلى تستر قاعدة بلاد السند، وقرأ على محمد معين بن محمد أمين، ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين، وتوطن المدينة المنورة ولازم الشيخ أبا الحسن بن عبد الهادي السندي وجلس مجلسه بعد وفاته أربعا وعشرين سنة)[١].

وقال عنه صديق حسن خان: (كان من العلماء الربانيين وعظماء المحدثين قرن العلم بالعمل، وزان الحسن بالحلل.

ولد بالسند، ورحل إلى الحجاز، وحج وتوطن مدينة النبي ﷺ، وتتلمذ على الشيخ: أبي الحسن السندي نزيل المدينة المكرمة، وبرع في الحديث، وأخذ الإجازة عن: خاتمة المحدثين الشيخ: عبد الله بن سالم البصري، وشد حزامه على درس الحديث النبوي، وأفنى عمره في خدمة الكلام المصطفوي، وكان يعظ الناس قبل صلاة الصبح بالمسجد الشريف، وانتفع به خلق كثير من العرب والعجم، وأقبل عليه: أهل الحرمين ومصر والشام والروم والهند بالاعتقاد والانقياد، وعاش عيشة مرضية، ولقي الله سبحانه يوم الأربعاء السادس والعشرين من صفر سنة ١١٦٣هـ، ودفن بالبقيع)[٢].

(١) "سلك الدرر" ٤/ ٣٤

(٢) "أبجد العلوم" ص ٦٦٥

وقال عنه الكتاني: (السندي الأصل، المدني المولد والوفاة، الحنفي المذهب، محدث الحجاز، حلاه في " النفس اليماني " الشيخ الحافظ " أخذ عن أبي الحسن السندي الكبير ولازم مجلسه بعد موته أربعا وعشرين سنة)[1].

وهو أشهر من نشر دعوة محدث الهند ومجددها العلامة ولي الله الدهلوي -المولود سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م، والمتوفى ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م- صاحب كتاب (حجة الله البالغة) و(البدور البازغة) و (البلاغ المبين) وغيرها من الكتب التي حذّر فيها من شرك القبور والتوسل بالموتى والبدع الدينية ودعا فيها إلى التجديد الديني العقائدي والفقهي، وقد كانت حركته الإصلاحية قد عمت الهند والمشرق الإسلامي في حياته وبعد وفاته، وكان أشهر من نشرها في جزيرة العرب تلميذه العلامة المحدث حياة الله محمد بن إبراهيم السندي، الذي درّس في المسجد النبوي ونشر فيها الحديث والسنة أربعا وعشرين سنة حتى توفي سنة ١١٦٣هـ.

وقد ولد الإمام ولي الله الدهلوي سنة ١١١٤ أو ١١١٠هـ، وقد نبغ في حياة أبيه، وتولى الإمامة والتدريس بعد وفاته وهو ابن ١٨ سنة تقريبا، واشتهر أمره وتوافد عليه الطلبة من كل أنحاء الهند قبل حجه سنة ١١٤٣ وهو ابن ثلاثين سنة، واشتهر أمره بمكة، وعاد إلى الهند سنة ١١٤٤ وبدأ بدعوته الإصلاحية التجديدية، وكان ذلك قبل بدء الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته في نجد بعشر سنين، حيث بدأ الشيخ محمد دعوته في نجد سنة ١١٥٣هـ، وكان السندي قد أخذ العلم عن الدهلوي قبل هجرته إلى المدينة التي عاش فيها نحو ثلاثين سنة، وتوفي فيها سنة ١١٦٣هـ، فلم يعمر كما عمّر شيخه الدهلوي الذي توفي سنة ١١٧٦هـ، فهو وشيخه متقاربان في سنة الولادة، وقد يكون عمر السندي يوم

(١) فهرس الفهارس ١/ ٣٥٦

وفاته خمسين سنة حيث لا يعرف سنة مولده، إلا أنه سمع الحديث في المدينة سنة ١١٣١هـ؛ كما في بعض الإجازات الحديثية التي كتبت له، وربما كان سنه حينها ١٦ أو ١٧ سنة فيكون مولده قريبا من مولد الدهلوي، أو أصغر منه قليلا، ولا يبعد أنه لقيه أيضا ولزم درسه حين حج الدهلوي سنة ١١٤٣هـ حيث جلس سنة كاملة في الحجاز، وكانت دعوة الدهلوي التجديدية قد اشتهرت آنذاك، وكذا كان سن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قريبا منهما، إلا أنه عمر بعدهما وعاش نحو تسعين سنة، وربما يكون ابن عبدالوهاب أيضا قد لقي الشيخ الدهلوي حين حج سنة ١١٤٣هـ، وليس هناك ما يمنع من أن يأخذ كل منهما عن الآخر وإن كانوا جميعا في سن واحدة، وقد توفرت للإمام الدهلوي بيئة علمية لم تتوفر لهما، وحاز من الفنون العقلية والنقلية ما لم يتوفر لهما، واشتهرت دعوته قبلهما، وقد حذر ولي الله الدهلوي من البدع التي تمارس عند القبور وشنع على القبوريين ورماهم بالشرك بالله وعبادة الطاغوت؛ كما في كتابه "التفهيمات الإلهية" حيث يقول: (كل من ذهب إلى قرية أجميرا، أو قبر سالار مسعود أو ما ضاهاها، لأجل حاجة يطلبها؛ فإنه آثم إثم أكبر من القتل والزنا، وليس مثله إلا مثل من كان يعبد المصنوعات، ويدعو اللات والعزى، إلا إنا لا نصرح بالتكفير؛ لعدم النص من الشارع على هذا الأمر المخصوص) [(١)]!

(١) "التفهيمات الإلهية" ٢/ ٣٥

وبعد أن حذر من شرك الاستعانة بغير الله، وطلب الحوائج من غيره مما لا يقدر عليها إلا الله كالرزق والشفاء ونحوها والإشراك بالدعاء والنذر والذبح، أعقبه بقوله : (ومن أعظم البدع ما اخترعوه في أمر القبور واتخاذها عيدا..)[١].

وقال وهو يعدد من انحرفوا عن الشريعة فذكر منهم: (أصحاب المعقول، والشعراء، وأصحاب الثروة من الناس، والعامة، الذين يعبدون الطواغيت ويتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد أو عيدا)[٢].

وقد سبقه إلى ذلك الإمام الفتني الهندي الحنفي المتوفى سنة ٩٨٧ هـ في كتابه "مجمع بحار الأنوار"؛ حيث قال: (كره مالك أن يقول "زرنا" قبره ﷺ، وعللوه بأن لفظ الزيارة صار مشتركا بين ما شرع وما لم يشرع، فإن من قصد بزيارة قبور الأنبياء والصلحاء أن يصلي عند قبورهم، ويدعو عندها، ويسألهم الحوائج، فهذا لا يجوز عند أحد من علماء المسلمين، فإن العبادة وطلب الحوائج والاستغاثة حق الله وحده)[٣].

ولا خلاف بين المؤرخين في أن السندي أخذ عن الدهلوي، وأن ابن عبدالوهاب أخذ عن السندي في المدينة النبوية وحمل عنه دعوته الإصلاحية، كما نص عليه ابن غنام في تاريخه، ولم يبدأ بدعوته إلا بعد رجوعه من المدينة وبعد أخذه العلم عن السندي وتأثره به، ولم يصدع بها إلا سنة ١١٥٣هـ بعد وفاة أبيه عبدالوهاب قاضي نجد آنذاك..

(١) "التفهيمات الإلهية" ٢/ ٦٣

(٢) "التفهيمات الإلهية" ٢/ ١٣٥

(٣) "مجمع بحار الأنوار" ٢/ ٤٤٤

وهكذا تلاقت في الحجاز وفي مكة والمدينة الحركتان الإصلاحيتان الحنفيتان دعوة الشيخ البركوي ووريثه الشيخ قاضي زاده القادمة من إسطنبول غربا، وحركة ولي الله الدهلوي ووريثه السندي القادمة من الهند شرقا! وسيكون لهما أكبر الأثر في ظهور حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي درس في المدينة على الشيخ محمد حياة السندي، وسأله يوما عما يفعل الناس عند قبر النبي ﷺ من بدع واستغاثة [1] فأجابه شيخه بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهي الكلمة التي ستوقد في نفس ابن عبدالوهاب نار الحمية الدينية، وستجعل منه إماما للدعوة الإصلاحية النجدية!

وقد كان أشهر من أخذ عن الشيخ السندي العلم: محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي، ومحمد بن إسماعيل الصنعاني اليماني -ولد بصنعاء سنة ١٠٩٩هـ، وتوفي في شعبان سنة ١١٨٢هـ- فعمت الدعوة الإصلاحية التجديدية بعد ذلك جزيرة العرب كلها، في الحجاز ونجد واليمن، وهي حركة إحيائية تدعو إلى العودة إلى التوحيد والسنة ونبذ البدع والشركيات والخرافات وعبادة الموتى، ولم يخرج محمد بن عبد الوهاب ولا محمد بن إسماعيل في دعوتهما تلك عما دعا إليه شيخهما السندي، وشيخه العلامة ولي الله الدهلوي في الهند، وقبله البركوي وقاضي زاده في إسطنبول، كما هو واضح جلي لمن قرأ تاريخ الدعوة الإسلامية الإصلاحية في القرون المتأخرة.

(١) تاريخ ابن بشر ١/ ٣٦

١٠) الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي:

وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي النجدي، المولود سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م، والمتوفى ١٢٠٦هـ/١٧٩١م، وقد كانت دعوته الإصلاحية امتدادا لدعوة شيخيه محدثي الحجاز والمدينة النبوية الشيخ عبدالله بن إبراهيم الحنبلي النجدي، والشيخ محمد حياة الحنفي السندي، وكان الحجاز كباقي أقاليم جزيرة العرب يخضع لسلطة الدولة العثمانية، التي بعثت الإصلاح الديني منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية، وبنى مدارسها العلمية فيها، وأوقف الأوقاف عليها، لتخرج أكابر الفقهاء، وكان من أشهرهم: البركوي وقاضي زاده وغيرهم من المجددين، وهذا ما يفسر عدم رفض أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد، ثم الشريف غالب وعلماء الحرمين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -من حيث المبدأ كدعوة دينية وإن رفضها الشريف غالب لاحقا لأسباب سياسية- إذ كانت هذه الدعوة الإصلاحية معروفة مشهورة في الحجاز منذ تصدى لنشرها الشيخ الروداني المغربي والشيخ صنع الله الحنفي بمكة، والسندي في المسجد النبوي، ومن الحجاز خرجت إلى نجد!

وقد توجه الشيخ ابن عبد الوهاب -بعد فراغه من المدينة النبوية وأخذه عن الشيخين النجدي والسندي وتأثره بدعوتهما، وتنديده بمن يتوسلون بالقبور كما في رسالة شيخه السندي "إبطال الضرائح"- إلى البصرة وهناك جرت له أول مواجهة مع أهل القبور[1]؛ فكان بهذه الدعوة امتدادا للدعوة

---

(١) تاريخ ابن غنام ص ٨٢

التي اشتهرت في عاصمة الخلافة العثمانية إسطنبول منذ عصر البركوي وقاضي زادة والأسطواني والواني!

كما تأثر الشيخ محمد بعلماء السنة في العراق، ومنهم الشيخ محمد المجموعي، وذكر حفيده عبد الرحمن بن حسن بأنه عرف هذه الدعوة في العراق، وصنّف كتابه التوحيد في رحلته إلى البصرة، قبل أن يرحل إلى المدينة! ويبعد أن يكون رحل إلى العراق قبل الحجاز، ويحتمل أنه رحل إلى البصرة مرارا في طلب العلم، وكذا رحل إلى المدينة ومكة مرارا للحج ولقاء الشيوخ.

كما قال حفيده عبد الرحمن بن حسن في رده على ابن منصور؛ وفيه بيان بدء تأثره بهذه الدعوة الإصلاحية بعد رحلته إلى العراق: (وعلت همته إلى طلب التفسير والحديث، فسافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان بها من العلماء، فأظهر الله له من أصول الدين، ما خفي على غيره، وكذلك ما كان عليه أهل السنة، في توحيد الأسماء والصفات والإيمان... فصنّف في البصرة كتاب "التوحيد"، الذي شهد له بفضله بتصنيفه القريب والبعيد، أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث. ثم إن شيخنا رحمه الله تعالى، بعد رحلته إلى البصرة، وتحصيل ما حصل بنجد، وهناك رحل إلى الأحساء، وفيها فحول العلماء، منهم: عبد الله بن فيروز، أبو محمد الكفيف. ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم ما سرّ به، وأثنى على عبد الله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد.. ثم إن شيخنا رحمه الله رجع من الأحساء إلى البصرة، وخرج منها إلى نجد قاصدا الحج، فحج رحمه الله تعالى، وقد تبين

له بما فتح الله تعالى عليه، ضلال من ضل، باتخاذ الأنداد، وعبادتها من دون الله، في كل قطر وقرية، إلا من شاء الله.

فلما قضى الحج وقف في الملتزم، وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته، وأن يرزقه القبول من الناس، فخرج قاصدا المدينة مع الحاج يريد الشام، فعرض له بعض سراق الحجيج، فضربوه وسلبوه، وأخذوا ما معه وشجوا رأسه، وعاقه ذلك عن مسيره مع الحجاج.

فقدم المدينة بعد أن خرج الحاج منها، فأقام بها، وحضر عند العلماء إذ ذاك، منهم محمد حياة السندي، وأخذ عنه كتب الحديث إجازة في جميعها، وقراءة لبعضها)[(١)].

وقال الشيخ ابن باز عن الشيخ ابن عبد الوهاب وتأثره بالشيخ ابن سيف النجدي، وبالشيخ حياة السندي، وبالشيخ ولمجموعي العراقي: (ثم بعد بلوغ الحلم حج وقصد بيت الله الحرام، وأخذ عن بعض علماء الحرم الشريف، ثم توجه إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فاجتمع بعلمائها، وأقام فيها مدة، وأخذ عن عالمين كبيرين مشهورين في المدينة ذلك الوقت، وهما: الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، أصله من المجمعة، وهو والد الشيخ إبراهيم بن عبد الله صاحب "العذب الفائض في علم الفرائض"، وأخذ أيضا عن الشيخ الكبير محمد حياة السندي بالمدينة. هذان العالمان ممن اشتهر أخذ الشيخ عنهما بالمدينة، ولعله أخذ عن غيرهما ممن لا نعرف.

---

(١) "الدرر السنية في رسائل الدعوة النجدية" ١٢/ ٦

ورحل الشيخ لطلب العلم إلى العراق، فقصد البصرة واجتمع بعلمائها، وأخذ عنهم ما شاء الله من العلم، وأظهر الدعوة هناك إلى توحيد الله، ودعا الناس إلى السنة، وأظهر للناس أن الواجب على جميع المسلمين أن يأخذوا دينهم عن كتاب الله، وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وناقش وذاكر في ذلك، وناظر من هنالك من العلماء واشتهر من مشايخه هناك شخص يقال له الشيخ محمد المجموعي، وقد ثار عليه بعض علماء السوء بالبصرة، وحصل عليه وعلى شيخه المذكور بعض الأذى، فخرج من أجل ذلك، وكان من نيته أن يقصد الشام، فلم يقدر على ذلك لعدم وجود النفقة الكافية، فخرج من البصرة إلى الزبير، وتوجه من الزبير إلى الأحساء واجتمع بعلمائها وذاكرهم في أشياء من أصول الدين)[1].

فلم يكن ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته في نجد طفرة بلا مقدمات، بل كان ثمرة نهضة علمية وإصلاحية كبرى عمت العالم الإسلامي كله آنذاك منذ عصر البركوي ثم قاضي زاده، خاصة في عواصمه العلمية كإسطنبول والقاهرة ودمشق وبغداد ومكة والمدينة، وكان لفقهاء الحنفية، في الخلافة العثمانية وخارجها، كما في الهند، أكبر الأثر، وقصب السبق في إحيائها، وهو ما أدركه الباحثون الغربيون أنفسهم حيث (يرى الباحث جون فول في مقاله عن محمد حياة السندي (ت ١١٦٣هـ - ١٧٥٠م) معلم محمد بن عبد الوهاب، في أثناء وجوده في المدينة، أن تيار ابن عبد الوهاب كان جزءا من موجة نهوض إسلامي امتدت من إندونيسيا إلى المغرب، ولم تتخذ دائما

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٣٥٦

صيغة حنبلية، بل تشكلت بموجب بيئة كل بلد وتكيفت خلال التفاعل مع ظروف ذلك البلد. وبيّن أن قادة هذه الحركات تأثروا غالبا بمدارس الحديث التي سادت في مكة والمدينة. فشاه ولي الله الدهلوي (١١١٠-١١٧٦ هـ/ ١٦٩٩-١٧٦٢م) الشهير في الهند، درس الحديث على أبو الطاهر محمد بن إبراهيم الكوراني، وهو أحد معلمي محمد حياة السندي. ومن تلاميذه أيضا الشيخ يوسف الذي قاد لتمرد ضد الهولنديين في إندونيسيا ونفي إلى جنوب أفريقيا، وعبد الرؤوف الذي أثر كثيرا في حركة النهوض الإسلامي الصوفي في سومطرة، وبيّن الباحث أن سلفية ابن تيمية أثّرت في ابن عبد الوهاب، لكن تعاليم ابن تيمية لم تكن الروح السائدة بين الحنابلة في المشرق العربي في القرن الثامن عشر، على الرغم من وجود أحياء وبلدات حنبلية بكاملها في البقاع في لبنان ودمشق وريف دمشق ومنطقة نابلس مثلا. وقد تأثر ابن عبد الوهاب بمصادر أخرى مثل محمد حياة السندي، وهو محدث ومعلم حنفي في المدينة، علمه رفض تقديس الأضرحة والأولياء ورفض البدع، مع أنه كان حنفيا وعلى علاقة بالطريقة النقشبندية وهو جزء من شبكة كبيرة من العلماء امتدت بين مصر ومكة والمدينة وبلاد الشام. ويعدد الكاتب ٢٤ عالما منهم، لم يكن أي منهم حنبليا بل نواتهم من الشافعية وبينهم بعض المالكية والحنفية)[١].

وقد صدع محمد بن عبدالوهاب بدعوته بعد وفاة والده سنة ١١٥٣هـ، وقبل وفاة شيخه السندي بعشر سنين، وذلك في ولاية الشريف مسعود بن سعيد الثانية على مكة إلى وفاته سنة ١١٦٥هـ، كما قال مؤرخ مكة البكري في ذيله

(١) كتاب السلفية لعزمي بشارة

على تاريخ مكة للفاسي: (واستمر الناس في ولايته مطمئنين فتوفي في يوم الجمعة الثاني من ربيع الثاني من سنة ١١٦٥هـ.

وتولى بعده الشريف مساعد بن سعيد ونودي له في البلاد وعرفوا بذلك الدولة العليلة؛ فجاءه التأييد في ست وعشرين من شعبان وألبس الخلعة بالحطيم... ثم استمر وانقادت له الأمور إلى سنة ١١٧١هـ...

وتولى أخوه الشريف جعفر بن سعيد إمارة مكة وألبس القفطان في السنة المذكورة.

ثم بعد توجه الحجاج والقوافل نزل الشريف جعفر بالإمارة لأخيه الشريف مساعد؛ وذلك في اليوم الرابع عشر من المحرم الحرام من سنة ١١٧٢هـ وبقي هو في ذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم الحرام من سنة ١١٨٤هـ...

فبعد وفاته ولي إمارة مكة أخوه الشريف عبد الله بن سعيد. فألبسه قاضي الشرع الشريف ونودي له في البلاد، ثم نزل عنها لأخيه الشريف أحمد بن سعيد وبقي أياما ثم في يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول من العام المذكور وصل مكة أبو الذهب محمد بيك من مصر؛ فعزل الشريف أحمد بن سعيد، وجلس على كرسي الولاية والإمارة الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات بن محمد بن بركات بن أبي نمي، وحسين والد هذا الأمير ينسب إليه ذوو حسين من الأشراف، ونودي باسمه في البلاد، وتوجه الشريف أحمد بن سعيد السابق إلى اليمن، ثم جاء إلى مكة لأخذ الثأر من الشريف عبد الله بن حسن السابق الأمير ومعه من العربان جمع غفير فحصل بينهما القتال فانهزم

الشريف عبد الله بن حسين، ودخل مكة الشريف أحمد بن سعيد في الثاني عشر من جمادى الثانية من السنة المذكورة سنة ١١٨٤هـ أربع وثمانين ومائة وألف، وبقي إلى أن حصل النزاع فيما بين الشريف أحمد بن سعيد الأمير وبين ابن أخيه الشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن مسعد بن زيد يوم السبت ثلاثة عشر من ذي القعدة من سنة ١١٨٦هـ، وأدى إلى القتال؛ فانهزم الشريف أحمد ودخل مكة المشرفة الشريف سرور بن مساعد يوم السبت ثالث عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة، ونودي له في شوارع مكة، وأمنت البلاد.

ولم يزل الشريف سرور في إمارة مكة إلى سنة ١٢٠٢هـ حتى توفي في اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الثاني من العام المذكور.

وتولى إمارة مكة أخوه الشريف عبد المعين بن مساعد، ونودي له بذلك وبقي أياما، ثم نزل عنها لأخيه الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن مسعد بن زيد جد ذوي غالب، وجاءته الخلعة السلطانية في التاسع والعشرين من ذي القعدة من العام المذكور، وقد حصل في أيامه الحركة الإصلاحية الوهابية المنسوبة إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي، ودام القتال معه مدة المواسم...

ثم صفا الوقت والزمان للشريف غالب المذكور إلى أن وصل محمد علي باشا جد العائلة الخديوية بمصر مكة المشرفة. واحتفل به الشريف غالب احتفالا تاما غير أن الباشا المذكور كان مأمورا من طرف الدولة العثمانية بالقبض على الشريف غالب الأمير وإرساله إلى الأستانة العلية)[1].

(١) "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" ٢/ ٣٧١

ولم يحدث طوال هذه المدة -التي بدأ الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته فيها بنجد سنة ١١٥٣هـ، حتى وفاته ١٢٠٦هـ، ووفاة أمير الدرعية محمد بن سعود قبله- أي صراع مع أشراف الحجاز، حيث تتابع على إمارة مكة خلالها الشريف مسعود بن سعيد، ثم أخوه مساعد بن سعيد، ثم أخوه جعفر بن سعيد، ثم عاد مساعد مرة أخرى أميرا حتى وفاته، ثم خلفه أخوه عبدالله بن سعيد، ثم أحمد بن سعيد، ثم خلفه ابن أخيه سرور بن مساعد بن سعيد، حتى توفي سنة ١٢٠٢هـ، ثم عبد المعين بن مساعد، فلم يحدث طول هذه المدة وهي أكثر من نصف قرن صراع أو نزاع بين الطرفين، بل كانت العلاقة بينهما طيبة والدعوة إلى الإصلاح الديني مقبولة من أشراف الحجاز الذين اشتهرت هذه الدعوة في أرضهم بمكة والمدينة، قبل أن تخرج منها إلى نجد على يد محمد بن عبدالوهاب!

وقد اشتهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لأنها خرجت عن كونها دعوة إحياء وإصلاح دينية إلى حركة سياسية استخدمت السلطة لإقامة مشروعها الإصلاحي، كما فعل الشيخ قاضي زادة؛ فكان تأثيرها أوسع من تأثير حركة الدهلوي العلمية الفكرية الدينية التي لم تسعفها السلطة.

الخلافة العثمانية والدعوة الوهابية:

ولم يخرج ابن عبدالوهاب في كل ما دعا إليه عن أصول المذهب الحنبلي وفروعه، ولم يخرج على الخلافة العثمانية ولم يكفرها كما اتهمه خصومه، بل ظل يدين هو ومحمد بن سعود للخلافة بالطاعة، حتى وفاتهما، ولم يخرجا

عليها، ولم يقاتلا أحدا من ولاتها، ورسائله تؤكد اعترافه هو والأمير محمد بن سعود بالطاعة للشريف أحمد بن سعيد أمير مكة، كما خاطباه بالخدمة في رسالتهما المذكورة في الدرر السنية: (رسالة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبد العزيز بن سعود إلى والي مكة:

وفي سنة ١١٨٤هـ، أرسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، إلى والي مكة وكتبا إلى الوالي المذكور، رسالة، هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

المعروض لديك، أدام الله أفضل نعمه عليك:

حضرة الشريف أحمد بن الشريف سعيد أعزه الله في الدارين، وأعز به دين جده سيد الثقلين، أن الكتاب لما وصل إلى الخادم، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومن تبعها، وعداوة من خرج عنها، وهذا هو الواجب على ولاة الأمور... وغير ذلك يعلم الشريف أعزه الله أن غلمانك [يقصد الأمير محمد بن سعود ونفسه] من جملة الخدام، ثم أنتم في حفظ الله وحسن رعايته)(١).

وإنما وقع الخلاف بعد ذلك مع أمير مكة بعد وفاة كل من الأمير الأول محمد بن سعود، ووفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -الذي اعتزل الشأن العام وتفرغ للعبادة قبل وفاته بسنوات- وقبيل وفاة الأمير الثاني للدرعية عبدالعزيز بن محمد بن سعود، حين دخل ولده الأمير الثالث سعود بن عبدالعزيز بن محمد

(١) الدرر السنية في رسائل الدعوة النجدية ١/ ٥٥

بن سعود مكة والمدينة، وقاتل الشريف غالب أمير مكة وذلك سنة ١٢١٨هـ، ثم دخلها سعود وصارت تحت ولايته وأقر الشريف عليها نائبا عنه، وأرسل للخليفة -السلطان محمود الثاني الذي تولى الخلافة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م حتى توفي سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م- يعترف له بالولاية العامة وبحقه بتولية قاضي مكة، حتى توفي سعود سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، وتولى الإمارة بعده ابنه عبدالله الذي واجه قوات إبراهيم بن محمد أربع سنوات مع اعترافه بالطاعة للخلافة، حتى حاصروه في الدرعية واستسلم ونُقل لإسطنبول وأُعدم فيها سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م.

وقد كتب عبد الله رسالة إلى محمد علي والي مصر يقر فيها بالطاعة للخلافة العثمانية، وينفي الاتهامات المفتراة عليهم في شأن الخروج عليها، وذكر سبب حربهم مع أمير مكة.

وقد كانت الدرعية في حياة الشيخ محمد نفسه منذ بدء دعوته ١١٥٣هـ إلى وفاته سنة ١٢٠٦هـ، تتبع الحجاز، خاصة بعد الحرب مع العيينة بلد الشيخ ابن عبد الوهاب التي أخرجه منها أميرها ابن معمر بأمر من ابن غرير الوالي على الأحساء، وكان ابن غرير والشريف يتنازعان النفوذ على نجد، مع تبعيتهما كليهما (الأحساء والحجاز) جميعا للدولة العثمانية، وكانت الدرعية مركز الدعوة الوهابية آنذاك بلدة صغيرة تعترف بالطاعة لشريف مكة التابع للخلافة العثمانية؛ كما في رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشريف أحمد بن سعيد المذكورة سنة ١١٨٤هـ، ورسالته إلى الشريف غالب سنة ١٢٠٤هـ وفيها: (فلما طلب منا الشريف غالب أعزه الله ونصره امتثلنا).

وكانت الدولة العثمانية قد ولت محمد بن سعود نفسه أميرا على الدرعية سنة ١١٣٩هـ تابعا للأحساء، ثم للحجاز.[١]

ولم يجد الشريف غالب حين جاءه الوفد النجدي وعرضوا عليه دعوتهم ما يقدح فيها، إذ كل ما فيها مما سبق أن دعا إليه الشيخ الروداني المغربي والشيخ صنع الله الحنفي بمكة، والمحدث محمد حياة السندي بالمدينة، واشتهر عنه وعن غيره من الفقهاء، وكانت هذه الرسالة قبل وفاة الشيخ ابن عبد الوهاب بسنة، كما في الدرر السنية: (رسالة الشيخ ابن عبدالوهاب إلى علماء مكة وإجابة الأمير عبد العزيز للشريف غالب:

وفي سنة ١٢٠٤ هـ، أرسل: غالب إلى الإمام عبد العزيز رحمه الله، يطلب منه أن يرسل إليه رجلا من أهل العلم، يبحث مع علماء مكة المشرفة، فأرسلا إليه، وكتب الشيخ رحمه الله هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الوهاب إلى العلماء الأعلام في بلد الله الحرام، نصر الله بهم دين سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد:

جرى علينا من الفتنة ما بلغكم، وبلغ غيركم، وسببه: هدم بناء في أرضنا على قبور الصالحين، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين، وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله. فلما أظهرنا هذه المسألة، مع ما ذكرنا من هدم البناء على القبور،

(١) انظر الدولة العثمانية المجهولة ص ٣٧٥.

كبر على العامة، وعاضدهم بعض من يدعي العلم، لأسباب ما تخفى على مثلكم، أعظمها اتباع الهوى، مع أسباب أخر.

فأشاعوا عنا: أنا نسب الصالحين، وأنا على غير جادة العلماء، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب، وذكروا عنا أشياء يستحي العاقل من ذكرها؛ وأنا أخبركم بما نحن عليه، بسبب أن مثلكم ما يروج عليه الكذب، ليتبين لكم الأمر، وتعلموا الحقيقة.

فنحن -ولله الحمد- متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وتعلمون -أعزكم الله- أن المطاع في كثير من البلدان، لو يتبين بالعمل بهاتين المسألتين، أنها تكبر عند العامة، الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك، وأنتم تعلمون -أعزكم الله- أن في ولاية أحمد بن سعيد، وصل إليكم الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله، وأشرفتم على ما عندنا، بعدما أحضروا كتب الحنابلة، التي عندنا عمدة، وكالتحفة، والنهاية عند الشافعية، فلما طلب منا الشريف غالب -أعزه الله ونصره- امتثلنا أمره، وأجبنا طلبه، وهو إرسال رجل من أهل العقل والعلم، ليبحث مع علماء بيت الله الحرام، حتى يتبين له -أعزه الله- ما عندنا، وما نحن عليه.

ثم اعلموا وفقكم الله: إن كانت المسألة إجماعا، فلا نزاع، وإن كانت مسائل اجتهاد، فمعلومكم أنه لا إنكار في من يسلك الاجتهاد؛ فمن عمل بمذهبه في محل ولايته، لا ينكر عليه. وأنا أشهد الله وملائكته، وأشهدكم أني على دين الله ورسوله، وإني متبع لأهل العلم، غير مخالف لهم، والسلام)[1].

(١) الدرر السنية ١/ ٥٦

فهذه الرسالة تتضمن اعترافا صريحا من الشيخ محمد بن عبدالوهاب بولاية أمير مكة، وباحترام كبير لعلماء بلد الله الحرام الأعلام، وأنه متبع لأهل العلم وليس بمبتدع -لأنه أصلا حمل هذه الدعوة من علماء الحرمين كشيخه السندي وابن سيف النجدي- وبأنه لم يخرج عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولم يتجاوز حدود ولايته وهي إمارة الدرعية وما تبعها، وأن ما يشاع عنهم من سب الصالحين والابتداع في الدين كذب.

هذا وقد مرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في علاقتها مع أمير مكة التابع للخلافة العثمانية بثلاثة أطوار:

الطور الأول للدعوة الوهابية:

لم تتجاوز الدعوة الوهابية في طورها الأول في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب حدود نجد الوسطى، وقد توفي الشيخ محمد قبل دخول سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز بأكثر من عشر سنين، ولم تكن هناك آنذاك دولة وهابية أو سعودية أولى وثانية، كما جرى تصويره في التاريخ المعاصر، بل كانت هناك دعوة دينية إصلاحية مدعومة من أمير الدرعية، وهي إحدى بلدان إقليم اليمامة، وكانت نجد كلها بما فيها اليمامة جزءا من جزيرة العرب التي هي من أقاليم وولايات الدولة والخلافة العثمانية التي كانت جيوشها وحامياتها موجودة في مدنها الرئيسية كمكة والمدينة وجدة والأحساء واليمن، ولم تكن الدولة العثمانية تأبه بما يجري في المناطق الصحراوية وبين القرى والقبائل النائية من وقائع داخلية لا تؤثر في استقرار الدولة، أو تخرج عن سلطانها، وهو ما عبّر عنه عبدالله بن سعود الذي بلغت الدعوة الوهابية

في عصره أوجها في رسالته للسلطان محمود الغازي وفيها: (سيدنا السلطان محمود الغازي، وأقدم عريضتي هذه المشتملة على الضراعة.. فإن كل ما نسب إلى عبدكم هذا من أمور الطغيان والخروج كلها ناشئ عن خدعة الشريف.. على أن لا أنفك عن قيد الطاعة، وأن أعد من عبيدكم القائمين بجميع خدمات الدولة العلية، فهي برهان قاطع يشهد بأني قائم بالدعوات في الأعياد والمحافل وعلى المنابر بدوام عمركم ودولتكم)[1].

كما أرسل عبدالله بن سعود رسالة لمحمد علي باشا يؤكد تبعيته للخلافة كما كان أسلافه؛ قال فيها:

(وبعد: فغير خافٍ على جنابكم حقيقة ما نحن عليه، وما ندعو الناس إليه: أننا جاهدنا الأعراب حتى أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وألزمناهم صيام رمضان، وحج بيت الله الحرام. ومنعناهم عن ظلم العباد، والسعي في الأرض بالفساد، وعن قطع السبيل والتعرض لحجاج بيت الله الحرام من الوافدين، فبعد ذلك شكوا إلى والي مكة غالب ورمونا بالكذب والبهتان، وخرّجون (أي: اتهمونا بأننا خوارج)، وبدعونا، وقالوا فينا ما نحن منه براء، فسير علينا بأجناد وعدد وعدة فأعجزه الله وله الحمد والمنة، فقاتلناهم دفعا لشره، ومقابلة لفعله القبيح ومكره، فرده الله بغيظه لم ينل خيرا، واستولينا على الحرمين الشريفين وجدة وينبع، فلما تمكنا من أوطانه فعلنا معه كل جميل، وأقررناه على ما كان تحت يده من البلدان، ووجهنا مدخول البنادر [الموانئ] إليه، وأكرمناه غاية الإكرام توقيرا للنسب الشريف، وتعظيما للبلد الحرام).

(١) كتاب "الدولة السعودية الأولى" لعبدالرحيم عبدالرحيم ص٣٩٢-٣٩٣.

كما نفى عبدالله بن سعود ما زور باسمه من رسائل إلى السلطان العثماني فقال: "فعلمنا أنه مطلوب الدولة العلية صيانة الممالك الإسلامية، لاسيما الأقطار الحجازية، ومن أعظمها صيانة الحرمين الشريفين، والذود عن حماها الأحمى بلا ريب.. ومنها الدعاء بحضرة سلطان السلاطين -نصره الله تعالى- على المنابر، وكف يد الأذى عن الوارد إلى الممالك المحروسة والصادر").

كما كتب طوسون ابن محمد علي رسالة إلى أبيه فيها اعتراف عبد الله بالتبعية للخلافة العثمانية قال فيها: (عبدالله ندم على ما فات، وقرر اتخاذ موقف الحياد، وعدم التعرض بوجه من الوجوه لأي قبائل أو عربان ما عدا عربان الدرعية، وأعلن قبوله بأن تصبح البلاد كلها مستظلة بظل الدولة العلية، وتحت جناح عدالتها، رافعة لواء الطاعة والخضوع، وأن يذكر دائما اسم الذات العلية الشاهانية في كافة المحافل والمنابر والقراءات والأدعية، وأن يتمسك بهذه الطريقة في المستقبل فلا ينحرف عنها، وإنما يلتزم جادة الصلاح والطاعة فلا تدور على الألسنة أي كلمات خلاف التي نص عليها الشرع الشريف والقرآن الحكيم، وأن تترك تماما تلك الألفاظ والعبارات التي يتلفظ بها العربان متحدين بها المخالفين لهم... وقد تعهد ببذل مساعيه الجدية في سبيل تنفيذ الأوامر العلية السلطانية والقيام بما تأمر به من خدمات دون إهمال أو تقصير).

فثبت بذلك أن إمارة الدرعية في نجد ودعوتها الإصلاحية، لم تخرج عن التبعية للخلافة العثمانية، بل ظلت تخضع لولايتها السياسية، وأن الاقتتال الذي حصل بينهم وبين الشريف غالب -حصرا دون غيره من أمراء مكة الذين

قبله وبعده- كان بسبب منعه لهم من الحج، وعدوانه عليهم، حيث أرسل قواته من مكة إلى نجد، فقاتله عبد العزيز ثم ابنه سعود قتال دفع حتى نصرهم الله عليه لبغيه؛ كما ورد في تاريخ دحلان، وفيه ((ذكر قتال الشريف غالب للوهابية سنة ١٢٠٥هـ: فلما تولي مولانا الشريف غالب استأذنوه -الوهابية- في الحج فمنعهم وتهددهم بالركوب عليهم، واتبع القول بالفعل؛ لأنهم ظهر أمرهم وتطاير شررهم، فأراد دفعهم عن الوصول إلى حرم الله تعالى وفعل كل ما أمكنه حتى عجز، فجزاه الله خيرا.

ولنذكر الوقائع التي كانت بينه وبين هذه الطائفة، فإنها تنوف عن خمسين واقعة من سنة خمس ومائتين وألف إلى سنة عشرين ومائتين وألف.

الغزية الأولى:

فأول غزية كانت في سنة خمس ومائتين وألف، أرسل عليهم خيلا وركابا وجنودا كثيرة من السادة والأشراف... وصار يدخل تحت طاعته القبائل ويملك القرى قرية بعد قرية حتى وصل إلى عريق الدسم، فشرع يملك قرى نجد بعضها بقتال وبعضها بدون قتال، فملك ضرية وهي أول قرية من قرى نجد، فذبح منها أحد عشر رجلا، وهرب منهم جماعة وأسر جماعة، ثم ارتحل إلى قرية يقال لها مسكة، فهرب أهلها فصيرها ملكه، ثم ارتحل منها وأناخ بقرية سواج فهرب أهلها، ثم ارتحل إلى أثلة ثم إلى قرية وضاح، فطلب أهلها الأمان وكذا أهل قرية البكيرية ثم ارتحل، ونزل على عنيزة قرية بسام وكان أهلها في حصن حصين فحاصرهم أياما ثم انتقل عنها؛ لأن المدة طالت، وسئم من كان

معه من الأشراف والجنود وأراد كثير من الأشراف الرجوع، بل توجه كثير منهم بالفعل قاصدين الرجوع إلى أم القرى؛ لأن المدة بلغت نصف عام)[١].

وهذا اعتراف صريح من دحلان مؤرخ مكة وأشد أعداء الدعوة الوهابية بأن الشريف غالب هو من ابتدأ غزو قرى نجد سنة ١٢٠٥هـ بعد أن منعهم من الحج، وأنه اعتدى عليهم، وقتل وأسر بغير وجه حق؛ ولهذا السبب صدر الأمر من الخلافة العثمانية إلى محمد علي والي مصر باعتقال الشريف غالب أمير مكة أيضا لإثارته الفتنة بين الحجاز ونجدا!

وقال دحلان عن دخول محمد علي باشا بقواته إلى الحجاز واستعادته لها ورجوعه إلى مصر سنة ١٢٣٠هـ: (وأبقى ابنه طوسون باشا مع العساكر بالحجاز وفي شهر شعبان انعقد صلح بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود على ترك الحروب والقتال وأنه يذعن بالطاعة وتحتقن الدماء، وأرسل نحو العشرين من الوهابية لطوسون باشا لعقد الصلح فأرسل منهم إلى مصر لمحمد علي باشا فلم يعجبه هذا الصلح، ولم يرتض به، ولم يحسن نزل الواصلين إليه، واجتمع به اثنان منهم فخاطبهما وعاتبهما على المخالفة فاعتذرا بأن الأمير سعود المتوفي كان فيه عناد وحدة مزاج و كان يريد الملك وإقامة الدين، وأما ابنه الأمير عبدالله فإنه لين الجانب والعريكة ويكره سفك الدماء على طريقة جده عبدالعزيز فإنه كان مسالما للدولة حتى أن الوزير يوسف باشا حين كان بالمدينة كان بينه وبينه غاية الصداقة ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة في شيء، ولم يحصل التفاقم والخلاف إلا في أيام الأمير سعود، ومعظم الأمر للشريف غالب

(١) "خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام" ص ٣٤٧

بخلاف الأمير عبد الله، فإنه أحسن السيرة، وترك الخلاف، وأمن الطرق والسبل للحجاج والمسافرين ونحو ذلك من العبارات والكلمات المستحسنات وانقضى المجلس وانصرفا إلى المحل الذي أمرا بالنزول فيه)[١].

ففي هذه شهادة من دحلان -وهو من أشد أعداء الدعوة الوهابية- بأنه لم يكن هنا خلاف ولا شقاق بين محمد بن سعود، ولا ابنه عبد العزيز مع الخلافة العثمانية، حيث كانت بين الوزير إبراهيم باشا وعبدالعزيز صداقة!

وأن الخلاف كان محصورا فقط بين الشريف غالب والأمير الثالث للدرعية وهو سعود بن عبد العزيز؛ ولهذا أمرت الخلافة محمد علي بإلقاء القبض على الشريف غالب وسعود وإرسالهما لإسطنبول لوقف هذه الفتنة، فتم بالفعل اعتقال غالب وتوفي سعود قبل وصول قوات محمد علي، ودفع ابنه عبدالله بن سعود الثمن مع أنه كان وبشهادة دحلان ورسالة طوسون مسالما يرفض القتال ويعترف بالتبعية للخلافة، ولهذا وعده محمد علي بأن يشفع له لدى الباب العالي في إسطنبول!

قال دحلان: (وتوفي طوسون باشا سنة إحدى وثلاثين بطاعون وقع بمصر تلك السنة وعمره نحو عشرين سنة، وبقي أمر محمد على باشا نافذا بالحجاز وعساكره في كل ناحية، ونائبه بمكة حسن باشا، ومستشاره بها الشيخ أحمد تركي، والشريف شنبر المنعمي، ولم ينقطع إرسال العساكر من مصر إلى الحجاز.

ثم أرسل محمد علي باشا ابنه إبراهيم باشا إلى الحجاز في المحرم من سنة اثنتين وثلاثين لاستكمال محاربة الوهابية، وللاستيلاء على الدرعية وهي دار

(١)"خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام" ص ٣٨٩

الملك لعبد الله بن سعود وأسلافه، فتوجه إبراهيم باشا ومعه عساكر كثيرة زيادة على ما أرسل قبل ذلك من العساكر وأصحبه من صناديق الأموال مالا يدخل تحت الحصر، ولم يزل سائرا حتى وصل إلى مكة ثم توجه بالعرضي [العرضي: معسكر الجيش وقيادته] إلى الدرعية ويملك كل أرض وصل إليها بلا معارض ومعه كثير من العرب الذين دخلوا في الطاعة إلى إن وصل إلى محل يقال له الموتان في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة فوقع بينه وبين الوهابية قتال شديد وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذ منهم أسرى وخياما ومدفعين، ولما وصلت البشائر إلى مكة ضربوا لذلك مدافع وكذا فعلوا في مصر لما جاءهم البشائر ثم قصد إبراهيم باشا قرية تسمى الشقراء كان بها عبد الله بن سعود فلما سمع بقرب إبراهيم باشا منه خرج هاربا إلى الدرعية ليلا فجاء إبراهيم باشا الشقراء وملكها وكان بينها وبين الدرعية يومان. ثم تقدم إلى أن حاصر الدرعية بعساكره ومن كان معه من العرب واتفق في مدة الحصار أن إبراهيم باشا غاب مدة في جهة من نواحي الدرعية لأمر يبتغيه وترك عرضيه فاغتنم الوهابية غيبته وكبسوا على العرضي على حين غفلة وقتلوا من العساكر جملة وافرة وأحرقوا الجبخانة [مخزن الأسلحة والعتاد الحربي].

فلما وصلت الأخبار إلى مصر بذلك قوي اهتمام محمد علي باشا وأرسل جملة من العساكر في دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا، وأصحبهم كثيرا من الجبخانة والدراهم والذخائر، ولم يزل إبراهيم باشا يغير على أطرافهم ويشدد الحصار عليهم ولما وصلت العساكر المرسلة ازدادت قوته وقوي عزمه ووقع له معهم وقائع إلى أن استولى على الدرعية وملكها في شهر ذي القعدة سنة ثلاث

وثلاثين ومائتين وألف ١٢٣٣هـ، وجاءت البشائر إلى مكة فضربت المدافع ولما وصلت البشائر إلى مصر فرح محمد علي باشا لذلك وصار له سرور عظيم وضرب لذلك نحو ألف مدفع وصنعوا لذلك شنكا وزينة قيل إن عدد المدافع التي ضربت في أيام الزينة بلغت ثمانين ألف مدفع.

وكان محمد علي باشا قبل ذلك مهتما بأمر إبراهيم باشا وكان يوالي ويتابع له إرسال الذخائر والأموال من الذهب والفضة بالأحمال حتى أنهم في مرة من المرات حملوا ذخيرة على جمال العرب خاصة من ينبع إلى المدينة بلغت أجرة تلك الجمال في تلك المرة خمسة وأربعين ألف ريال عن أجرة كل بعير ستة ريالات، يدفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة عند وصول ذلك، ثم صرفوا على تلك الدفعة بعينها من المدينة إلى الدرعية ما يبلغ مائة وأربعين ألف ريال وكان مثل ذلك مستمر التكرار بالبعوث ويحتاج إلى كنوز قارون وهامان وإكسير جابر بن حيان.

محمد علي باشا يقبض على عبد الله بن سعود، ولا يهينه:

وإذا نظرت إلى هذا وإلى ما أنفقه محمد علي باشا من ابتداء التجهيز إلى الحجاز إلى آخره تعلم أن ذلك شيء لا يعد ولا تحصى ولا يمكن فيه الاستقصاء، ولما استولى إبراهيم باشا على الدرعية قبض على عبد الله بن سعود أمير الدرعية وعلى كثير من قرابته وعشيرته وأولاده وأعوانه وأخرب الدرعية بحيث صارت لا تسكن فاستبدل من بقي من أهلها سكنى الرياض وجعلوها بدلا عنها، وتركوها خرابا.

ثم إن إبراهيم باشا أرسل عبد الله بن سعود وكثيرا ممن قبض عليهم من عشيرته إلى مصر فكان ورود عبد الله بن سعود إلى مصر في أوائل المحرم افتتاح سنة أربع وثلاثين وأدخلوه مصر وهو راكب على هجين وأمامه كثير من العساكر وخرج الناس أفواجا للتفرج ركبانا ومشاة رجالا ونساء وأطفالا، وكان يوما مشهودا لا يكاد يوصف ما وقع فيه من نصب الملاعب وشدة الازدحام، وضربوا عند دخوله مدافع كثيرة.

وذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا ببولاق فأقام يومه ثم ذهبوا به في صبحها عند الباشا بشبرا، فلما دخل عليه قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه، وقال له: ما هذه المطاولة فقال: الحرب سجال، قال: وكيف رأيت إبراهيم باشا؟ قال: ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما قدره المولى. فقال الباشا: أنا إن شاء الله أترجي فيك عند مولانا السلطان. فقال: المقدر يكون، ثم ألبسه خلعة وانصرف إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق وكان صحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح. فقال له الباشا: ما هذا؟ فقال: هذا ما أخذه أبي من الحجرة [وهو ما كان يهدى من أموال وهدايا للحجرة النبوية وقد اختلف الفقهاء في جواز التصرف فيه] أصحبه معي إلى السلطان، وفتحه فوجد فيه ثلاثة مصاحف قرآنا مكللة ونحو ثلاثمائة حبة لؤلؤ كبار وحبة زمرد كبيرة وشريط ذهب، قال له الباشا: الذي أخذه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا. فقال: هذا الذي وجدته عند أبي فإنه لم يستأصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل أخذ كذلك كبار العرب وأهل المدينة

وآغوات الحرم وشريف مكة. فقال الباشا: صحيح وجدنا عند الشريف غالب أشياء من ذلك.)[١].

وقد أرسل محمد علي بعد ذلك عبد الله بن سعود إلى إسطنبول، وذلك في عهد الخليفة والسلطان محمود؛ كما قال الشوكاني في "البدر الطالع": (السلطان محمود بن عبد الحميد سلطان الروم:

في هذا الوقت أخبرنا من وفد إلينا من أهل تلك الجهات أنه ولي السلطنة في سنة ١٢٠٠هـ، ووصفوه بالعلم والزهد وحسن الخط والعدل، وأنه يأكل من عمل يده تحريا للحلال، هذا وهو سلطان الدنيا وملك العالم، وهو الذي أمر الباشا بمصر أن يجهز الجيوش على صاحب نجد، فجهز عليه جيشا بعد جيش ومازال يحاربه عاما بعد عام حتى حصره في محله ووطنه وهي القرية المعروفة بالدرعية، ثم مازال الجيش يضرب بالمدافع على تلك القرية ليلا ونهارا حتى أخرب كثيرا منها، ثم أذعن صاحبها وهو عبد الله بن سعود بن عبدالعزيز وسلم نفسه إلى أيديهم، وأدخلوه الروم في سنة ١٢٣٣هـ، وكان الأمير على الجنود الرومية ابن الباشا صاحب مصر وهو إبراهيم بن محمد علي)[٢].

(١)"خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام" ص٣٩٠

(٢) البدر الطالع ٢/ ٢٩٦

الطور الثاني للدعوة الوهابية:

وبعد سبع سنوات من دخول القوات العثمانية إلى نجد واضطراب أوضاعها، أوكل الوالي العثماني إمارة الدرعية إلى ابن معمر، وجعله تابعا للأحساء وأميرها ابن عريعر، وعاد إليها تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الذي كان فارا لسنوات بعد سقوط الدرعية، ثم أوكل إليه تولي إمارة نجد لضبط أوضاعها سنة ١٢٤٠هـ، فاتخذ الرياض مقر حكمه، وتم بعد ذلك إطلاق سراح الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٥م، من سجنه بالقاهرة، ليعود رئيسا للشئون الدينية في نجد، كما أُطلق سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م سراح ابنه الأمير فيصل بن تركي بن عبدالله من السجن في القاهرة حيث ظل رهينة لضمان التزام والده تركي بالتبعية للخلافة العثمانية، وقد عاد فيصل ليكون بعد ذلك مساعدا لوالده، ثم أميرا قائمقاما عثمانيا في نجد خلفا لأبيه وذلك سنة ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤م، إلا أنه خرج عن الطاعة، فكلف محمد علي نائبه في الحجاز خورشيد باشا أمير المدينة بالتوجه إليه بقواته وإلقاء القبض عليه، فسار إليه سنة ١٢٥٣هـ -كما ذكر دحلان في تاريخه- (فلما وصل خورشيد إلى نجد وقع بينه وبين فيصل بن تركي وقائع حصل فيها قتال شديد، واستمر الأمر بينهما إلى أن قبض على فيصل، واستولى على الدرعية والرياض وغيرهما، وأرسل فيصل إلى مصر لمحمد علي باشا سنة أربع وخمسين، وكان صحبة خورشيد باشا خالد بك بن سعود بن عبد العزيز، وكان خالد من الأسرى الذين قبض عليهم إبراهيم باشا سنة ثلاث وثلاثين وأرسلهم إلى مصر فكبر خالد بن سعود وتربى بمصر فاستحسن محمد علي باشا أن يجعله أميرا في نجد بلاد آبائه فأرسله صحبة خورشيد باشا ورتب له المرتبات الجزيلة،

فلما قبض خورشيد باشا على فيصل بن تركي وأرسله إلى مصر أقام خالد بن سعود أميرا في الرياض ومهد له الأمور إلى أن استقر أمره.

ورجع خورشيد باشا بالعساكر فاستمر خالد بن سعود سنتين ثم ظهر منه عدم استقامته وعدم سلوكه على الطريقة التي يرتضيها أهل نجد؛ فثار عليه رجل يقال له عبد الله بن ثنيان فبايعه أهل نجد...

فلما بلغ الخبر فيصل ابن تركي الذي أرسله خورشيد باشا إلى مصر محبوسا صار فيصل يدبر الأمر في هربه من مصر ليصل إلى نجد، وينتزع الملك من عبدالله بن ثنيان فسهل الله له ذلك بإعانة عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا، وكان الأمر في ذلك الوقت لمحمد علي باشا ولابنه إبراهيم، وليس لعباس باشا شيء من الأمر إلا أنه كان محببا عند جده محمد علي باشا ومسموع الكلمة عند رجال دولته.

وكان يجتمع كثيرا بفيصل بن تركي وهو محبوس فقال له فيصل يوما: إن نجدا صارت بيد عبد الله بن ثنيان فلو أتخلص من الحبس وأصل إلى نجد انتزع الملك منه إن شاء الله تعالى وأصير خادما لأفندينا [الأفندي: لقب تركي بمعنى السيد، والمراد هنا: محمد علي باشا والي مصر العثماني] تحت أمره، فوعده عباس باشا بأنه يدبر هذا الأمر له و أمره بكتمانه، ثم بعد أيام أحضر له ركائب وخيلا خفية ووضعها بموضع بعيد عن مصر واحتال في إخراجه من القلعة المحبوس فيها مواطأة مع البواب سرا فخرج في ليلة وصل إلى المواضع التي فيها الركائب والخيل هو وبعض أتباعه، وركبوها وتوجهوا إلى نجد، وبعد يومين بلغ خبر هروبه إبراهيم باشا فأركب كثيرا من العسكر يسيرون خلفه

ليدركوه وكان ممن ركب معهم عباس باشا فساروا يومين فلم يدركوه فرجعوا ولم يزل فيصل سائرا هو ومن معه إلى أن وصلوا جبل شمر، وقصدوا ابن رشيد أمير جبل شمر، فأضافهم وأكرمهم، وأحسن نزلهم، ثم سار بكثير من قومه معهم وقصدوا القصيم فلما وصلوا القصيم قابلهم أهله وأضافوهم وأكرموا نزلهم وساروا بكثير من قومهم معهم فصار الجميع جيشا فقصدوا عبد الله بن ثنيان وهو في الرياض فقاتلوه وحصروه إلى أن قبضوا عليه وحبسوه ثم قتل خنقا في الحبس، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين واستقل فيصل بالملك واستقامت له الأمور واستمر إلى أن توفي سنة اثنتين وثمانين وأصابه في آخر عمره غشاوة في عينيه فصار لا يبصر فكان يوقف عنده بعض خدمه يعرفونه الناس ويخبرونه بكل من أقبل للدخول عليه قبل أن يصل إليه، ولما توفي فيصل قام بالأمر بعده ابنه عبد الله، ثم وقع بينه وبين إخوته اختلاف فانتزعوا الأمر منه وقام به أخوه سعود بن فيصل ثم مات ورجع الأمر إلى عبد الله، وهو باق إلى الآن أعني سنة ألف وثلاثمائة إلا إن ملكه صار ضعيفا جدا؛ لأن الدولة العلية انتزعت منه الأحساء والقطيف وخرج عن طاعته أهل القصيم وصاروا تحت أمر الدولة.

وكذلك ابن رشيد أمير جبل شمر قوي ملكه وخرج عن طاعة عبد الله بن فيصل وصار تحت طاعة الدولة ويدفع لهم خراجا، وكذلك أهل القصيم يدفعون للدولة خراجا وأميرهم منهم ولم يبق تحت طاعة عبد الله بن فيصل سوى القبائل القريبة منه)[1].

(١)"خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام" ص ٤٠٥

وكان فيصل بن تركي الذي يعدّ المؤسس الفعلي للإمارة الثانية بالرياض بعد سقوط الدرعية يأخذ الزكاة من سكان الخليج بصفته واليا لنجد تابعا للدولة العثمانية ولشريف مكة[1]، وبعد وفاة فيصل سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، تولى ابنه عبدالله إمارة الرياض، وصدر الفرمان العثماني بتوليه قائمقام الرياض، ثم بدأت بريطانيا عبر حكومة الهند البريطانية في بومبي بالتدخل في شئون نجد لأول مرة؛ لتنامي وجودها في البحرين وسواحل الخليج بناء على اتفاق أمني مع الخلافة العثمانية لحماية طرق التجارة البحرية، وهنا استغلت بريطانيا الفرصة وتواصلت مع سعود بن فيصل بن تركي، وكان في الأحساء للانقلاب على أخيه عبدالله، وتم دعمه بالأسلحة والمال من البحرين، وقد حذر والي بغداد مدحت باشا كما في مذكراته من مخططات بريطانيا هذه، واعترف بأن سعود أقل التزاما من عبدالله بالدعوة الوهابية، إلا أنه مرتبط بالبريطانيين، بينما عبدالله مع تعصبه الديني إلا أنه قائمقام عثماني وهو ما يوجب مساعدته حيث قال مدحت باشا: (كان عبد الله الفيصل معتدلا لم يعاكس الدولة العلية -الخلافة العثمانية- أما سعود فكان يسعى لاستلام الإمارة، ولذا فإنه توجه إلى الهند للاستعانة بالإنجليز، وألب العشائر وحثهم على شق عصا الطاعة في وجه أخيه، وبعد حروب طويلة انتصر عليه، وكان الإنجليز يعاونون الأمير سعود بالمال والعدة، وكانت البلاد القريبة من نجد قد دخلت تحت حمايتهم، وإذا

---

(١) بريطانيا والخليج لجون كيلي ١ / ٣٨٥-٣٨٩.

حكم الأمير سعود النجديين أدخل البلاد تحت حماية إنجلترا وصارت صاحبة الطول والحول في العراق)[1]!

وقد لجأ الأمير عبدالله إلى البصرة بصفته الوالي العثماني الرسمي على نجد، وتم مساعدته بحملة عسكرية عثمانية، فعاد إلى الرياض وبويع سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، حتى توفي سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩١م، وبعده دخلت الرياض في صراع داخلي، فأوعزت الدولة العثمانية لحايل عاصمة نجد الشمالية وأميرها محمد بن عبدالله بن رشيد بتولي شئون نجد وضبطها، فضمها ابن رشيد لولايته سنة١٣٠٧هـ/ ١٨٩١م، فغادرها أميرها عبدالرحمن بن فيصل إلى قطر ثم إلى الكويت، وكانت الدولة العثمانية تجري له مخصصات شهرية.

وقد وردت تفاصيل ما جرى في تلك الحقبة في كتاب "الحياة الإدارية في سنجق الأحساء العثماني"؛ حيث جاء فيه: (عندما حدثت اضطرابات في نجد والأحساء طلب القائمقام العثماني عبدالله بن فيصل السعود، مساعدات من الوالي العثماني مدحت باشا في العراق الذي بادر بإرسال قواته و أصدر إعلانه لسكان الأحساء ونجد في ١٨٧١م [١٢٨٨هـ]، جاء فيه عن أهدافه وسياسته مؤكدا بأن نجد وما يتبعها ضمن بلاد الدولة العلية، وأن الدولة لم يشغلها عن العمل على ترقية أمور نجد سوى مشاغلها الكثيرة، وآن الأوان لأن ترعى الدولة هذه النواحي رعاية خاصة لتخلصها من الاضطرابات والفتن التي سارت فيها ولتصبح "المملكة الإسلامية المتحدة" [يعني تتحد ولايات الخلافة العثمانية] وندد الإعلان بخروج سعود بن فيصل آل سعود عن طاعة

(١) مذكرات مدحت باشا ٢٤٠. وانظر إلى حدة ذكاء الوالي العثماني! فما كان يخشاه مدحت باشا من سقوط نجد تحت النفوذ البريطاني تحقق بعد ثلاثين سنة من توقعاته!

السلطان العثماني؛ لأنه تعاون مع البريطانيين وثار على أخيه قائمقام نجد، وأكد الإعلان أن عبد الله سيظل قائمقام، وهذا ما دفع سعود بن فيصل بالعدول عن الثورة وإعلان الخضوع ليحصل على عفو السلطان العثماني، وعندما فصل مدحت باشا الأحساء عن نجد عارضه عبد الله بن فيصل، مما أدى إلى عزله وتعيين أخيه فيما بعد على قضاء نجد في حين تحولت الأحساء إلى سنجق)[1].

وجاء أيضا في المصدر السابق عن سنجق الأحساء العثماني: (عند مجيء مدحت باشا إلى الأحساء عام ١٨٧١م [١٢٨٨هـ]، كان أفراد القبائل النجدية قد تمردوا على سعود بن فيصل آل سعود، وعين أهل الرياض عمه عبد الله بن تركي، الذي كان قد أرسل يخبر محمد نافذ باشا بالأمر، فعينه مديرا لناحية الرياض ونائبا عن القائمقام الرسمي عبد الله بن فيصل الذي عينه مدحت باشا، وسلخ عنه الأحساء؛ ولهذا فإنه رفض التعيين وأصر على ضم الأحساء إليه.

وذلك الأمر لم يوافق عليه مدحت باشا فقرر إعادة الأحساء إلى السيادة العثمانية المباشرة، وأصدر أوامره بإنهاء حق عبد الله وأسرة آل سعود في السيادة على الأحساء، لم يع عبد الله بن فيصل سياسة وخطط مدحت للإصلاح الإداري والتنظيم السياسي التي طبقها في بغداد والبصرة والكويت، وعين مدحت نافذ باشا قائمقام نجد، وقبل أن يغادر مدحت الأحساء، تسابق كل من الأخوين سعود وعبد الله أبناء فيصل آل سعود إلى التفاهم معه، وقدم

(١) الحياة الإدارية في سنجق الأحساء العثماني (١٨٧١ - ١٩١٣)، د محمد العيدروس ص ١٩.

سعود عريضة موقعة من قبل شيوخ قبائل نجد يطلبون إسناد قائمقامية نجد إلى سعود في إطار التبعية العثمانية.

ووافقت الحكومة العثمانية على تعيين سعود قائمقام لقضاء نجد، على أساس أن يدفع الضريبة السنوية مثلما كان يدفعها أبوه فيصل آل سعود، وأن يقدم رهائن إلى والي بغداد ليضمن استمرار ولائه، وأرسل أخوه عبدالرحمن بن فيصل آل سعود رهينة إلى بغداد الذي استمر هناك حتى عام ١٨٧٤م [١٢٩١هـ] حين أطلق سراحه[1].

الطور الثالث للدعوة الوهابية:

وفي هذه الفترة قام السلطان عبد الحميد الثاني برعاية الدعوة السلفية في البصرة والزبير ونجد في إطار مشروعه الإصلاحي الديني والتعليمي في كل أقاليم الخلافة -مع مراعاة مذهب أهل كل إقليم- حيث قام فالح السعدون والي ولاية البصرة -التي يتبعها لواء الأحساء ونجد- باستدعاء العلماء والمصلحين من كل مكان، تنفيذا لسياسة السلطان عبدالحميد الإصلاحية الدينية، فأرسل الشيخ عبدالكريم المغربي المشهور بالدرويش لدعوة القبائل في نجد إلى تعلم أحكام الدين، وقد بدأت الدعوة السلفية في نجد على يديه في حدود سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م تقريبا، في الوقت الذي كانت نجد تحت حكم ابن رشيد التابع للخلافة العثمانية، وتمددت الدعوة في الوقت الذي كان عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبد العزيز مقيمين في الكويت، فلما استعاد عبد العزيز الرياض

(١) الحياة الإدارية في سنجق الأحساء العثماني (١٨٧١ - ١٩١٣)، د محمد العيدروس ص ٨١ - ٨٢ .

سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م بمساعدة بريطانيا ومبارك الصباح سرا، توجه إلى والي البصرة وقدم فروض الطاعة للخلافة العثمانية التي أصدرت فرمانا وجعلت منه قائمقام عثماني على الرياض، وظل كذلك إلى نشوب الحرب العالمية الأولى!

وقد ظل ابن سعود يعترف بالتبعية للخلافة العثمانية والحكومة التركية كما ورد في رسالته للشريف حسين أمير مكة سنة ١٩١٢م والتي جاء فيها:

(ولنا أمل بالله أن تكونوا واسطة قوية بيننا وبين متبوعنا الحكومة الشورية، وتعرضوا خدماتنا لدولتنا الدستورية، وستروني حاضرا أنا وأهل نجد لكل ما تكلفوننا وتأمروننا به أفدي السدة العثمانية بعزيز روحي.

التوقيع: خادم الدولة والملة والدين أمير نجد ورئيس عشائرها عبد العزيز بن سعود).

وقول ابن سعود: (حكومتنا الشورية ودولتنا الدستورية) قصد به الحكومة الاتحادية التي تم تشكيلها بعد عزل الخليفة عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨م، وعودة العمل بالدستور العثماني.[١]

لقد كان السلطان عبد الحميد يسابق الزمن في مواجهة الخطر الذي دهم العالم الإسلامي، وحملة التنصير التي بدأت مبكرا خاصة بين القبائل في الشام والعراق، مما حداه إلى توجيه الدعاة والمصلحين إلى كل القبائل؛ كما جاء في الوثائق العثمانية بهذا الخصوص، كما عن قبيلة الرولة من عنزة، حيث ورد عنها: (إن المنطقة الواسعة التي تقطنها قبيلة الرولة لم تسلم من توجه الرحالين الأجانب إليها. ومع اختلاف أهداف هؤلاء الرحالين المتوجهين إلى

(١) العلاقات بين الكويت ونجد للسعدون ٣/ ٤١ ، وانظر عبيد بلا أغلال، حاكم المطيري، ص ١٦٥.

شمال الجزيرة العربية بصورة عامة بين التنقيب عن آثار المنطقة، ودراسة اللهجات المحلية، وتدوين تاريخ القبائل القاطنة فيها، ودراسة أوضاعها الاجتماعية، والاتصال بشيوخ قبائل المنطقة، ودراسة أوضاعها السياسية، وكذلك عمل دراسات عن النباتات الموجودة في المنطقة وغيرها من الأهداف، فقد لاحظت الإدارة العثمانية بالمنطقة قيام بعض من هؤلاء الرحالين بالعمل للدعوة إلى التنصير، ونشر بعض الطقوس الدينية في المنطقة. فقد أشارت بعض التقارير المحفوظة في الأرشيف العثماني إلى قيام بعض الرحالين الأجانب مع بعض الرهبان بأعمال التنصير في بادية الشام وحواضرها. منهم: أنطوان جوسين ورفائيل سافنياك، وهما عالمان في دراسة نقوش شمال الجزيرة العربية، فعلى الرغم من تخصصهما في الآثار القديمة، إلا أنهما لم يتأخرا في القيام بأعمال التنصير في المنطقة أثناء زيارتيهما إليها في عام ١٩٠٧ و١٩٠٩م، كما لم يتأخرا عن تشويه صورة الدولة العثمانية عند قبائل المنطقة، وتأليب رأي عام الأهالي ضد سياستها فيها.

ومن تلك الأعمال، ما تعرضت لها قبيلة الرولة، مما حدا بالغيورين من بعض الموظفين العسكريين في تلك الإدارة؛ لتعيين شيخ أو فقيه أو عالم في داخل القبيلة، تكون وظيفته نشر أركان الإسلام ومبادئه بين أفرادها، مع العمل على تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة، على أن تتحمل الحكومة الرواتب المخصصة لهذا الشيخ.

والجدير بالذكر أن الشخص الذي يتم تعيينه في هذه الوظيفة، سمي في بعض الوثائق بالفقيه، والعالم، والشيخ، والواعظ، كما سمي بالمرشد أيضا.

مع أن المطلوب منه، كما سيأتي الحديث عن المواصفات المطلوبة منه، التدريس أيضا، أي تدريس مبادئ القراءة والكتابة لأولاد أفراد القبيلة. وهذا الأمر سبق تطبيقه في منطقة مكة المكرمة على بعض القبائل القاطنة في محيطها (بدءا من عام ١٢٨٤هـ/١٨٩٨م، وثبت جدواها؛ إذ إن ولاية الحجاز قامت بإرسال مرشدين دينيين إلى المواقع التي تسكنها القبائل؛ بغية توعية أفرادها بأمور الدين، وتعليم أولادها بمبادئ القراءة والكتابة، وبالتالي التوقف عن بعض الأعمال المنافية لأمن القوافل وسلامة عبورها.

بداية الاهتمام بموضوع تعيين مرشد ديني من الحكومة في قبيلة الرولة يبدو واضحة من تقرير قدمه والي سوريا ناظم بن حسين تحسين باشا إلى الباب العالي في ١٢ شعبان ١٣١٩هـ/٢٩ ديسمبر ١٨٩٨م توجه مجموعة من الرهبان إلى بادية الشام؛ لنشر النصرانية بين القبائل المتجولة فيها، إضافة إلى إشارة التقرير إلى بعض الملالي من إيران بالعمل ما وسعهم الجهد في نشر مذهبهم في المنطقة. ونظرا لانتشار الأمية لدى تلك القبائل وعدم وجود حصانة لديها ضد الأفكار الدخيلة، كما أكد على ذلك الباشا في تقريره المذكور بأنه وصل إلى تلك القناعة بعدما أرسل أناسا مخصوصين من طرفه إلى العديد من القبائل القاطنة في المنطقة؛ للتأكد من مدى إلمامهم بأمور الدين. وبناء على ذلك فقد اقترح تعيين معلم لدى كل قبيلة من قبائل بادية الشام، على أن يقوموا بتحصين أفرادها بالعقيدة الإسلامية وتعليمهم قراءة القرآن الكريم)[1].

(١) بحث أكاديمي بعنوان "محاولة العثمانيين إرشاد قبائل الشام دينيا"، د سهيل صابان، ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .

رعاية السلطان عبدالحميد لحركات الإحياء الديني والعلمي ومشروع الجامعة الإسلامية:

لقد شهد عصر السلطان عبدالحميد الثاني -الذي دام نحو ٣٣ سنة من شعبان ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م حتى خُلع ١٣٢٧هـ/ إبريل ١٩٠٩م- نهضة سياسية وعلمية وصناعية وعمرانية كبرى، كادت تقيل الخلافة من عثرتها، وتستعيد بها قوتها، لولا أن عاجلتها الحملة الصليبية ورمتها الكنائس الثلاث عن قوس واحدة -روسيا الأرثوذوكسية، وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا الكاثوليكية، وبريطانيا البروتستانتية - وغزتها في عقر دارها، قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها، فاحتلت أرضها، وأسقطت خلافتها، وتقاسمت أقاليمها!

وقد بدأت النهضة الفكرية الحديثة والدعوة التجديدية في العالم الإسلامي كله في عصر السلطان عبدالحميد وبرعايته وأشهرها:

حركة العروة الوثقى والجامعة الإسلامية:

فقد كان السلطان عبد الحميد وراء حركة الإحياء الديني والجامعة الإسلامية، كما أكدته الوثائق البريطانية، وقد تبنى كثيرا من الإصلاحات العلمية والسياسية التي دعا لها المصلحون الذي كان رائدهم آنذاك جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، اللذين نفيا من مصر بعد ثورة أحمد عرابي وتحالف الخديوي توفيق والإنجليز ضدها، وخضوع مصر للحماية بعدها سنة ١٨٨٢م، حيث أصدرا في باريس مجلة "العروة الوثقى" ودعيا للوحدة وللجامعة الإسلامية تحت قيادة الخلافة العثمانية، وتحرير العالم الإسلامي من الاستعمار الغربي، كما جاء في افتتاحية أول عدد منها الصادر

سنة ١٨٨٤م بقلم محمد عبده حيث يقول: (ولمَّا كلَّفَتهُ -يعني شيخه الأفغاني- جمعية "العروة الوثقى" أن يُنشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية، سألني أن أقوم على تحريرها، فأجبت ونُشر من الجريدة ثمانية عشر عددا).

وقد استطاعت المجلة استثارة الشعور الإسلامي ضد وجود بريطانيا في مصر والسودان والهند، مما اضطر المسئولين البريطانيين وعلى رأسهم اللورد ساليسبوري وتشرشل إلى دعوة جمال الدين إلى لندن وعرضا عليه أن يكون سلطانا على السودان!

وقد قص خبر ذلك المخزومي تلميذ جمال الدين حيث يقول: (ثم ظهرت حادثة المهدي السوداني، محمد أحمد، وأخذ أمره في الاستفحال واتسع منه لإنجلترا مجال المداخلة في شئون مصر، بحجة قمع ثورة المهدي السوداني.

فكتب جمال الدين في العروة مقالات يحذر بها الإنجليز، ويلفت نظر كبير وزرائهم إذ ذاك المستر غلادستون إلى سوء مصير الجنرال غوردون، واستحالة نجاح مقصد الإنجليز بتلك الوسيلة وأمثالها، وأثبت ذلك بحجج قاطعة وبراهين ساطعة..

وقد ثابر جمال الدين على الكتابة في مسألة السودان معددا خطيئات بريطانيا ووزرائها، مفندا لأقوال اللورد غرانفيل، وحجج المستر غلادستون، ومبينا سوء المصير، من انتهاج تلك السياسة في مصر والسودان، كاشفا مساتير السياسة، مما أقام أكابر رجال السياسة في العالم وأقعدهم، واضطربت لها أندية لندن، خاصة.

فاضطر اللورد ساليسبوري وتشرشل، أن يستدعيا جمال الدين ليسألاه رأيه في "المهدي" وظهوره إذ ذاك، فشخص إلى لندن واجتمع بهما، وهناك أفاض بتوضيح الغوامض وأطلعهما على مواقع الخطأ في سياسة إنجلترا خصوصا نحو دول الإسلام في الشرق وما تبعه في مصر، كل ذلك بحجج قاطعة ولهجة شديدة ملؤها الإخلاص.

وبعد أخذ ورد، اختصر اللورد ساليسبوري الحديث ورام تقريب البعيد، فقال لجمال الدين:

إن بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام، بمودة وولاء، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال، لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه.

فقال جمال الدين: تكليف غريب، وسفه في السياسة ما بعده، اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان؟

مصر للمصريين، والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق: الخليفة الأعظم جلالة السلطان [عبدالحميد الثاني] حي يرزق، ولديه من الجيش المادي والمعنوي، ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة في الكون الإسلامي وأجزاء ممالكه!

إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله وما تبحث له من الوسائل، فعلى سبيل الاستطراد والتطفل، ألفت نظرها ونظر كبير رجالها حضرة اللورد إلى -أيرلندا- وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها

من طلب الاستقلال؛ ليتسنى لها معه الإصلاح الحقيقي لبلادهم، فلماذا لا تجيبون سؤالهم وتصلحون أمرهم، وهم أقرب إليكم من حبل الوريد وبينكم وبينهم من الجامعات، ما هو معدوم لكم في مصر والسودان، وغيرهما من ممالك الشرق؟!)[1].

وقد استدعى السلطان عبدالحميد جمال الدين من فرنسا إلى إسطنبول لينفذ معه أفكاره الإصلاحية، فقدم عليه سنة ١٨٩١م فأكرمه السلطان عبدالحميد غاية الإكرام، كما ذكر المخزومي في مقدمته للخاطرات:

(مقابلة السلطان عبد الحميد:

ذهب جمال الدين توا إلى "المابين" وحظي مقابلة جلالة السلطان عبدالحميد، فاستقبله أحسن استقبال، وأكثر من الاحتفاء والاحتفال به، وأدناه منه، وأجلسه بقربه، وكان قد أمر بإعداد وتهيئة قصر له في محلة نيشانطاش، وسيره إليه بعربة خاصة..

أما الإكرام لجمال الدين، والاحتفاء به، والإقبال عليه، من قبل جلالة السلطان عبدالحميد فكان عظيما، وقد أكثر من الاجتماع به إثر وصوله ساعات في كل يوم وليلة، فلخص السيد تلك الاجتماعات، وما دار فيها من الأحاديث بقوله: إن السلطان عبدالحميد، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة خصوصا في تسخير جليسه.

ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه، وعن سيرته وسيره، مقتنعا بحجته، سواء

(١) "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ص ٤٩

في ذلك، الملك، والأمير، والوزير، والسفير، ولكن يا للأسف! إن عيب الكبير كبير والجبن من أكبر عيوب الملوك!

ثم قال: رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كلما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري، وأن الإسلام أول من عمل به في سلطانه أي: الحكم الشوري وذلك عملا بحكم النص ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

قال: ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجا وسلما.

وأعظم ما أدهشني، ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عيانا محسوسا، أن تجزئة السلطنة العثمانية، لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها.

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي أحدثتها أوروبا، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية وتتذرع بها للتدخل في الشئون؛ لتقتطع من أجزاء المملكة، جزءا بعد آخر، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة دول البلقان للخروج على الدولة بحرب، كان السلطان يسارع، بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيده.

فالبلغار مع شدة شكيمتهم ودهاء أميرهم البرنس فرديناند رضخ طائعا لأمره..

قال جمال الدين: أما ما رأيته من يقظة السلطان، وشدة حذره، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا، وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموما، فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك عالما علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك

أوروبا ولا من السعي وراء إضعافها وتجزأتها - وفي الأخير ازدرادها [أكلها] واحدة بعد الأخرى - إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم!

بقي السلطان مستمرا على إقباله وإكرامه لجمال الدين والدسائس والمفاسد لا تؤثر شيئا، حتى خف جمال الدين يوما وطلب من السلطان لأحد الإخوان المصريين الموجودين في الأستانة -ممن كان يتردد على السيد- رتبة وزيادة راتبه فوعده السلطان بإمضاء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بحصول مطلبه، مضت أيام ولم تصدر الإرادة السنية بما طلبه، فكتب للسلطان يذكره ويستنجزه وعده!

ولكن عبثا انتظر، فاحتدم جمال الدين غيظا، وأكبر الأمر، وطلب خطا أن يؤذن له بالمثول وهذه أول مرة طلب بها الإذن للمقابلة، إذ كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين إليه.

فما وصل الطلب بالاستئذان حتى أسرع الحاجب يدعو السيد للحضور، فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ وخشينا سوء العاقبة، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه!

دخل على السلطان فاستقبله حسب عادته، بوجه طلق بشوش وجمال الدين بوجه عبوس قمطريرا.

فاستجوبه السلطان قائلا: خيرا إن شاء الله! ماذا حدث مع حضرة السيد؟

قال: لا شيء! إنما أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك لأني رجعت عنها!

فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال: يا سيدا! هل افتكرت بما تقول؟

قال: نعم! بايعتك بالخلافة! والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد، بيد جلالتك الحل والعقد وبإمكانك أن لا تعد، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء وقد رجوتك بالأمر الفلاني ووعدت بأنك تمضيه، ولم تفعل؟

عند ذلك سكن غيظ السلطان وبهت برهة مطرقا يهز برأسه، يمينا وشمالا، ثم قال: سبحان الله يا حضرة السيد، إن أمرا طفيفا مثل هذا، يحملك أن تهجم على نقض بيعتي لأجله، أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لي عذرا بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبل نقض البيعة، سامحكم الله وأحسن جزاءك..

ثم أصدر إرادته حالا، بما طلب جمال الدين وآنسه كثيرا وباسطه.

قال جمال الدين: الحق يقال أنني شعرت بتسرعي، وعرفت خطأي كما أنني عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره.

وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين وناوله كيسا من المخمل الأحمر فيه دنانير، فتردد جمال الدين وقال: يا حضرة البيك، إن نعم السلطان من قصر، وفرش، وخدم وحشم، ومركبة لم تترك مجالا لمثل هذا المال.

قال القرين: يا حضرة السيد عطاء السلطان لا يرده إنسان.

فأتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ما جرى وقال: عد هذه الدنانير يا شيخ بني مخزوم، فإذا هي خمسمائة ذهب عثماني. قال: ماذا نصنع بها؟ قلت: جبتان! والباقي ترصده للسيجار.

قال: لما ذكرت راتبا شهريا ولا ينبغي أن نهتم بالأمر كثيرا، سوف يظهر الأكفاء لهذه الدنانير فتوزع عليهم وفي الحقيقة لم يمض شهر، حتى وزع المال على أهل الفضل والأدب المعوزين.

هكذا دام إقبال السلطان عبد الحميد على جمال الدين وهو لا يدخر نصحا وتنويها بالخائنين، والسلطان يعلم من خيانتهم أكثر منه، طالما شكا له أعمالهم، حتى قال يوما: يا جلالة السلطان، مللت من تعاطينا الشكاية ومن غيرك صاحب الأمر؟

خذ بحزم جدك محمود واقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة، خفف الحجاب عنك، واظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور، وأعتقد أن نعم الحارس الأجل، فإذا جاء أجلهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤].

قال: عند ذلك تنفس السلطان الصعداء، وقال: ذكرتني في عهد جدي محمود! وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه، وبين حالة أوروبا في زمانه وحالتها اليوم، وبين رعيته والرعية اليوم.

كان الفساد في عصره، منحصرا في فئة العساكر (الانكشارية) -يكي جري- فطهرها بالسيف واستبدلها بخير منها، وكان المجموع صالحا، بعكس ما أنا فيه يا جمال الدين.

ما استبدلت وزيرا بآخر إلا ورأيت من مساوئ الخلف ما أسفت معه على السلف! ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾!

ولا مناص من الصبر وسأفعل إن شاء الله على التدريج ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[النساء: ٤٧]

كلفتك يا حضرة السيد أن تقبل مشيخة الإسلام فتصلحها، فأبيت واعتذرت، إذ طلبت أن تعمل عملا سياسيا، فتغير معه الشكل الحاضر، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله، فعذرتك بعدم القبول، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان.

ولا بد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا عنا ونغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا إن شاء الله.

في الحقيقة أن جمال الدين لم يقبل ما كلفه جلالة السلطان به من الوظائف والرتب والنياشين، معتذرا بقوله:

إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ورتبته ما يحسن من العلوم، مع حسن العمل بالعلم.

أما ما دار من الأحاديث المهمة بين جلالة السلطان وجمال الدين فستأتي في فصول هذا الكتاب)[1].

لقد ظل جمال الدين في إسطنبول يدعو إلى الإصلاح، والسلطان ينفذ ما يقدر عليه، حتى توفي فيها سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م، وفي عصر السلطان عبدالحميد تحقق كثير من الإصلاحات التي دعا لها جمال وجماعة "العروة الوثقى" وغيرهم من دعاة الإصلاح، فتم إعلان المشروطية والدستور سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وانتخب أعضاء المبعوثان (البرلمان) من كل أقاليم الخلافة سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، الذي مثلت فيه كل الأقليات الدينية، ووضع قانون البلديات وانتخبت مجالسها، وربطت أقاليم الدولة بسكة القطار من إسطنبول إلى المدينة النبوية، وبنيت المدارس في كل الأقاليم، وكان عبدالحميد في سباق مع الزمن لتحقيق مشروعه

---

(١) "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ص ٥٨

الإصلاحي، وقد تعثرت بعض هذه الإصلاحات خاصة السياسية بسبب الأخطار الخارجية التي هددت وجود الخلافة نفسها، وقد كان جمال الدين الأفغاني يرى استعادة الخلافة العثمانية لقوتها هو الأمل الوحيد للعالم الإسلامي في مواجهة الحملة الصليبية العسكرية، وقد قال في كتابه "الخاطرات" عن دور العلم والعدل في امتداد سلطان الخلافة العثمانية وطول مدتها: (التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاء عالمون عاملون بحقيقة وأحكام الإسلام، يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم، وينزل على حكمهم، فعدلوا في الرعية، وأمّنوا من دخل في ذمتهم، وسهلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعاتهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم، بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر)[1].

وقال الأفغاني عن محمد الفاتح وعدله وفضله: (نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر، خصوصا بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ومعه خالد أبو أيوب الأنصاري صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ولم يظفروا، ثم العباسيون واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها! وغيرهم من ملوك الإسلام، ولم يظفر بالفتح ومعنى الحديث الشريف: "لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش"، إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيب الله ثراه)[2].

(١) "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ص ١٨٦

(٢) "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ص ١٩١

وقد كان بين جمال الدين والسلطان عبدالحميد لقاءات سرية، ومحاورات مطولة حول مشروعهما "الجامعة الإسلامية" وكان السلطان يوصي جمال الدين بأن يقتصر على الحديث الشفوي حتى لا يطلع الأعداء على خططهم حيث كان الجواسيس الغربيين يراقبون كل شيء!

وقد ذكر جمال في خاطراته بعض ما دار بينهما بخصوص تطوير نظام الخلافة وعلاقة الأقاليم بالمركز، حيث يقول: (لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة، فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له...

نعم إن زمن العمل قد مضى وانقضى، وكان الحزم في إخراج تلك التصورات لحيز العمل والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها وبأسها، أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف، وليس باستطاعة عبدالحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح أو السلطان سليمان أو السلطان سليم أن يفعله.

قال: فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن، وفيه وقاية ما بقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا. فقلت للسلطان عبد الحميد: أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي، لتحسين حال المملكة والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟

قال: لا أريد أن تكتب شيئا من ذلك إذ لا أحب أن يطلع أحد على ما يدور بيننا بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة فأنا لك من السامعين!

قلت: أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها الولاة من الأستانة مثل باكير باشا ومحمد باشا اليدكشي وأمثالهما لجمع الأموال من غير وجهه، وتوزيعها على رجال الدولة هنا في الأستانة فقط، على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية كما هي قبل الإنجليز، خاضعة للدولة ومن الأجزاء المتممة للسلطنة، يأتمر خديويها بأمركم والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان وبكل المعنى رعية، خاضعة، طائعة؟

فتفكر مليا وحول وجهه نحو النافذة عني، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه وأنه لا يحب الخوض فيه ولا العودة إليه! وإذا هو بغتة قد التفت وتوجه بكليته إلي وكانه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة!

وقال: لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ثم ماذا؟

قلت: يا مولاي، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية، ومساحة أملاكها في آسيا فقط [مليونان و] ستمائة وواحد وستون ألف ميل مربع، ومساحة بريطانيا وأيرلاندا مائة وعشرون ألف ميل فتأمل!

فتبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها مثل:

١- طرابلس الغرب، فتجعلها خديوية.

٢- ثم إلى ولايات بغداد، فالبصرة، فالموصل، فتجعلها خديوية!

٣- وإلى بيروت، وسورية، وحلب، مع القدس فتجعلها خديوية.

٤- ثم إلى جزائر بحر سفيد و كريد مع أدرنة وسلانيك فتجعلها خديوية. ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء.

٥- ثم الحجاز فتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم والأحسن سيرة.

٦- ثم اليمن وخديويها يكون الإمام الزيدي.

٧- أما الأناضول وولاياته قونية، وأنقرة، وآيدين، وأطنة، وقسطموني، وسيواس ، وديار بكر، وبتليس، وأرضروم، ومعمورة العزيز، ووآن، وطرابزون، فتقسم إلى ثلاث خديويات، يكون لكل خديوية منفذ بحري الواحد على البحر الأسود إما في سيواس، أو صامسوم، والثاني في بروسة والثالث في أزمير.

٨- وبلاد الألبان وهي ولايات قوصوه، ويانية، وأشقودره، و مناستر، فتجعلها خديوية أيضا.

هذه يا مولاي عشر خديويات، بل عشر ممالك كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان وأكبر مساحة، وأخصب أرضا، وأنشط قوما، وأرجح عقولا، وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية أو التفوق عليهم إلا شكل الحكم وقيود وأغلال المركزية القاتلة للهمم، الموهنة للعزائم، أو من يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم أحد رجلين، إما الخامل، البليد، وهمه جمع المال، وتوسيع الخراب.

وإما الرجل النشيط، العاقل وليس له من الأمر شيء إلا الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر! فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر أو أعوام وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر؟

هذه الخديويات يا مولاي أول من تفوضها إليهم أهل بيتك من أمراء آل عثمان، فتخلصهم من القعود مع النساء وتربية الخصيان! فيحسن بالضرورة كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة، ومصير ذلك التحسين والخير إليه ولأسرته ويكون مع كل أمير وزير فاضل أمين، ثم لا أرى مانعا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عرف من الوزراء بالإخلاص والهمة ورجاحة العقل، ومن غير الوزراء أيضا.

وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم، وجدهم في غير حاشيته الذين يدخلون على بلاطه ولحضوره ويحشون آذانه بالباطل ويمنعون عنه كل حقيقة ويقصون عن قربه كل فاضل!

ثم قال: وقد رأيت السلطان وهو على تمام الإصغاء لا أقول قد تقطب وجهه، وعلته كآبة امتعاض وحزن! فقلت: يا مولاي، وعزة الحق، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي للمسلمين، إن ما ساقني لما قلته إلا الإخلاص، والحرص على ملكك والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة، وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك، الجزء بعد الآخر! فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم، وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته.

ولما انتهيت، هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ، أسرع في تدخينها وقال: ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان وما أبقيت لتخت آل عثمان؟

قلت: يبقى جلالة مولاي السلطان، ملك أولئك الملوك! وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش، غير عرش مصر، ثم متى نهضت تلك المقاطعات والخديويات وأخذت نصيبها من الرقي والعمران؟ وصارت مثلا خديوية العراق مثل خديوية مصر، ثروة وانتظاما، لا شك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى، للاتحاد معها، إذ هي في أمس الحاجة لشد الأزر ولصون كيانها من مطامع الغرب، الموجه نحو عموم دول الشرق. ثم ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك السلك؟ سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى؟ ثم ومتى تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - هل تقعد أهل الهند وراجاتها وأمراؤها والمائة وثمانون مليونا من المسلمين، عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشد ساعد إخوانهم، ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق وعن هندهم أيضا، أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ويرجع الشرق للشرقيين وما ذلك على الله بعزيز!

قال: أما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن لا يأمن أحدا، ويسيء الظن في كل أحد..

وما اتبعت فيما عرضته على جلالته، إلا داعي النصح والإخلاص.

فلم يرد السلطان جوابا على ما ذكرته وسردته، بل قال مثلا تركيا "آت إسكداردن كجندي"! ومعناه "إن الجواد اجتاز أسكدار"! وهو مثل يضربونه الأتراك لما فات من الأمر ولا حيلة فيه!

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال: هذا ما كان مني في هذا الشأن يا شيخ بني مخزوم! وهذا ما كان من السلطان عبد الحميد، سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين الذي تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمائة مليون، ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بهم حقهم، ويموت ويهلك باطل غيرهم! كيف لا تذهب النفس حسرات وأكبر سلطان في المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح وإصلاح الملك والمحافظة أو المطالبة بصريح حقه في أجزاء سلطنته بل روح الممالك الإسلامية باب الحرمين: مصر؟

وفي صون مصر في حوزة الملك الإسلامي وكشف [إخراج] الإنجليز عنها، صون للممالك العثمانية وغلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية.

وعزة الحق: إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم، وما حذرت به من سوء المصير لو تلي على الأموات لتحركت أرواحهم، ولرفرفت على أجداثهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة، ومراء مريع، كاد أن لا يخلو سطر من العروة الوثقى، إلا وفيه ذكر مصر، ولا براهين وأدلة على ظلم الإنجليز إلا ويتمثل في مصر، ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه من التهاون في أمر مصر؛ ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الإسلامية والعرب عموما نغول [فساد] وبعروقها اتصال)[1]!

لقد وجد مشروع السلطان عبد الحميد الثاني الإصلاحي -(الجامعة الإسلامية) والإحياء العلمي والديني الذي رعاه بنفسه لتحقيق نهضة إسلامية كبرى، ولمواجهة الأخطار الخارجية- تجاوبا كبير من علماء عصره، وكان منهم

(١) "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ص ١٩٤

الإمام محمد عبده الذي أرسل من مصر إلى شيخ الإسلام في إسطنبول خطة علمية لإصلاح التعليم في الخلافة العثمانية، والتي أثنى في مقدمتها على توجه السلطان عبد الحميد الثاني هذا لتحقيق هذه النهضة العلمية، وقال فيها: (إن من له قلب من أهل الدين الإسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها هي وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة بوقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة كلها نحيا وعليها نموت إن شاء الله.

إن للخلافة الإسلامية حصونا وأسوارا، وإن أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة والحمية للدفاع عنها، ولا معقد للثقة ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين إلا ما أتاهم من قبل الدين، ومن ظن أن اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها فقد ضل سواء السبيل)[1].

وقد ورث دعوة الشيخين جمال الدين ومحمد عبده تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا الذي أصدر مجلة "المنار" وألف كتابه "الخلافة" في الرد على شبهات الكماليين في تركيا الذي مهدوا الطريق لإلغاء الخلافة بإثارة الشك في شرعيتها، وكانت مجلة "المنار" مصدر إشعاع فكري سرى في جنبات العالم الإسلامي شرقا وغربا، لتدارك السقوط النهائي، إلا أن الوقت قد فات وكانت الحملة الصليبية قد أطبقت عليه وفرضت مشروعها، وتوفي رشيد رضا سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م وفي نفسه شيء من حتى[2]* "السياسية"!

(١) انظر كتاب أحمد آق كوندز "الوثائق" ص ٧٨

* كما يقال في المثل: مات سيبويه وفي نفسه شيء من حتى!

وحاول تلميذه حسن البنا القيام بدوره بإصدار المنار، كما في مقدمة الجزء رقم ٣٥ من المنار الذي صدره شيخ الأزهر مصطفى المراغي بقلمه بقوله (كانت مجلة المنار مرجعا من المراجع الإسلامية العالية، تحل فيها مشاكل العقائد، والفقه، وتحيط بالمسائل الاجتماعية الإسلامية، وأخبار العالم الإسلامي وما فيه من أحداث، وأمراض، وعلل، وكان صاحبها السيد رشيد رضا -رحمه الله- رجلا عالما عاملا غيورا مخلصا للإسلام، محبا لكتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح. وقف حياته لخدمة دينه والأمم الإسلامية، وكان شجاعا في الحق، لا يهاب أحدا، ولا يجامل، ولا يحابي.

نشأ على هذا واستمر فيه إلى أن لقي ربه واحتجبت بعد ذلك مجلة المنار، فأحس العالم الإسلامي بفداحة الخطب وشدة وقع المصاب؛ فإنه لا يوجد -فيما أعلم الآن- ذلك الرجل الذي له من سعة الاطلاع، وحسن التدبير، وحكمة الرأي، وقوة الإدراك في السياسة الشرعية الإسلامية ما يضارع به المرحوم السيد رشيد.

ذلك ماض جليل نودعه من الفخر به والأسى عليه، والآن قد علمت أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث المنار ويعيده سيرته الأولى، فسرني هذا؛ فإن الأستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه، يفهم الوسط الذي يعيش فيه، ويعرف مواضع الداء في جسم الأمة الإسلامية، ويفقه أسرار الإسلام، وقد اتصل بالناس اتصالا وثيقا على اختلاف طبقاتهم، وشغل نفسه بالإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة التي كان يرضاها سلف هذه الأمة.

وبعد فإني أرجو للأستاذ البنا أن يكون على سيرة السيد رشيد رضا).

وقد كان رشيد رضا قد أدرك بأن مشروع النهضة الذي ابتدأه الأفغاني وعبده لن يتحقق إلا بجماعة دعوية حركية سياسية واسعة، تخلف جماعة الدعوة والإرشاد، فأوكل مهمة تأسيسها لأبرز تلاميذه وهو حسن البنا، الذي أسسها سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م باسم "الإخوان المسلمون" وظل رشيد رضا الأب الروحي الراعي لها حتى توفي.

وقد رثى الشيخ حسن البنا رشيد رضا واعترف بفضله على الجماعة حيث يقول في مقاله بعنوان في الميدان من جديد (بعونك اللهم وفي رعايتك، وتحت لواء دعوتك المطهرة، وفي ظل شريعتك القدسية، وعلى هدي نبيك الكريم العظيم سيدنا محمد ﷺ تستأنف هذه المجلة "المنار" جهادها، وتظهر في الميدان من جديد.

رحمة الله ورضوانه ومغفرته للسيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الأول، ومشرق ضوئها في الوجود، فلقد كافح وجاهد في سبيل الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وجمع كلمة المسلمين وإصلاح شئونهم الروحية والمدنية والسياسية، وهي الأغراض التي وضعها أهدافا لجهاده الطويل حتى جاءه أمر ربه بعد أن قضت "المنار" أربعين عاما كانت فيها منار هداية ومنهج سداد.

ولقد ترك السيد رشيد فراغه واسعا فسيحا، وقضى وفي نفسه آمال جسام، وشاهد قبل وفاته تطورا جديدا في حياة الأمة الإسلامية فاستبشر بهذا التطور الجديد وشام منه خيرا وأمل فيه كثيرا، وعزم على أن يساير هذا التطور بالمنار ودعوة المنار، وأن يجعل منها في عامها الجديد الخامس والثلاثين لسان صدق لجماعة جديرة بالدعوة إلى الإسلام وجمع كلمة المسلمين تخلف جماعة

الدعوة والإرشاد وتقوم على الاستفادة بالظروف الجديدة التي تهيأ لها المسلمون في هذا العصر، وقد كتب - رحمه الله - في هذا المعنى في فاتحة هذا المجلد ما نصه: "سيكون المنار منذ هذا العام لسان جماعة للدعوة إلى الإسلام وجمع كلمة المسلمين، أنشئت لتخلف "جماعة الدعوة والإرشاد" في أعلى مقصديها أو فيما عدا التعليم الإسلامي المدرسي منه الذي ضاق زمان هذا العاجز عن السعي له وتولي النهوض به فتركه لمن يعده التوفيق الإلهي له من الذين يفقهون دعوة القرآن وتوحيده ووحدة أهله وجماعته، ولا يصلح له غيرهم" .

ثم ذكر بعد ذلك طرفا من تاريخ مدرسة الدعوة والإرشاد وما لقيت من عقبات ومعاكسات انتهت بالقضاء على فكرتها الجليلة، ثم قال بعد ذلك: "وجملة القول إنني على هذه التجارب وما هو أوجع منها وألذع من أمر مشتركي المنار، وعلى ما أقر به من عجزي عن النهوض بالأعمال المالية الخاصة والعامة بالأولى، وعلى دخولي في سن الشيخوخة وضعفها لم أزدد إلا ثقة ورجاء بنجاح سعيي لأهم أصول الإصلاح الإسلامي وتجديد أمر الدين بما يظهره على الدين كله حتى تعم هدايته وحضارته جميع الأمم، ولم أيأس من قيام طائفة من المسلمين بذلك تصديقا لبشارة رسول الله ﷺ بأنه (لا يزال في أمته طائفة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة) رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما بألفاظ من عدة طرق.

وهذه الطائفة كانت في القرون الأخيرة قليلة متفرقة، وإنني منذ سنتين أكتب عناوين خيار الرجال المتفرقين في الأقطار الذين أرجو أن يكونوا من أفرادها

على اختلاف ألقابهم وصفاتهم وأعمالهم، لمخاطبتهم في الدعوة إلى العمل، وأرجو من كل من يرى من نفسه ارتياحا إلى التعاون معهم على هذا التجديد والجهاد أن يكتب إلينا عنوانه وما هو مستند له من العمل معهم إلى أن ننشر دعوتهم الرسمية، وأهم ما يرجى من الخير لأمة محمد ﷺ في هذا العصر الذي تقارب فيه البشر بعضهم من بعض فهو في تعارف هذه الطائفة القوامة على أمر الله، وتعاونها على نشر الدعوة وجمع كلمة الأمة بعد وضع النظام لمركز الوحدة الذي يرجى أن تثق به، فهي لا ينقصها إلا هذا وقد طال تفكيري فيه وعسى أن أبشرها قريبا بما يسرها منه...".

هكذا قضى السيد محمد رشيد حياته وفي نفسه هذه الآمال الجسام: أن يكون المنار بعد سنته هذه لسان حال جماعة للدعوة إلى الإسلام، وأن تتألف هذه الجماعة من ذوي العقل والدين والمكانة في الشعوب الإسلامية، وأن يشد الأزهر أزر هذه الجماعة وتشد أزره فيكون من تعاونهما الخير كله.

ولقد كان السيد -رحمه الله- صادق العزم مخلص النية في آماله هذه فاستجابها الله له، وشاءت قدرته وتوفيقه أن تقوم على المنار (جماعة الإخوان المسلمين) وأن يصدره ويحرره نخبة من أعضائها، وأن ينطق بلسانها ويحمل للناس دعوتها.

يا سبحان الله، إن جماعة الإخوان المسلمين هي الجماعة التي كان يتمناها السيد رشيد رحمه الله. ولقد كان يعرفها منذ نشأتها ولقد كان يثني عليها في مجالسه الخاصة ويرجو منها خيرا كثيرا، ولقد كان يهدي إليها مؤلفاته فيكتب عليها بخطه: من المؤلف إلى جماعة الإخوان المسلمين النافعة؛ ولكنه ما كان

يعلم أن الله قد ادخر لهذه الجماعة أن تحمل عبئه وأن تتم ما بدأ به، وأن تتحقق فيها أمنية من أمانيه الإصلاحية وأمل من آماله الإسلامية، لقد تمنى السيد رشيد رضا في الجماعة التي اشترطها أن تقوم بأعلى مقصدي "جماعة الدعوة والإرشاد" أي ما عدا التعليم المدرسي، ثم رجا أن توفق الجماعة الجديدة لهذا أيضا، وستحقق جماعة الإخوان المسلمين هذا الرجاء بتوفيق الله، فإن إصلاح التعليم المدرسي الرسمي من أخص مقاصدها وإن أثرها في طلاب الجامعة المصرية والمدارس المدنية من ثانوية وخصوصية لعظيم، وسنواصل الجهد حتى نصل إلى الغاية - إن شاء الله - ويصبح التعليم كله مركزا على أصول سليمة مستمدة من روح الإسلام وسماحة الإسلام وتعاليم الإسلام وحضارته ومجده)[(١)].

لقد كانت هذه الحركة الإصلاحية السياسية والفكرية بداية يقظة العالم الإسلامي التي جددت في خطابه الديني والعلمي كما قال الشيخ المحدث أحمد شاكر: (ثم جاءت النهضة العلمية الإسلامية الحاضرة، وقد نفخ في روحها رجال كانوا نبراس عصرهم، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ووضع أصولها عمليا، وأرسى قواعدها، ووثق بنيانها: والدي محمد شاكر، رضي الله عنهم جميعا.

استيقظت العقول، وثارت النفوس على التقليد، ونبغ في العلماء من يذهب إلى وجوب الاجتهاد، وقد يكون اجتهادا مبتسرا، وقد يكون اجتهادا فيه خطأ كثير، ولكنه خير من الجمود، وأجدى إن شاء الله على الأمة والدين)[(٢)].

(١) مجلة المنار (٣٥/ ٣)

(٢) "الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر التشريع في مصر" ص ٦٨

مواجهة الحملة الصليبية لمشروع اليقظة والجامعة الإسلامية:

لقد أرق مشروع (الجامعة الإسلامية) -الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني فكريا، وتبناه السلطان عبدالحميد سياسيا الدول الصليبية، وبدأت مراكز التبشير والاستشراق الغربي تعقد المؤتمرات لمواجهته فكريا وسياسيا، حتى لا تقوم للعالم الإسلامي وحدة ولا قوة تقف في وجه الحملات الصليبية التي تزحف عليه بلدا بلدا!

وقد جاء عن المؤتمر المسيحي البروتستانتي في الهند برعاية زويمر وما جرى فيه: (وبعد أن تليت التقارير الكثيرة في موضوعات مختلفة بدأ المؤتمرون بالمسائل التي عقدوا مؤتمرهم لأجلها. وافتتحوا ذلك بمسألة (الجامعة الإسلامية)، فقدمت عنها ثلاثة تقارير: الأول من القسيس (نلسن) عن (حركة الجامعة الإسلامية في السلطنة العثمانية). والثاني من القسيس (ورنر) السويسري عن (الجامعة الإسلامية في إفريقيا) والثالث من القسيس (سيمون) عن (حركة الجامعة الإسلامية في مالزية). قال القسيس نلسن عن الجامعة الإسلامية في السلطنة العثمانية: إن حركة هذه الجامعة قد ضعفت جدا بعد خلع السلطان عبدالحميد)[1].

لقد استطاعت القوى الصليبية عبر أذرعها في الدولة العثمانية خلع السلطان عبد الحميد وقطع الطريق على مشروعه الإصلاحي قبل أن يؤتي ثماره، فقد كان (العنصر الأساس لدوام حكمه هو ثقة الأمة به إلى حد اعتقاد الولاية فيه لاستقامة أمره وصلاح حاله، واستمداد القوة من مقام الخلافة على مسلمي العالم كله، فهو باعتبار السلطنة يمثل ثلاثين مليونا، والدولة

---

(١) مجلة المنار ١٥/ ٦٠٥

العثمانية، وباعتبار الخلافة يمثل ثلاثمائة مليون مسلم والعالم الإسلامي. ويقر أعداؤه قبل أصدقائه، بالدهاء الخارق لعبد الحميد الثاني في تفعيل عنصر الخلافة والاتحاد الإسلامي، كذلك، علم أعداؤه قبل أصدقائه، أن سقوطه يعنى هزيمة العالم الإسلامي من بعده، لأنه ظل الله في أرضه بتمثيل مقام الخلافة، وحصن مسلمي الأرض، ألا تبرهن الأحداث الواقعة بعد عزله على صدق سياسته وواقعيتها؟)[1].

رعاية السلطان عبدالحميد للحركة السنوسية في أفريقيا:

وكما رعا السلطان عبدالحميد الثاني حركة جمال الدين الإصلاحية ومشروع (الجامعة الإسلامية) فقد رعا كذلك الدعوة السنية السنوسية في المغرب، لمواجهة الحملات الصليبية التي اجتاحت المنطقة، كما ورد في مقال (السنوسي وأتباعه) في مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا؛ وجاء فيه: (إن اهتمام أوربا بالشيخ محمد المهدي السنوسي وأتباعه قد جعل له شأنا كبيرا في جميع العالم الإسلامي، وقد نشرت جريدة (دي كولوني) الألمانية كلاما عن عالم ألماني خبير بأحوال أفريقيا عامة والسنوسيين خاصة، أثبت فيه أن عددهم يبلغ تسعة ملايين، وأن في وسعهم إنفاذ جيش إلى مصر والسودان مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل، وذكر مجملا نافعا من تاريخهم عربته جريدة المؤيد عن جريدة الميوريال وهو:

(١) الدولة العثمانية المجهولة، د أحمد آق كوندز ص ٤٣٧ .

إن طريقة السنوسية مهمة جدا من حيث انتشارها السياسي في أفريقية ومن حيث الكفاح [الصراع] القائم بين الديانتين الإسلامية والمسيحية في هذه القارة، وقد أنشئت هذه الطريقة منذ خمسين عاما تقريبا أي في عام ١٨٥٥م بواحة جغبوب وواضع أساسها هو الشيخ محمد بن علي السنوسي المولود في عام ١٨١٩م على حدود الجزائر المتاخمة لمراكش، وفي سنة ١٨٣٠م بارح مسقط رأسه مشتعلا بنار الضغينة على الفرنسويين الذين كانوا استولوا وقتئذ على تلك البلاد، ثم قضى بضع سنوات بين مصر ومكة مدرسا علوم الدين إلى أن حط الرحال في واحة جغبوب سنة ١٨٥٥م وفيها لبث زمانا طويلا يلقي تلك الدروس على الطلاب العديدين الذين نسلوا إليه من كل حدب وصوب على إثر اشتهاره بالتقوى والصلاح ورسوخ القدم في العلم، ثم أنشأ المذهب الذي أصبح اليوم أقوى وأهم المذاهب الإسلامية في العالم والغرض منه تنقية القواعد الدينية مما عراها من شوائب البدع والتصرفات السيئة فيه وإرجاعها إلى بساطتها الأولى وتوطيد سيطرة الدين ونفوذه في جميع البلاد التي كانت تابعة لحكومات إسلامية، ثم سقطت بيد المسيحيين.. وعلى إثر وفاة مؤسس المذهب في سنة ١٨٥٨م خلفه ابنه سيدي المهدي محمد بن محمد علي السنوسي، وكان وقتئذ فتى فتيا، وهو إلى اليوم رئيس المذهب الذي أصبح على عهده واسع النطاق منتشرا في الآفاق، وإشارة منه تكفي الآن لإزالة الشحناء والخصومة بين سلطانين من سلاطين أفريقية إذا قام بينهم الشقاق واستحكم الخلاف لأمر من الأمور.

ومن الأمور التي لا ريب ولا خلاف فيها أنه إذا جاء يوم أمر فيه بالجهاد وإثارة الحرب الدينية اهتزت لصوته أركان العالم الإسلامي التي تترامى حدوده في أفريقية إلى مصر شرقا، والكونغو جنوبا حتى بحيرة شاد، ومراكش غربا، وعليه يكون حزب السنوسي قد صار قوة من القوى السياسية التي ينبغي على كل دولة من دول أوربا أن تعمل لها حسابا.

وقد اشتهر سيدي المهدي محمد بالتقوى والصلاح ورعاية أمور الدين، وقد أدرك الفرنسويون خطر موقفهم بإزاء السنوسيين فحاولوا مرارا عديدة أن يجتذبوهم إليهم ويستدنوهم من فرنسا ولكن ذهبت مساعيهم في هذا السبيل أدراج الرياح، وهذا خلاف ما حصل لجلالة السلطان عبدالحميد فإنه تمكن من استجلاب خواطر السنوسيين إليه، وكسب مودتهم، وإن كان يعلم أن نظاماتهم وقوانينهم لا تعترف بجلالته خليفة للإسلام.

وقد بارح الشيخ السنوسي في عام ١٨٩٦م جهة جغبوب قاصدا واحة كوفره الواقعة على مسيرة ١٢ يوما منها في وسط صحراء ليبيا واستصحب معه أكابر العلماء وزعماء الحزب وأخذ المكتبة الكبرى التابعة لهذا الحزب.

ولما بلغ الشيخ السنوسي خبر هزيمة المهدوية في السودان سار قاصدا بلدة جورون على مسيرة ١٢ يوما من الجنوب الغربي لكوفره حيث قبائل بني سليمان والمحاميد من أعظم أنصاره وأشد الناس تعلقا به، وقد أفادت الأخبار الأخيرة أنه انتقل من ذلك المكان في أوائل مارس الماضي قاصدا عين كلاكه على مسيرة ستة أيام منه، وربما اتخذها مقرا له ومركزا تنبعث منه أشعة

سيطرته ونفوذه إلى جميع الأرجاء وسوف يرى الجيل المقبل ويسمع من أخبار هذا الحزب ما لا يخطر له الآن على بال..)[1].

وما توقعته هذه الصحيفة الألمانية عن السنوسية هو ما حدث فعلا، فقد قاد الشريف أحمد بن محمد السنوسي -الذي تزعّم الحركة بعد عمه سنة١٩٠٢م- الجهاد مع الجيش العثماني في ليبيا ضد إيطاليا، فلما عقد الصلح بين الطرفين رفضه، وخرج إلى إسطنبول، وأكمل صاحبه الشيخ عمر المختار الجهاد ضد إيطاليا، كما وقف الشريف أحمد السنوسي مع الخلافة العثمانية ودعا إلى الجهاد والدفاع عن إسطنبول وتحريرها، في حرب الاستقلال وكان له دور كبير في حشد المسلمين في تلك الحرب.

وجاء أيضا عن دور السلطان عبد الحميد الثاني في رعاية شأن السنوسية: (فالسنوسي حر في زاويته من الأرض، وكلمته مسموعة ودعوته سارية في البسائط، والدولة العثمانية في أفريقية حرية بأن تجمع كلمة الإسلام فيها حولها ويحدث الله بعد ذلك أمرا. ولهذا لم يذهب الاهتمام بالشيخ السنوسي عن دهاء السلطان عبدالحميد، فأرسل إليه بمكانه يومئذ من الجنوب المرحوم صادق بك المؤيد العظمي رسولا اجتباه لعلمه بأنه لمثل تلك العزيمة أهلا عقلا ونشاطا وحمية، فشاهد في تلك الرقعة من حال السنوسي ما يسر كل مسلم من قدم صلاح وحلقة درس وتأثل طاعة ونفوذ أمره، وكتب عن ذلك رحلة نشرها رحمه الله وبالجملة: فإن ما يروى وما يرى من أحوال السنوسي والسنوسية يخطر بالبال ما سمعه كاتب المقال منذ ٢٢ سنة من الأستاذين

(١) مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٢٠٧/٣

الكبيرين الشيخ علي الليثي والشيخ محمد عبده -رحمهما الله- وهما يتناجيان في أحد أسمارهما وهو: (أنه لم يبق للإسلام أمل في استئناف الحياة والنهوض أصح مما يؤمل من جانب هذه العصابة) فمن رأى الآن حرب طرابلس قائمة بالسنوسية وعلم كيف أن بعض قبائل من العرب يدربها عدة ضباط من العثمانيين حصروا مدة ستة أشهر إلى حد اليوم جيشا منظما بالغا عدده ١٥٠ ألف جندي كامل العدة حديث آلة الحرب، تذكر كلام ذينك الشيخين العظيمين الذي قالاه منذ ٢٢ سنة، وعلم أن شهرتهما في العقل والعلم وأصالة الرأي لم تكن عبثا، وقد حققت الأيام شيئا من كلامهما)[1].

السلطان عبدالحميد والحركة السلفية في الجزيرة العربية:

لقد انبعثت الحركة الدينية الجديدة في نجد برعاية من السلطان عبدالحميد الثاني نفسه، على يد الشيخ عبد الكريم المغربي [المغربي: قيل نسبة إلى غرب الجزيرة العربية حيث لبث في الحجاز مدة فنسب إليه] الذي كان من كبار علماء البصرة في حضرة شيخ المنتفق فالح السعدون، ثم في صحبة الشيخ مزعل السعدون، ثم رحل بتكليف منه إلى نجد وقام بإحياء الدعوة الدينية من جديد بعد أن استقر بالأرطاوية لدى قبيلة مطير؛ كما يقول ديكسون: (لم يكن لابن سعود أي يد في ظهور هذه الحركة، ولم يلتفت إليها ابن سعود إلا بعد أن احتل الأحساء سنة ١٩١٣)[2].

(١) مقال (طريقة السنوسية) المنشور في مجلة المنار ١٥/ ٥٣٢

(٢) "الكويت وجاراتها" ١/ ١٤٣

ويقول أيضا: (نشأت حركة الإخوان، على حد علمي، على يد الشيخ المتدين عبدالكريم المغربي، الذي كان في وقت من الأوقات، كبير علماء المرحوم فالح باشا السعدون، شيخ اتحاد المنتفق. ثم أصبح بعد ذلك عالما مع مزعل باشا السّعدون، وبعد أن ترك الشيخ عبدالكريم المغربي الخدمة مع مزعل باشا، رحل إلى نجد، التي أخفى نفسه فيها على شكل مصلح ومعلّم ديني، في مدينة الأرطاوية الصغيرة).

وقد أسس الشيخ مزعل السعدون في إطار هذه الحركة الإحيائية -التي دعا إليها السلطان عبدالحميد الثاني- جامعه الكبير في الزبير سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، ليكون مسجدا ومدرسة، واستقدم له العلماء، ومنهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي وصل إلى الزبير سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م بعد وفاة الشيخ مزعل، وبعد خلع السلطان عبدالحميد، وقام الشنقيطي لاحقا بدور كبير في نشر الدعوة الإصلاحية السلفية في جنوب العراق والكويت، كما شارك في قوات عجمي السعدون التي تصدت مع الجيش العثماني للمحتل البريطاني في العراق، وأسس بعد ذلك مدرسة النجاة الأهلية التي ساهمت في حركة الإحياء الديني والدعوة السنية السلفية التي دعا إليها محمد رشيد رضا في مجلة المنار وكانت آنذاك أوسع دعوة علمية فكرية.

التخوف البريطاني من حركة الإخوان:

وقد أبدى المسئولون البريطانيون تخوفهم من هذه الحركة حيث كتب المندوب السامي البريطاني في مصر ريجينالد وينجات إلى آرثر جيمس ميلر في أكتوبر سنة ١٩١٨م تقريرا حول هذا الموضوع جاء فيه:

(ليست لدي معلومات كافية عن قوة الإخوان وأهدافهم، ولكني تعلمت من تجربتي في السودان مدى الخطر الذي يشكله تنظيم سري يعمل تحت عباءة الدين بين سكان غير متحضرين، ففي وقت الشدة يلجأ هذا المسلم إلى الدين مثلما يلجأ بعض أفراد النصرانية إلى الخمر، ويكون المسلم أكثر تعرضا لالتقاط الشرارة الأولى من شرر التشدد الذي يتحول إلى حريق إذا ما أذكاه زعيم غير حصيف أو مضلل أو يستحيل السيطرة عليه بأي حال من الأحوال)[1].

وقد كانت السلطات البريطانية تخشى أن تكون الدولة العثمانية وراء قيام هذه الحركة في نجد لمواجهة بريطانيا في المنطقة بإذكاء الروح الإسلامية التي ترفض الوجود الأجنبي، غير أن السلطات البريطانية رجحت أن تكون الحركة ردة فعل على الاضطراب السياسي الذي تعيشه الجزيرة العربية منذ عقود.[2]

وقد كتب ريجينالد أيضا رسالة إلى جمس بلفور بناء على تقارير فيلبي إليه جاء فيها:

(إن هناك اضطرابا دينيا كبيرا في بعض أجزاء وسط الجزيرة العربية يجري فيه تحريض الناس على إخوانهم الذين باعوا أنفسهم للنصارى، وبخاصة ضد الملك حسين -شريف مكة الذي قام بالثورة العربية ووقف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية-)[3].

(١) الإخوان السعوديون لجون س ٦٢.

(٢) الإخوان السعوديون لجون س ٦٣.

(٣) الإخوان السعوديون لجون س ٦٥.

وقد وصف الضابط السياسي البريطاني في بغداد في مايو سنة ١٩١٨م حركة الإخوان بقوله:

(إنها حركة اشتراكية بمعنى أن الأغنياء يتعين عليهم أن يقتسموا بضاعتهم وسلعهم مع عامة الناس، وقد وردت حالات كثيرة لمشايخ تعين عليهم أن يسلموا ما لديهم من إبل إلى أتباعهم)[١].

لقد تحولت قوة الإخوان إلى شبح يخيف السلطات البريطانية حين كثرت تقارير ضباطها السياسيين التي تؤكد أن ابن سعود ليست له أي سيطرة على هذه القوة (كما تزايد عدد الإنذارات -من الضباط البريطانيين- بالقياس إلى قوة الإخوان العسكرية)[٢].

لقد كان قادة حركة الإخوان الوهابية في نجد كفيصل الدويش وابن ابجاد يعتبرون بريطانيا عدوا يجب قتاله وقتال من يستعين به، ولهذا رفضوا في البداية قتال ابن رشيد أمير حائل التابع للخلافة العثمانية؛ لأنهم مسلمون وإخوة لهم في الدين، بخلاف الشريف حسين أمير مكة الذي باع نفسه للإنجليز!

لقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهها ابن سعود هي في إصرار الإخوان بقيادة فيصل الدويش -أشهر شيوخ قبيلة مطير وقادة حركة الإخوان- على البدء بقتال الشريف حسين لكفره في نظرهم بتحالفه مع بريطانيا والنصارى، بينما كان ابن سعود بتوجيه بريطاني يحاول صرف أنظارهم عن الشريف حسين رجل بريطانيا في غرب الجزيرة العربية، وتوجيههم نحو حائل وابن رشيد

(١) الإخوان السعوديون لجون س ٦٤.

(٢) الإخوان السعوديون لجون س ١١٥.

الذي كان حليفا للدولة العثمانية وعدوا لبريطانيا، وقد عقد ابن سعود مؤتمرا عاما في مدينة شقراء، حضره الزعماء من البدو والحضر، وقد أعلن ابن سعود عن موقفه بضرورة قتال ابن رشيد بدعوى أنه أضعف عسكريا من الشريف حسين وكما يقول جون س من خلال الوثائق:

(طالبت المعارضة بزعامة فيصل الدويش شيخ قبائل مطير والناطق باسم الإخوان أن يقوم الإخوان بالهجوم على الإنجليز، والملك حسين، الذي سلحه الإنجليز والذي يهدد إخواننا في العقيدة في الخرمة)[1].

ولم يستطع ابن سعود الاعتراض على هذه الحجة -بإعلان أن المشكلة ليست مع الإنجليز ولا بتحالف حسين مع الإنجليز، إذ كان هو نفسه حليفا لهم، وتحت حمايتهم، ويستقبل دعمهم- بل برر تحفظه على مثل هذا الرأي الذي يطالبه به الإخوان والدويش بحجة أن الشريف أقوى عسكريا، وأن حائل أشد خطرا، وقد نجح في آخر المؤتمر في إقناع المعارضة (وأن يثبت ولاءه للبريطانيين مع تقوية أمن ممتلكاته في آن واحد)[2].

لقد استطاعت بريطانيا عبر ابن سعود أن توظف حركة الإخوان والوهابية الجديدة في نجد كقوة عسكرية - والتي كانت تفتقد القيادة الفكرية والسياسية بعد خلع السلطان عبدالحميد سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م ووصول الاتحاد والترقي للسلطة - لخوض معركة المشروع البريطاني لاحتلال الخليج والجزيرة العربية!

(١) الإخوان السعوديون لجون س ١٥١.

(٢) الإخوان السعوديون لجون س ص ١٥٢.

وهكذا كانت الحركات الإصلاحية الثلاث: الفكرية السياسية بقيادة جمال الدين ومحمد عبده وجمعية "العروة الوثقى"، والحركة السنوسية الروحية الصوفية في أفريقيا، والحركة العقائدية السلفية في العراق والجزيرة العربية، حركات عثمانية نشأت في ظل الخلافة وسلطانها، وبرعايتها، وكلها ساهمت بإحياء اليقظة الإسلامية المعاصرة، التي خلع السلطان عبدالحميد قبل أن تقطف الأمة ثمارها، فاستطاعت الحملة الصليبية التي احتلت المنطقة إعادة إنتاج هذه الحركات الإصلاحية لصالح مشروع دولها الوظيفية، فإذا حركة جمال ومحمد عبده تنتهي على مستوى الممارسة السياسية بتلميذهما سعد زغلول الذي تحالف مع بريطانيا وأعاد مع حزب الوفد تعريف طبيعة الاحتلال بعدم اعتبار الوجود العسكري البريطاني في مصر احتلالا بل حليفا، وعلى مستوى الفكر بتلميذهما علي عبدالرازق وكتابه "الإسلام وأصول الحكم"، الذي نفى أصلا أن تكون الخلافة من الإسلام في شيء! والذي صار اليوم الملهم لكل حركات الإسلام السياسي التي اكتشفت أن الدولة الوطنية والقومية الجاهلية التي فرضتها الحملة الصليبية على العالم الإسلامي لا تتعارض مع الإسلام! وأن الخلافة مرحلة تاريخية مضت وانقضت ولن تعود! وأن الانخراط في النظام الدولي والالتزام بقرارات الشرعية الدولية -التي بموجبها أُحتلت فلسطين وتُحمى إسرائيل- أمر حتمي لا يتعارض مع الإسلام ورسالته وسيادته!

وإذا كل هذا الركام الوظيفي مما يسمى في مرحلة كامب ديفيد "الإسلام السياسي" يسابق "الإسلام المحافظ" في تقديم فروض الطاعة للحملة الصليبية لتوافق على مشاركته في السلطة في دولها الوظيفية! ولا يجد حرجا في المشاركة في حروبها لكل من يجاهدها تحت شعار "مكافحة الإرهاب" بدعوى

الحفاظ على المشترك الإنساني الحضاري الذي جاء به الماديون الغربيون وقوم لوط المعاصرون!

وإذا الإسلاميون السياسيون والفقهاء المقاصديون يبارون الليبراليين والعلمانيين في نقض قطعيات الشريعة بالتأويل الباطني ليتوافق مشروعهم مع ملة الغرب وشروطه للنهضة المزعومة ليكون لهم مكان في المحفل الماسوني والطاغوت الدولي "مجلس الأمن" الذي تتحكم فيه بحق النقض الفيتو أمريكا وبريطانيا البروتستانتية، وروسيا الأرثوذكسية، وفرنسا الكاثوليكية، والصين الوثنية!

وليكون أقصى أماني هذا الركام الوظيفي الاعتراف بهم في هذا المحفل!

حقيقة الدعوة الوهابية وواقعها المعاصر:

وقد كان كثير من الشيوخ المتعصبين من الحنابلة في نجد وغيرهم آنذاك قد رفضوا التجديد والإصلاح وبدعوا الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه، كما بدّع المتعصبون الحنفية الشيخ البركوي وقاضي زاده في تركيا، وكذا بدّعوا ولي الله الدهلوي في الهند، والشيخ حياة السندي، وبدّعوا أيضا الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني في اليمن، ومع ذلك عمّت دعوتهم الإصلاحية التجديدية العالم الإسلامي كله، كما اعترف بدورها التجديدي والنهضوي المفكرون المعاصرون وعلى رأسهم الإمام محمد عبده ومحمد رشيد رضا؛ حيث يقول عن تغير رأيه في الوهابية بعد أن صدق أكاذيب خصومها (وأول رجل سمعت منه أن هؤلاء الوهابية قوم مصلحون أرادوا إعادة هداية الإسلام إلى عهدها الأول، وأنه كان يرجى أن يجددوا مجد الإسلام والعرب، هو محمد مسعود بك

المصري الكاتب المؤلف المشهور، ثم قرأت ما كتبه في نشأتهم مؤرخ عصر ظهورهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الأزهري، ثم ما كتبه محمود فهمي المهندس المصري في تاريخه (البحر الزاخر)، وصاحب (الاستقصاء في تاريخ المغرب الأقصى)، ثم ما كتبه الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت في (تاريخ الإسلام) له، كما أنه أتيح لي الاطلاع في أثناء ذلك على كتاب "التوحيد"، وكتاب "كشف الشبهات" للشيخ الإمام المجدد الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله تعالى، ثم على غيره من كتبهم بالتدريج، وأطلعت شيخنا الأستاذ الإمام [محمد عبده] على كتاب "التوحيد" و"كشف الشبهات" [للشيخ ابن عبدالوهاب]، فأثنى عليهما، ورأيته موافقا لرأي محمد مسعود، وأنه لم تظلم طائفة من المسلمين في التاريخ بمثل ما ظلم به هؤلاء القوم، على كثرة طعن أعوان الدول، والمذاهب بعضهم في بعض. وكنت أسمع من والدي قبل هجرتي إلى مصر شيئا مما افتراه على الوهابية أحمد زيني دحلان، وأمثاله من صنائع شرفاء مكة، والترك، وثناء على محمد علي باشا الذي أخرجهم من الحجاز)!

كما اعترف بدورها الإصلاحي الشهيد سيد قطب في مقاله بعنوان (صيحة في وجه وزارة المعارف) في مجلة الرسالة عدد ١٠٠١ سنة ١٩٥٢م؛ حيث عدّ القضاء على حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب جناية على النهضة الإسلامية؛ فقال: (تركنا هذه الأجيال كلها تفهم أن تحطيم محمد علي للحركة الوهابية في الجزيرة العربية كان عملا عظيما، وهو في حقيقته كان جناية تاريخية على

النهضة الإسلامية التي كان يمكن أن تبكر مائة عام عن موعدها، لو تركت هذه الحركة تمضي في طريقها، وتبلغ أهدافها في ذلك الحين)[1].

وكذا قال مالك بن نبي عن الحركة الوهابية وأنها تمثل (الفكرة الإسلامية الوحيدة التي تصلح بما فيها من طاقة متحركة لتحرير العالم الإسلامي المنهار منذ سقوط خلافة بغداد) وقال عنها إنها (أمّنت دفعًا ثوريًا ترك بصماته على كل دعاة الإصلاح بعدها، وهذا الدفع الثوري لا ينتقص من قيمته تشددها في بعض الجوانب الشرعية والأحكام أو بعض المواقف المتطرفة لبعض أتباعها مما أوصل بعض تصرفاتهم إلى حد المغالاة).[2]

وقال قبل ذلك وهو يتحدث عن امتزاج هذه الحركات الإصلاحية في تشكيل وعي الجيل الجديد الذي عاش حال الاغتراب عن أمته ودينه:

(كان هناك اتجاه عام لرد هذه الحركة إلى أصول شرقية حديثة كالتي أبدعها جمال الدين ومحمد عبده، ولكن كان يعيبها أنها لا تأخذ باعتبارها التقاليد المحلية.

في الواقع إن "الحركة الإصلاحية" في الجزائر قد اتصفت بصفة الدوام والاستمرار، وربما كان ذلك في العالم الإسلامي كله أيضا، فقد كان الداعون للتجديد يتعاقبون ابتداء من ابن تيمية في القرن الثامن الهجري؛ وكان محمد بن عبد الوهاب -مؤسس أول إمبراطورية وهابية قوض أركانها بعد ذلك محمد علي- في الحقيقة استمرارا لابن تيمية في الجزيرة العربية.

---

(١) "مجلة المنار" ٢٨/ ١

(٢) "مذكرات شاهد" ص ٣٠٦

وجد الملك الحالي لليبيا [الإدريسي قبل انقلاب القذافي عليه] كان أيضا استمرارا لهذا الاتجاه، وأخيرا لعل أقرب من نشير إليهما في الزمان والمكان: الشيخ ابن مهنا وتلميذه المجاوي اللذان حملا في نهاية القرن الماضي في قسنطينة [في الجزائر] لواء هذه الحركة.

وقد تولى الشيخ مولود بن موهوب جذب أفكارنا وعقولنا إلى خط تلك الحركة التقليدية القديمة، ولكنها وجدت في أرواحنا عناصر جديدة أضيفت إلى بنائها)[١]!

وكذا قال العلامة محمود شاكر في رسالته "الطريق إلى ثقافتنا" وهو يتحدث عن المصلحين في القرون الأخيرة قبيل سقوط العالم الإسلامي أمام جحافل الصليب والحملة الفرنسية (فهب من جوف الغفوة الغامرة أشتات من رجال أيقظتهم هدّة هذا التقوض، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها، رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم، فهبّوا بلا تواطؤ بينهم، أرادوا أن يدخلوا الأمة في عصر النهضة، نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام، من هؤلاء محمد بن عبدالوهاب التميمي النجدي في جزيرة العرب.. هب يكافح البدع والعقائد التي تخالف ما عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد وهي ركن الإسلام الأكبر، ولم يقنع بتأليف الكتب، بل نزل إلى عامة الناس في بلاد جزيرة العرب وأحدث رجة هائلة في دار الإسلام)[٢].

(١) "مذكرات شاهد" ص ٦٥

(٢) "الطريق إلى ثقافتنا" ص ٨١

وهذه الوهابية التجديدية الإصلاحية لم يعد لها وجود حقيقي منذ وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان بيده الحل والعقد وكانت الأمور تجري في حياته وفق أحكام الشرع، فقد تحولت بعد وفاته مباشرة من حركة إصلاحية دينية تخضع لها السلطة، إلى حركة سياسية أصبحت الدعوة فيها تابعة وخاضعة للسلطة، وتراجع دورها الإصلاحي أمام الصراع السياسي من أجل السلطة وتوارثها كما حال المهدية في السودان والسنوسية في ليبيا!

وكما قال مالك بن نبي في كتابه "الصراع الفكري" عن تبوأ الوهابية في الحرمين (كانت تبدو للاستعمار ممتلئة بالمخاوف لأنها كانت تمثل في نظره مركز الثقل في الصراع الفكري في البلاد العربية الإسلامية، وكان دوما يفكر في وسائل التخلص منها حتى خلصه منها فعلا البترول)[1].

وقال في "ميلاد مجتمع": (فإن البترول لم يعجز عن رفع المستوى الاجتماعي في هذه البلاد فحسب، بل هبط بهذا المستوى، بما في ذلك القيم الأخلاقية. حتى إنه في بلد يعتمد على البترول كالسعودية، دوى فيها نفير الفكرة الوهابية، وهي التي كان ينظر إليها على أنها خميرة البعث العربي والنهضة الإسلامية في مثل هذا البلد لم يكن للبترول- من وجهة نظر التاريخ- سوى نتيجة واحدة هي: أنه أحرق الفكرة الوهابية)![2]

لقد كانت الوهابية حركة دينية إصلاحية كغيرها من الحركات الإصلاحية التي شهدها العالم الإسلامي في عصور وأمصار مختلفة، وكلها تمثل استجابة لحاجات مجتمعاتها وظروفها، كحركة المرابطين في المغرب، وحركة الموحدين،

---

(١) "الصراع الفكري" ص ١١٨

(٢) "ميلاد مجتمع" ص ٣٢

وهي لا تمثل حركات إصلاح شمولي، وإنما إصلاح جزئي بقدر حاجة المجتمع الذي ظهرت فيه هذه الحركات ومشكلاته التي تصدت لعلاجها، وبمدى التزامها بالمذهب الفقهي في تلك البلدان، وهو ما ينعكس على الواقع السياسي والاجتماعي الذي تعيد تشكيله هذه الحركات وفق رؤاها!

وكثير مما تتهم به الوهابية من خصومها كذب صريح، لا يخفى بطلانه على الملم بتاريخها، وكثير منه بسبب عدم معرفة خطابها العقائدي ومدلولاته؛ كما في إطلاق ألفاظ الكفر المطلق دون المعين، كما أطلقتها نصوص الشارع، وكثير مما يعزى من التشدد هو في حقيقته أثر من آثار المذهب الحنبلي الذي التزمت به حرفيا، وهي لم تشتغل بالاجتهاد الفقهي بقدر عنايتها بمواجهة البدع؛ ولهذا اشتهرت بالتبديع، وغاب عنها الإبداع في أدائها السياسي والاجتماعي؛ لغياب الاجتهاد الفقهي!

وقد وجد فيها غلو وتطرف كما في كل الحركات الإصلاحية التي تتعرض للحرب، فقد تغير خطاب شيوخها بعد ذلك تجاه الدولة العثمانية -بعد حربها عليهم وتدمير الدرعية- فصار خطابهم أكثر تطرفا وحكم بعضهم عليها بالشرك والكفر وهو ما خفت حدته بعد ذلك حين صار فيصل بن تركي قائمقاما عثمانيا!

وقد انتهت الوهابية كحركة إصلاحية تجديدية؛ فلم يعد للوهابية وجود فعلي منذ وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي كان وجوده مانعا لها من الاندفاع السياسي غير المدروس والذي تورطت فيه الحركة بقيادة سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بعد وفاة الشيخ محمد بعشر سنين وذلك

بدخوله في صراع مع شريف مكة -الشريف غالب- ثم السيطرة على مكة والمدينة؛ ظنا منه أن الخلافة العثمانية لا يهمها أمر الشريف بقدر ما يهمها السمع والطاعة لها، ودون إدراك بأن الخلافة العثمانية عالجت مشكلة شرعيتها الدينية بحماية الحرمين وجعل الأشراف القرشيين أمراء على الحجاز؛ وقد أدى هذا الخطأ الاستراتيجي إلى الدخول في مواجهة مع الخلافة العثمانية نفسها أدت إلى تدمير الدرعية وإنهاء الحركة وإعدام أميرها، وقد عادت في طورها الثاني كحركة قبلية تحرص على السلطة السياسية أكثر من الإصلاح الديني.

ولا يمكن محاكمة حركة دينية أو اجتماعية أو سياسية ظهرت قبل ثلاثة قرون من خلال مفاهيم معاصرة، أو من خلال واقعها اليوم دون ملاحظة الفروق الجذرية التي طرأت عليها، أو من خلال القراءة التاريخية المعاصرة لها، والتي قد لا تعبر أصلا عن حقيقة ظهورها وضرورتها وحاجة المجتمع آنذاك لها، وقد لا تكون السردية التاريخية عنها بالأمس واليوم مطابقة لحقائق الواقع آنذاك، وربما كانت الأسطورة والخيال عند أتباعها، والأوهام والأكاذيب عند خصومها يحولان دون تقييمها تقييما واقعيا اليوم!

وإنما تحاكم الحركات من خلال الظرف التاريخي الذي نشأت فيه، ومدى النجاح الذي حققته آنذاك، وما طرأ عليها من تحولات!

والوهابية -التي لم يعد لها وجود حقيقي منذ قرنين، بل منذ وفاة مؤسسها الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ولم تعد السلطة بعده تعبر عن دعوته واجتهاده- من هذه الحركات التي لم تدرس بحيادية وموضوعية حتى صار

خصومها اليوم كمن يحاربون طواحين الهواء؛ فلا توجد اليوم أصلا دعوة وهابية فعلا، وإنما يوجد موروث ديني وهابي لم يعد له أثر في الواقع السياسي، حيث قامت على آثارها إمارة ذات طابع قبلي في طورها الثاني العثماني، ثم إمارة ودولة ذات طابع قومي وطني في طورها الثالث البريطاني، تطور حتى انتهى اليوم إلى طابع حداثي علماني يخضع للنظام الدولي ومنظوماته السياسية والفكرية والعسكرية بما يتناقض جذريا مع أصول الوهابية العقائدية في التوحيد والولاء والبراء، الذي صرح علماؤها قبل قرن بأن التحالف مع النصارى والدخول تحت حمايتهم ردة وكفر ومن نواقض التوحيد! كما أفتى بذلك أئمة الدعوة الوهابية في طورها الثاني بحق من دخل من أهل الخليج العربي تحت حماية بريطانيا، حيث قالوا: (وأما الدخول تحت حماية الكفار، فهي ردة عن الإسلام .. وليس بمنزلة أخذ الخفير لحماية المال، فإن هذا علامة على أنهم منقادون لأمرهم، داخلون في حمايتهم، وذلك موافقة لهم في الظاهر)[1]!

وإذا كانت الحركة الوهابية قد انتهت لانتهاء الحاجة التي استدعت وجودها آنذاك، كما انتهت غيرها من الحركات الإصلاحية؛ فقد بقي أثرها وموروثها مؤثرا في العالم الإسلامي إلى اليوم، كما تراث ابن تيمية، وتراث ولي الله الدهلوي، وتراث سيد قطب.

ولا يمكن الرهان في إصلاح واقع الأمة اليوم على فكر حركة إصلاحية أو مذهب فقهي في عصر مضى؛ لاختلاف ظروف العصر اليوم التي تختلف جذريا

(١) "الدرر السنية" ١٠/ ٤٣٦

عن ظروف العصر الذي ظهرت فيه المذاهب والحركات، وإنما التعويل هو على بعث الخطاب القرآني والنبوي والراشدي واستلهامه في خطاب إصلاحي يجيب عن مشكلات العصر الحديث وأزماته ويقدم الحلول لها، فإذا كانت تلك الحركات الإصلاحية عالجت أزمات مجتمعاتها المحلية، بحكم وجود دولة الخلافة والأمة الواحدة آنذاك، فإن الأزمة اليوم هو غياب الخلافة الراشدة، والأمة الواحدة نفسها، ولا يمكن مواجهة الأزمة إلا بمشروع أمة راشد يعبر عن الإسلام وهداياته بشموليته وأمميته، وهو ما لا يمكن تحقيقه بالفقه المذهبي، ولا بفكر الحركات الإصلاحية التي التزمت بالمذاهب بحكم الواقع الذي كان آنذاك مذهبيا، ولا بأفكار الجماعات والأحزاب التي أعادت إنتاجها الدول الوظيفية في ظل الحملة الصليبية التي تحكم المنطقة منذ سقوط الخلافة العثمانية حتى اليوم، هذه الجماعات السياسية والدينية التي ولدت من رحم الدول الوظيفية، وترعرعت في أحضانها، وآمنت بها، وبالدولة القطرية القومية والوطنية، وبالمحتل الغربي وفلسفته السياسية ونظامه الدولي، وإنما الرهان على الأمة وشعوبها، وعلى ثورتها وجهادها ونهضتها، وعلى بعث روحها الإسلامية، وقيمها الروحية الإيمانية الإنسانية، وعلى استعادة وعيها بذاتها ودينها وتاريخها ورسالتها ووحدتها وسيادتها، وقدرتها على الشهود الحضاري من جديد كما كانت مدة ألف سنة، فلم تعد الفجوة اليوم بينها وبين عدوها المحتل كبيرة كما كان حالها في بداية الحرب العالمية الأولى، بل هي اليوم على أعتاب تحولات كبرى، ستعود فيها تركيا بعد نهضتها كما هو قدرها منذ معركة ملاذكرد قطب الرحى، بعد أن فتحت ثورة الشعوب العربية اليوم الباب أمامها لتستعيد دورها، وزلزلت ثورتها التاريخية الأرض في

المنظومة الوظيفية وتحت أقدامها، واستطاع الشعب الأفغاني هزيمة جيوش الحملة الصليبية، ولم يعد أمام الجميع إلا الاتحاد وتجاوز أوهام الدولة الوطنية، كما تجاوزتها الدولة العثمانية!



الفهرس